بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة «الطارق»

مكية، وهي سبع عشرة آية.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝﴾ قَسَمان: «السماء» قَسَم، و«الطارق» قَسَم. والطارق: النجم. وقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾. واختلف فيه؛ فقيل: هو زُحَل: الكوكب الذي في السماء[1] السابعة؛ ذكره محمد بن الحسن[2] في تفسيره، وذكر له أخباراً، الله أعلم بصحتها. وقال ابن زيد: إنه الثُّريا. وعنه أيضاً أنه زُحَل؛ وقاله الفراء. ابن عباس: هو الجَدْي. وعنه أيضاً وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ والفراء: «النجم الثاقِب»: نجم في السماء السابعة، لا يسكنها غيره من النجوم؛ فإذا أخَذَت النجوم أمكنتها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زُحَل؛ فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد. وحكى الفراء: ثَقُبَ الطائر: إذا ارتفع وعلا. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال:

[٦٢٩٧] كان رسول الله ﷺ قاعداً مع أبي طالب، فانحط نجم، فامتلأت الأرض نوراً، ففزع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال: «هذا نجم رُميَ به، وهو آية من آيات الله» فعجب أبو طالب، ونزل: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝﴾. وروي عن ابن عباس أيضاً «والسماءِ والطارِقِ» قال: السماء وما يطْرُق فيها. وعن ابن عباس وعطاء: «الثاقب»:

[٦٢٩٧] لا أصل له. هو من رواية أبي صالح عن ابن عباس، وقد أقر أبو صالح للكلبي بقوله: كل ما حدثتك به عن ابن عباس، فهو كذب، راجع ترجمته في «الميزان» ١/ ٢٩٦، وذكره الواحدي ٨٥١ بدون إسناد، ومن غير عزو لأحد. وقال الحافظ في تخريج الكشاف ٤/ ٧٣٤: هكذا ذكره الثعلبي، والواحدي بدون إسناد.

---

(١) هذا أثر باطل وكذا ما بعده فإن الكواكب إنما هي دون السماء الدنيا.

(٢) هو النقاش صاحب كتاب «شفاء الصدور» جرحه غير واحد، وقال البرقاني: كل حديث النقاش منكر. وقال اللالكائي: تفسير النقاش إشقاء الصدور وليس شفاء الصدور. راجع الميزان للذهبي ٣/ ٥٢٠ برقم ٧٤٠٤.

الذي تُرْمَى به الشياطين. قتادة: هو عام في سائر النجوم؛ لأن طلوعها بليلٍ، وكل من أتاك ليلاً فهو طارق. قال[1]:

ومِثلك حبلى قد طرقت ومرضِعاً فألهيتها عن ذِي تمائم مُغْيِل

وقال:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تَطَيَّبِ

فالطارق: النجم، اسم جنس، سمي بذلك لأنه يطرق ليلاً، ومنه الحديث:

[٦٢٩٨] «نهى النبي ﷺ أن يطرُق المسافر أهلَه ليلاً، كي تستحِدّ المُغِيبة، وتمتشط الشعِثة». والعرب تسمي كل قاصدٍ في الليل طارقاً. يقال: طرق فلان إذا جاء بليل. وقد طرُق يطرق طروقاً، فهو طارق. ولابن الرومِي:

يا راقدَ الليل مسروراً بأوّلهِ إن الحوادث قد يطرُقن أسحارا

لاتفرحَنَّ بليل طاب أوّله فرب آخرِ ليلٍ أجَّج النارا

وفي الصحاح[2]: والطارق: النجم الذي يقال له كوكب الصبح. ومنه قول هند[3]:

نحنُ بناتِ طارقٍ نمشي على النمارقِ

أي إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء. الماورديّ: وأصل الطَّرْق: الدّق، ومنه سميت المِطرقة، فسمي قاصدُ الليلِ طارقاً، لاحتياجه في الوصول إلى الدق. وقال قوم: إنه قد يكون نهاراً. والعرب تقول؛ أتيتك اليوم طَرْقَتين: أي مرتين. ومنه قوله ﷺ:

[٦٢٩٩] «أعوذ بك من شر طوارِقِ الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن».

وقال جرير في الطروق:

[٦٢٩٨] صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤٣ و ٥٢٤٤ ومسلم ٣/١٥٢٧ برقم ٧١٥ ح ١٨١ و ١٨٢ وأحمد ٣/٢٩٨ والحميدي ١٢٩٧ وأبو داود ٢٧٧٦ والترمذي ٢٧١٢ وابن حبان ٤١٨٢ وأبو يعلىٰ ١٨٤٣ و ١٨٩١ من حديث جابر بألفاظ متقاربة.

[٦٢٩٩] جيد أخرجه الطبراني ٣٤٥٤ من حديث أبي مالك الأشعري وإسناده ضعيف لضعف محمد بن إسماعيل بن عياش، وله شاهد من حديث خالد بن الوليد، أخرجه الطبراني ٣٨٣٨، ٣٨٣٩ من طريقين فيهما ضعف، وله شاهد من حديث أبي التياح أخرجه أحمد ٣/ ٤١٩ وأبو يعلىٰ ٦٨٤٤ ورجاله رجال الصحيح. وله شواهد راجع المجمع ١٠/١٢٦.

---

(١) هو الشاعر الماجن امرؤ القيس.

(٢) للجوهري رحمه الله.

(٣) هي هند بنت بياضة.

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوبِ وليس ذا   حينَ الزيارة فارجِعِي بسلامِ

ثم بين فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ والثاقب: المضيء. ومنه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ١٠]. يقال: ثقَب يثْقُب ثُقُوباً وثقابة: إذا أضاء. وثُقوبُه: ضوءه. والعرب تقول: أثقِب نارك؛ أي أضئها. قال:

أذاعَ به في الناسِ حتّى كأنه   بعلياءَ نارٌ أوقدتْ بثَقُوب

الثَّقوب: ما تشعل به النار من دُقاق العِيدان. وقال مجاهد: الثاقب: المتوهِّج. القشيري: والمعظَم على أن الطارق والثاقب اسم جنس أريد به العُموم، كما ذكرنا عن مجاهد. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾ تفخيماً لشأن هذا المقسَمِ به. وقال سفيان: كل ما في القرآن «وما أدراك؟» فقد أخبره به. وكل شيء قال فيه «وما يدريك»: لم يخبره به.

قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾.

قال قتادة: حَفَظة يحفظون عليك رِزقك وعملك وأجلك. وعنه أيضاً قال: قرِينه يحفظ عليه عمله، من خير أو شر. وهذا هو جواب القسم. وقيل: الجواب «إنه على رجعِهِ لقادِر» في قول الترمذيّ، محمد بن علي. و«إن»: مخففة من الثقيلة، و«ما»: مؤكدة، أي إن كل نفس لعليها حافظ. وقيل: المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ: يحفظها من الآفات، حتى يُسلمها إلى القدر. قال الفراء: الحافظ من الله، يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير، وقاله الكلبيّ. وقال أبو أُمامة:

[٦٣٠٠] قال النبي ﷺ: «وكِّل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذُبُّون عنه ما لم يقدر عليه. من ذلك البصر، سبعة أملاك يذبون عنه، كما يذب عن قصعة العسل الذباب. ولو وكِل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين». وقراءة ابن عامر وعاصم وحمزة «لَمَّا» بتشديد الميم، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ، وهي لغة هذيل. يقول قائلهم: نَشَدتك لمَّا قمت. الباقون بالتخفيف، على أنها زائدة مؤكدة، كما ذكرنا. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] على ما تقدم. وقيل: الحافظ هو الله سبحانه؛ فلولا حفظه لها لم تبق. وقيل: الحافظ عليه عقله، يرشده إلى مصالحه، ويكفه عن مضارّه.

[٦٣٠٠] ضعيف بهذا اللفظ. أخرجه الطبراني في الكبير ٧٧٠٤ من حديث أبي أمامة، وضعفه الهيثمي في المجمع ٧/ ٢٠٩ بعفير بن معدان، وكذا ضعفه الحافظ في تخريج الكشاف ٤/ ٧٣٤ ولعجزه شواهد. وهو بهذا اللفظ ضعيف.

قلت: العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو الله جل وعز؛ قال الله عز وجل: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. وما كان مثله.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي ابن آدم ﴿مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾؟ وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان بالنظر في أوّل أمره وسنته الأولى، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يُمْلِي على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره. و﴿مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾؟ استفهام؛ أي من أي شيء خلق؟ ثم قال: ﴿خُلِقَ﴾ وهو جواب الاستفهام ﴿مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦﴾ أي من المنِيّ. والدّفْق: صب الماء، دفقت الماء أدفُقُه دفقاً: صببته، فهو ماء دافق، أي مدفوق؛ كما قالوا: سِرّ كاتِم: أي مكتوم؛ لأنه من قولك: دُفِق الماء، على ما لم يُسَمَّ فاعله. ولا يقال: دَفَق الماءُ[1]. ويقال: دفَقَ الله رُوحَه؛ إذا دُعِي عليه بالموت. قال الفراء والأخفش: «من ماءٍ دافِقٍ» أي مصبوب في الرّحِم. الزجاج: من ماء ذي اندفاق. يقال: دارع وفارس ونابل؛ أي ذو فرس، ودِرع، ونبل. وهذا مذهب سيبويه. فالدافق هو المندفق بشدّة قوّته. وأراد ماءين: ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لَكِن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما. وعن عكرمة عن ابن عباس: «دافِقٍ» لَزِج. ﴿يَخۡرُجُ﴾ أيَ هذا الماء ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾ أي الظهر. وفيه لغات أربع: صُلْب، وصُلُب ـ وقرىء بهما ـ وصَلَب (بفتح اللام)، وصالب (على وزن قالَب)؛ ومنه قول العباس[2]:

تُنقَلُ من صالَبٍ إلى رَحِمٍ

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾: أي الصدر، الواحدة: تَرِيبة؛ وهي موضع القِلادة من الصدر. قال[3]:

مهَفْهفة بيضاء غيرُ مُفاضةٍ ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[4]

والصُّلْب من الرجل، والترائب من المرأة. قال ابن عباس: الترائب: موضع

(١) بل يقال ذلك نقله صاحب اللسان عن الليث، وانظره في المصباح المنير.
(٢) هو ابن عبد المطلب يمدح رسول الله ﷺ وتمامه: إذا مضىٰ عالم بدا طبق.
(٣) هو امرؤ القيس.
(٤) السجنجل: المرآة.

القلادة. وعنه: ما بين ثدييها؛ وقال عكرمة. ورُوي عنه: يعني ترائب المرأة: اليدين والرجلين والعينين؛ وبه قال الضحاك. وقال سعيد بن جبير: هو الجِيد. مجاهد: هو ما بين المنكِبين والصدر. وعنه: الصّدر. وعنه: التراقي. وعن ابن جبير عن ابن عباس: الترائب: أربع أضلاع من هذا الجانب. وحكى الزجاج: أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر، وأربع أضلاع من يسرة الصدر. وقال معمر بن أبي حبيبة المَدَنيّ: الترائب عُصارة القلب؛ ومنها يكون الولد. والمشهور من كلام العرب: أنها عظام الصدر والنحر. وقال دُريد بن الصمة:

فإن تدبِروا نأخذكُمُ في ظهورِكُمْ ... وإن تقبِلوا نأخذكم في الترائب

وقال آخر:

وبدت كأن ترائبا من نحرها ... جمرُ الغَضَى في ساعدٍ تتوقد

وقال آخر[1]:

والزعفرانُ على ترائِبِها ... شِرق به اللُّبَّات والنحرُ[2]

وعن عكرمة: الترائب: الصدر؛ ثم أنشد:

نِظامُ دُر على ترائبها

وقال ذو الرمّة:

ضَرَجْن البرود عن ترائب حرة[3]

أي شققن. ويروى «ضرحن» بالحاء؛ أي ألقين. وفي الصحاح: والتريبة: واحدة الترائب، وهي عظام الصدر؛ ما بين الترقوة والثَّنْدُوة.

قال الشاعر:

أشرفَ ثَدياها على التَّرِيبِ[4]

وقال المثقِّب العَبْدِيّ:

ومِن ذَهَبٍ يُسَنُّ[5] على تَرِيبٍ ... كلون العاج ليسَ بذي غُضونِ

عن غير الجوهريّ: الشندوة للرجل: بمنزلة الثدي للمرأة. وقال الأصمعيّ: مَغْرِز

---

(١) هو المخبل.

(٢) اللبات: جمع لبة موضع القلادة.

(٣) تمامه: وعن أعين قتلتنا كل مقتل.

(٤) قائله الأغلب العجلي.

(٥) سَنَّ الأمر: بينه. وفي البحر وروح المعاني «يبين» بدل «يُسَنُّ».

الثدي. وقال ابن السكيت: هي اللحم حول الثدي؛ إذا ضممت أوّلها همزت، وإذا فتحت لم تهمز. وفي التفسير: يخلق من ماء الرجل الذي يخرج من صلبه العظم والعصب. ومن ماء المرأة الذي يخرج من ترائبها اللحم والدّم؛ وقاله الأعمش. وقد تقدّم مرفوعاً في أوّل سورة (آلِ عمران). والحمد لله ـ وفي (الحجرات) ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] وقد تقدّم. وقيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ثم يجتمع في الأنثيين. وهذا لا يعارض قوله: «من بين الصلب»؛ لأنه إن نزل من الدماغ، فإنما يمرّ بين الصلب والترائب. وقال قتادة: المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي عن العرب؛ وعليه فيكون معنى من بين الصلب: من الصلب. وقال الحسن: المعنى؛ يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل، ومن صلب المرأة وترائب المرأة. ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يُشْبه الرجل والديه كثيراً. وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المني. وأيضاً المكثر من الجماع يجد وجعاً في ظهره وصلبه؛ وليس ذلك إلا لخلوّ صلبه عما كان محتبساً من الماء. وروى إسماعيل عن أهل مكة «يخرج من بين الصُّلُب» بضم اللام. ورُوِيت عن عيسى الثقفي. حكاه المهدويّ وقال: من جعل المنِيّ يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، فالضمير في «يخرج» للماء. ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان. وقرىء «الصَّلَب»، بفتح الصاد واللام. وفيه أربعُ لغات: صُلْب وصُلُب وصَلَبَ وصَالَب. قال العَجَّاج:

في صَلَبٍ مثلِ العِنان المؤدَمِ

وفي مدح النبيّ ﷺ:

تُنْقَل من صَالَبٍ إلى رَحِمِ[1]

الأبيات مشهورة معروفة. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ أي إن الله جل ثناؤه ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي على ردّ الماء في الإحليل، ﴿لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ كذا قال مجاهد والضحاك. وعنهما أيضاً أن المعنى: إنه على رد الماء في الصلب؛ وقاله عكرمة. وعن الضحاك أيضاً أن المعنى: إنه على ردّ الإنسان ماء كما كان لقادر. وعنه أيضاً أن المعنى: إنه على ردّ الإنسان من الكِبَر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر. وكذا في المهدويّ. وفي الماوردِيّ والثعلبيّ: إلى الصِّبا، ومن الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج، لقادر. وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضاً: إنه على ردّ الإنسان بعد الموت لقادر. وهو اختيار الطبريّ. الثعلبيّ؛ وهو الأقوى؛ لقوله تعالى:

(١) تقدم آنفاً.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝﴾. قال الماورديّ: ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة؛ لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرَّجْعة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: العامل في «يومَ» ـ في قول من جعل المعنى إنه على بعث الإنسان ـ قوله: «لقادر»، ولا يعمل فيه «رَجْعِه» لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر «إنّ». وعلى الأقوال الأُخر التي في «إنه على رجْعِه لقادِر»، يكون العامل في «يومَ» فعل مضمر، ولا يعمل فيه «لقادر»؛ لأن المراد في الدنيا. و﴿تُبْلَى﴾ أي تمتحن وتختبر؛ وقال أبو الغُول الطُّهَوِيّ[1]:

ولا تَبْلَى بَسالَتُهُمْ وإنْ هُم صَلُوا بالحَرْب حِيناً بعدَ حِينِ

ويروى «تبلى بَسالتُهم». فمن رواه «تُبلى» ـ بضم التاء ـ جعله من الاختبار؛ وتكون البسالة على هذه الرواية الكراهة؛ كأنه قال: لا يُعرف لهم فيها كراهة. و«تُبْلى» تُعْرَف. قال الراجز:

قد كنتَ قبلَ اليوم تَزْدَرِيني فاليومَ أَبْلُوكَ وتَبْتَلِيني

أي أعرفك وتعرفني. ومن رواه «تَبْلَى» ـ بفتح التاء ـ فالمعنى: أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن تكررت عليهم زماناً بعد زمان. وذلك أن الأمور الشِّداد إذا تكررت على الإنسان هَدّته وأضعفته. وقيل: «تُبْلَى السرائر»: أي تخرج مخبآتها وتظهر، وهو كل ما كان استسره الإنسان من خير أو شر، وأضمره من إيمان أو كفر؛ كما قال الأحوص:

سَتُبْلَى[2] لها في مُضْمَر القلب والحَشَا سريرةُ ودّ يوم تُبْلَى السَّرائرُ

الثانية: رُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦٣٠١] «اِئتمن الله تعالى خلقه على أربع: على الصلاة، والصوم، والزكاة

[٦٣٠١] ضعيف جداً. أخرجه الواحدي ٤/ ٤٦٦ من حديث أبي الدرداء، وفيه محمد بن يونس الكديمي، وهو متروك والصواب كونه من كلام المفسرين، فقد أورده السيوطي في الدر ٦/ ٥٦١ عن عطاء، وعن يحيىٰ بن أبي كثير موقوفاً عليهما.

---

(١) شاعر إسلامي منسُوب إلىٰ «طهية» أم قبيلة من العرب.

(٢) وقع في الأصول «سيبقىٰ» والتصويب عن تفسير الماوردي والبحر لأبي حيان والكشاف.

والغُسل، وهي السرائر التي يختبرها الله عز وجل يوم القيامة». ذكره المهدويّ. وقال ابن عُمر قال النبيّ ﷺ:

[٦٣٠٢] «ثلاث من حافظ عليها فهو وليّ الله حقاً، ومن اختانهنّ فهو عدوّ الله حقاً: الصلاة، والصوم، والغُسل من الجنابة» ذكره الثعلبيّ. وذكر الماورْدِيّ عن زيد بن أسلم:

[٦٣٠٣] قال رسول الله ﷺ: «الأمانة ثلاث: الصلاة، والصوم، والجنابة. استأمن الله عز وجل ابن آدم على الصلاة، فإن شاء قال صليت ولم يصل. استأمن الله عز وجل ابن آدم على الصوم، فإن شاء قال صمت ولم يصم. استأمن الله عز وجل ابن آدم على الجنابة، فإن شاء قال اغتسلت ولم يغتسل، اقرؤوا إن شئتم ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾، وذكره الثعلبي عن عطاء. وقال مالك في رواية أشهب عنه، وسألته عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾: أبلغك أن الوضوء من السرائر؟ قال: قد بلغني ذلك فيما يقول الناس، فأما حديث أُحدّث به فلا. والصلاة من السرائر، والصيام من السرائر، إن شاء قال صليت ولم يصل. ومن السرائر ما في القلوب؛ يجزي الله به العباد. قال ابن العربيّ: «قال ابن مسعود: يُغفر للشهيد إلا الأمانة، والوضوء من الأمانة، والصلاة والزكاة من الأمانة، والوديعة من الأمانة؛ وأشدّ ذلك الوديعة؛ تُمَثّل له على هيئتها يوم أخذها، فيرمىٰ بها في قعر جهنم، فيقال له: أخرجها، فيتبعها فيجعلها في عنقه، فإذا رجا أن يخرج بها زلت منه، فيتبعها؛ فهو كذلك دَهْرَ الداهرين. وقال أبيّ بن كعب: من الأمانة أن ائتُمنتِ المرأة على فرجها. قال أشهب: قال لي سفيان: في الحَيضة والحمل، إن قالت لم أحِض وأنا حامل صُدّقت، ما لم تأت بما يعرف فيه أنها كاذبة. وفي الحديث: «غُسل الجنابة من الأمانة»[1]. وقال ابن عُمر: يُبدِي الله يوم القيامة كل سر خفيّ، فيكون زيناً في الوجوه، وشيناً في الوجوه. والله عالم بكل شيء، ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أي مَنْعة تمنعه. ﴿وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ ينصره مما نزل به. وعن عِكرمة «فما له مِن قوةٍ ولا ناصِرٍ» قال: هؤلاء الملوك، ما لهم

[٦٣٠٢] عزاه المصنف للثعلبي، ولم أجده عند غيره، والثعلبي غير حجة، فإنه يروي الموضوعات.

[٦٣٠٣] لم أره مسنداً، وأمارة الوضع لائحة عليه ذكره الماوردي ٤/ ٢٤٨ عن زيد بن أسلم مرسلاً بدون إسناد. وقد رواه الثعلبي عن عطاء من قوله، كما ذكر القرطبي، وهو أشبه.

(١) هو بعض المتقدم.

يوم القيامة من قوّة ولا ناصر. وقال سفيان: القوّة: العَشِيرة. والناصر: الحلِيف. وقيل: «فما له من قوّةٍ» في بدنه. «ولا ناصرٍ» من غيره يمتنع به من الله. وهو معنى قول قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾ أي ذات المطر. ترجع كل سنة بمطر بعد مطر. كذا قال عامة المفسرين. وقال أهل اللغة: الرجْع: المطر، وأنشدوا للمُتَنَخِّل يصف سيفاً شبهه بالماء:

أبيضُ كالرجْعِ رَسُوبٌ إذا ... ما ثاخ في مُحْتَفَلٍ يَخْتِلي

ثاخت قدمه في الوحل تثوخ وتثيخ: خاضت وغابت فيه؛ قاله الجوهري.

قال الخليل: الرجع: المطر نفسه، والرجع أيضاً: نبات الربيع. وقيل: ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾: أي ذات النفع. وقد يُسمى المطر أيضاً أَوْباً، كما يسمى رَجْعاً، قال:

رَبَّاء شَمَّاءُ لا يأوِي لِقُلّتِها ... إلا السحابُ وإلا الأَوبُ والسَّبَلُ

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمس والقمر والنجوم يَرْجعن في السماء؛ تطلع من ناحية وتغيب في أخرى. وقيل: ذات الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد. وهذا قَسَم. ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾ قَسَم آخر؛ أي تتصدّع عن النبات والشجر والثمار والأنهار؛ نظيره ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾ [عبس: ٢٦]... الآية. والصدع: بمعنى الشَّق؛ لأنه يصدع الأرض، فتنصدع به. وكأنه قال: والأرض ذات النبات؛ لأن النبات صادع للأرض. وقال مجاهد: والأرض ذات الطُّرُق التي تَصْدَعها المشاة. وقيل: ذاتِ الحَرْث، لأنه يصدعها. وقيل: ذاتِ الأموات: لانصداعها عنهم للنشور. ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾ على هذا وقع القَسَم. أي إن القرآن يَفْصل بين الحق والباطل. وقد تقدّم في مقدمة الكتاب ما رواه الحارث عن عليّ رضي الله عنه قال:

[٦٣٠٤] سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتاب فيه خَبَر ما قبلكم وحُكْم ما بعدكم، هو الفَصْل، ليس بالهزل، من تركه من جَبّار قَصَمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله». وقيل: المراد **بالقول الفصل**: ما تقدم من الوعيد في هذه السورة، من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾. ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾ أي ليس القرآن

[٦٣٠٤] الصواب موقوف، وتقدم في المقدمة.

بالباطل واللعب. والهزل: ضدّ الجِدّ، وقد هَزَلَ يَهْزِل. قال الكميت:

يُـجَـدّ بنـا فـي كـلّ يـومٍ ونَـهْـزِل

﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي إن أعداء الله ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾ أي يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابه مَكراً. ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ أي أجازيهم جزاء كيدهم. وقيل: هو ما أوقع الله بهم يوم بدرٍ من القتل والأَسر. وقيل: كَيْد الله: استدراجُهم من حيث لا يعلمون. وقد مضى هذا المعنى في أوّل «البقرة»، عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥]. مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي أخرهم، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم، وارضَ بما يدبره في أمورهم. ثم نسخت بآية السيف ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]. ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ﴾ تأكيد. ومَهْل وأمهِل: بمعنى؛ مثل نَزّل وأَنْزِل. وأمهله: أنظره، ومهله تمهيلاً، والاسم: المُهْلَة. والاستمهال: الاستنظار. وتَمهَّل في أمره أي اتّأد. واتْمَهَلّ اتْمِهْلالا: أي اعتدل وانتصب. والاتْمِهلال أيضاً: سكون وفتور. ويقال: مهلاً يا فلان؛ أي رِفقاً وسكوناً. ﴿رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ أي قريباً؛ عن ابن عباس. قتادة: قليلاً. والتقدير: أمهلهم إمهالاً قليلاً. والرُّوَيْد في كلام العرب: تصغير رُوْد. وكذا قاله أبو عبيد. وأنشد[1]:

كـأنّـهَـا ثَـمِـلٌ يـمشِـي على رُودِ[2]

أي على مَهل. وتفسير «رُوَيداً»: مَهْلاً، وتفسير (رُوَيْدَك): أمهِل؛ لأن الكاف إنما تَدْخله إذا كان بمعنى أفعِل دون غيره، وإنما حرّكت الدال لالتقاء الساكنين، فنُصِب نصب المصادر، وهو مصغر مأمور به؛ لأنه تصغير الترخيم من إرواد؛ وهو مصدر أَرْوَد يُرْوِد. وله أربعة أوجه: اسمٌ للفعل، وصفة، وحال، ومصدر؛ فالاسم نحو قولك: رُوَيْدا عَمْراً؛ أي أروِد عمرا، بمعنى أمهِله. والصفة نحو قولك: ساروا سيراً رُوَيداً. والحال نحو قولك: سار القوم رُوَيْداً؛ لما اتصل بالمعرفة صار حالاً لها. والمصدر نحو قولك: رُوَيْد عَمرٍو بالإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]. قال جميعه الجوهريّ: والذي في الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتاً للمصدر؛ أي إمهالاً رُوَيداً. ويجوز أن يكون للحال؛ أي أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب. ختمت السورة.

---

(١) عجز بيت للجموح الظفري.

(٢) صدره: تكاد لا تثلم البطحاء وطأتها.

سورة الأعلى

مَكّية في قول الجمهور. وقال الضحاك: مَدَنِيَّة. وهي تسع عشرة آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

يُستحب للقارىء إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ أن يقول عَقِبه:

[٦٣٠٥] سبحانَ ربيَ الأعلى؛ قاله النبيّ ﷺ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين؛ على ما يأتي. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال:

[٦٣٠٦] إن لله تعالى مَلَكاً يقال له حِزْقيائيل، له ثمانية عَشَر ألفَ جَناح، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام، فخطر له خاطر: هل تقدر أن تبصر العرش جميعه؟ فزاده الله أجنحة مثلها، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام. ثم أوحى الله إليه: أيها المَلَك، أَنْ طِرْ، فطار مقدار عشرين ألف سنة؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش. ثم ضاعف الله له في الأجنحة والقوّة، وأمره أن يطير، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى، فلم يصل أيضاً؛ فأوحى الله إليه، أيها المَلَك، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوّتك لم تبلغ ساق عرشي. فقال المَلَك: سبحان ربِّيَ الأعلى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، فقال النبيّ ﷺ: «اجعلوها في سُجودكم». ذكره الثعلبيّ في «كتاب العرائس» له. وقال ابن عباس

[٦٣٠٥] أخرجه البغوي ٤/ ٤٤٤ من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ ﴿سبح بسم ربك الأعلىٰ﴾ فقال: سبحان ربي الأعلىٰ، وفيه مجاهيل وورد من مرسل قتادة أخرجه الطبري ٣٦٩٧٢، وقد ورد عن ابن عباس موقوفاً، وعن علي، وأبي موسىٰ، وابن الزبير، وغيرهم راجع الدر المنثور ٦/ ٥٦٦.

[٣٦٠٦] هذا الخبر مكذوب على علي رضي الله عنه، ذكره الثعلبي في قصصه ص ١٣ تعليقاً، والمرفوع منه فحسب، أخرجه أبو داود ٨٦٩ وابن ماجه ٨٨٧ وأحمد ٤/ ١٥٥ والطيالسي ١٠٠ والحاكم ٢/ ٤٧٧ من حديث عقبة بن عامر، وتقدم في سورة الواقعة، ويأتي لفظه عند المصنف بعد قليل وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

والسُّديّ: معنى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ أي عظم ربك الأعلى. والاسم صِلة، قصِد بها تعظيم المسمَّى؛ كما قال لَبِيد:

إلـى الحـولِ ثـم اسـمُ السـلامِ عليكـما

وقيل: نزه ربك عن السوء، وعما يقول فيه الملحدون. وذكر الطبريّ أن المعنى نزِّه اسم ربك عن أن تسمي به أحداً سواه. وقيل: نزه تسمية ربك وذكرك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكره محترم. وجعلوا الاسم بمعنى التسمية، والأولى أن يكون الاسم هو المسَمّى. روى نافع عن ابن عمر قال: لا تقل على اسم الله؛ فإن اسم الله هو الأعلى. وروى أبو صالح عن ابن عباس: صَلِّ بأمر ربك الأعلى. قال: وهو أن تقول سبحان ربك الأعلى. ورويِ عن عليّ رضي الله عنه، وابنِ عباس وابنِ عمر وابنِ الزبير وأبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم: أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا: سبحان ربِّيَ الأعلى؛ امتثالاً لأمره في ابتدائها. فيُختار الاقتداء بهم في قراءتهم؛ لا أن سبحان ربي الأعلى من القرآن؛ كما قاله بعض أهل الزيغ. وقيل: إنها في قراءة أُبيّ: «سبحان ربي الأعلى». وكان ابن عمر يقرؤها كذلك. وفي الحديث:

[٦٣٠٧] كان رسول الله ﷺ إذا قرأها قال: «سبحان ربِّيَ الأعلى». قال أبو بكر الأنباريّ: حدّثني محمد بن شَهْرِيار، قال: حدّثنا حسين بن الأسود، قال: حدّثنا عبد الرحمن بن أبي حَمَّاد قال: حدّثنا عيسى بن عمر، عن أبيه، قال: قرأ عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام في الصلاة «سَبِّح اسم رَبِّكَ الأعلى»، ثم قال: سبحان رَبّي الأعلى؛ فلما انقضت الصلاة قيل له: يا أمير المؤمنين، أتزيد هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربي الأعلى. قال: لا، إنما أُمِرنا بشيء فقلته، وعن عقبة بن عامر الجُهَنِيّ قال:

[٦٣٠٨] لما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم». وهذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربي الأعلى. وقيل: إن أوّل من قال (سبحان ربي الأعلى) ميكائيل عليه السلام. وقال النبيّ ﷺ لجبريل:

[٦٣٠٩] «يا جبريل أخبرني بثواب من قال: سبحان ربي الأعلى في صلاته أو في غير صلاته». فقال: «يا محمد، ما من مؤمن ولا مؤمنة يقولها في سجوده أو في غير

[٦٣٠٧] تقدم تخريجه برقم: ٦٣٠٥.

[٦٣٠٨] تقدم تخريجه.

[٦٣٠٩] موضوع. لم أعثر عليه، والظاهر أن مصدره تفسير الثعلبي، وأمارة الوضع لائحة عليه.

سجوده، إلا كانت له في ميزانه أثقل من العرش والكرسيّ وجبال الدنيا، ويقول الله تعالى: صدق عبدي، أنا فوق كل شيء، وليس فوقي شيء، اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له، وأدخلته الجنة. فإذا مات زاره مِيكائيل كل يوم، فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه، فأوقفه بين يدي الله تعالى، فيقول: يا رب شَفعني فيه، فيقول قد شفعتك فيه، فاذهب به إلى الجنة». وقال الحسن: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ أي صل لربك الأعلى. وقيل: أي صل بأسماء الله، لا كما يصلي المشركون بالمُكَاءِ والتصدِية. وقيل: ارفع صوتك بذكر ربك. قال جرير:

قَبحَ الإلٰـهُ وُجُـوهَ تغلِـبَ كلَّمـا ... سَبَـحَ الحجِيـجُ وكبَّـروا تكبيـرا

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ قد تقدّم معنى التسوية في «الانفطار» وغيرها. أي سوّى ما خلق، فلم يكن في خلقه تَثْبيج[1]. وقال الزجاج: أي عدّل قامته. وعن ابن عباس: حسَّن ما خلق. وقال الضحاك: خلق آدم فسوّى خلقه. وقيل: خلق في أصلاب الآباء، وسوّى في أرحام الأمّهات. وقيل: خلق الأجساد، فسوّى الأفهام. وقيل: أي خلق الإنسان وهيأه للتكليف. ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ قرأ عليّ رضي الله عنه والسُّلمِيُّ والكِسائيّ «قَدَر» مخففة الدال، وشدّد الباقون. وهما بمعنى واحد. أي قدّر ووفق لكل شكل شكله. ﴿فَهَدَىٰ ۝٣﴾ أي أرشد. قال مجاهد: قدّر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة. وعنه قال: هَدَى الإنسانَ للسعادة والشقاوة، وهَدَى الأنعام لمراعيها. وقيل: قدّر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنساً، ولمراعيهم إن كانوا وَحْشاً. وروي عن ابن عباس والسُّدِّيّ ومقاتل والكلبيّ في قوله «فَهَدَىٰ» قالوا[2]: عَرَّف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى؛ كما قال في (طه): ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠] أي الذكر للأنثى. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. وقيل: «قَدَّرَ فهدَى»: قدّر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به. يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنة عمِيت، وقد ألهمها الله أنّ مسح العين بورق الرازِيانج[3] الغضّ يرد إليها بصرها؛ فربما

(١) التَّثبيج: التخليط.

(٢) لا يصح مثل هذا عن ابن عباس، وهو من بدع التأويل والحمل فيه على الكلبي ومقاتل.

(٣) شجرة يسميها أهل اليمن «السمار».

كانت في بَرّية بينها وبين الريف مسيرة أيام، فتطوي تلك المسافة على طولها وعلى عماها، حتى تهجُم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله تعالى. وهدايات الإنسان إلى ما لا يحدّ من مصالحه، وما لا يحصر من حوائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبواب دنياه ودينه، وإلهامات البهائم والطيور وهوامّ الأرض باب واسع، وشَوْط بطِين[1]، لا يحيط به وصف واصف؛ فسبحان ربي الأعلى. وقال السُّدّيّ: قدّر مدّة الجنين في الرّحِم تسعة أشهر، وأقل وأكثر، ثم هداه للخروج من الرّحِم. وقال الفراء: أي قدّر، فهدى وأضل؛ فاكتفى بذكر أحدهما؛ كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي لتدعو، وقد دعا الكل إلى الإيمان. وقيل: «فهدى» أي دلهم بأفعاله على توحيده، وكونه عالماً قادراً. ولا خلاف أن من شدّد الدال من «قَدَّر» أنه من التقدير؛ كقوله تعالى: ﴿ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٢]. ومن خفف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى. ويحتمل أن يكون من القُدْرة والمُلْك؛ أي ملك الأشياء، وهدى من يشاء.

قلت: وسمعت بعض أشياخي يقول: الذي خلق فسوّى وقدّر فهدى. هو تفسير العلوّ الذي يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ أي النبات والكلأ الأخضر. قال الشاعر[2]:

وقد ينبُتُ المَرْعَى على دِمنِ[3] الثَّرَى وتَبقَى حَزازات النفوسِ كما هِيَا

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ الغُثاء: ما يقذِف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقُماش[4]. وكذلك الغُثَّاء (بالتشديد). والجمع: الأغثاء. قتادة: الغثاء: الشيء اليابس. ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم ويبِس: غُثاءٌ وهَشِيم. وكذلك للذي يكون حول الماء من القُماش غثاء؛ كما قال[5]:

كأنّ طَمِيّةَ المُجَيمِرِ غُدْوةً من السَّيْل والأغثاءَ فَلْكَةُ مِغْزَلِ[6]

---

(١) أي بعيد. أفاده الصحاح.
(٢) هو زفر بن الحارث.
(٣) الدمن: السرقين ـ الزبل ـ والثرىٰ: التراب.
(٤) بضم القاف. ما كان علىٰ وجه الأرض من فتات الأشياء.
(٥) هو امرؤ القيس.
(٦) طمية: جبل. والمجيمر: أرض لبني فزارة. والأغثاء: جمع غثاء.

وحكى أهل اللغة: غثا الوادي وجَفاً[1]. وكذلك الماء: إذا علاه من الزَّبَد والقُماش ما لا ينتفع به. والأَحْوى: الأسود؛ أي أن النبات يضرب إلى الحُوّة من شدّة الخضرة كالأسود. والحوّة: السواد؛ قال الأعشى:

لَمْيَــاء فــي شَفَتيهــا حُــوّةٌ لَعَــسٌ وفي اللِّثاثِ وفي أَنيابها شَنَبُ[2]

وفي الصحاح: والحوّة: سمرة الشفة. يقال: رجل أحوى، وامرأة حوّاء، وقد حَوِيت. وبعير أحوى إذا خالط خضرته سواد وصفرة. وتصغير أحوى أحيوٍ؛ في لغة من قال أسَيْوِد. ثم قيل: يجوز أن يكون «أحوى» حالاً من «المَرعَى»، ويكون المعنى: كأنه من خضرته يضرب إلى السواد؛ والتقدير: أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء. يقال: قد حَوِيَ النبت؛ حكاه الكسائي. وقال:

وغَيـثٍ مـن الـوسْمِيِّ حُـوٍّ تِـلاعُـه تبطَّنتـــــه بشَيظَـــم صَلَتـــانِ[3]

ويجوز أن يكون «أحوى» صفة لـ«غثاء». والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته. وقال أبو عبيدة: فجعله أسودَ من احتراقه وقِدمه؛ والرَّطب إذا يبِس اسودّ. وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضر، ثم لما يبِس أسودَّ من احتراقه، فصار غُثاء تذهب به الرياح والسيول. وهو مَثَل ضربه الله تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها.

قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ أي القرآن يا محمد فنعلمكه ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ أي فتحفظ؛ رواه ابن وهب عن مالك. وهذه بُشْرَى من الله تعالى؛ بشره بأن أعطاه آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أُمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه. وعن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد، قال: كان يتذكر مخافة أن ينسى، فقيل: كَفَيْتُكَه. قال مجاهد والكلبي[4]: كان النبيّ ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من

---

(١) الجُفاء: ما يرمىٰ به الوادي.

(٢) البيت لذي الرمة.

(٣) الوسميّ: مطر أول الربيع. والتلاع: أرض مرتفعة يتردد فيها السيل. الشيظم: الطويل من الناس. الصَّلَتان: النشيط من الخيل.

(٤) ذكره البغوي ٤/٤٤٥ بدون إسناد عن مجاهد والكلبي. وقد وصله الطبراني ١٢٦٤٩ عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس وهذا إسناد ضعيف جداً، جويبر متروك، والضحاك لم يلق ابن عباس، والصواب أن الآية التي نزلت في ذلك إنما هي ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه . . .﴾ والله أعلم.

آخر الآية، حتى يتكلم النبيّ ﷺ بأوّلها، مخافة أن يَنْساها؛ فنزلت: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾. بعد ذلك شيئاً، فقد كَفَيتُكَه. ووجه الاستثناء على هذا، ما قاله الفراء: إلا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئاً؛ كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود: ١٠٧] ولا يشاء. ويقال في الكلام: لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئتُ، وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية على ألاَّ يمنعه شيئاً. فعلى هذا مجارِي الأَيمان؛ يُسْتثَنى فيها ونية الحالف التمام. وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس: فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات، «إلا ما شاء الله». وعن سعيد عن قتادة، قال: كان رسول الله ﷺ لا ينسَى شيئاً؛ «إلا ما شاء الله». وعلى هذه الأقوال قيل: إلا ما شاء الله أن يَنْسَى، ولكنه لم ينسَ شيئاً منه بعد نزول هذه الآية. وقيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك؛ فإذاً قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسياناً كُلّياً. وقد رُوِي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسِب أُبيّ أنها نسِخت، فسأله فقال: «إني نسيتها»[1]. وقيل: هو من النسيان؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسيك. ثم قيل: هذا بمعنى النسخ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه. والاستثناء نوع من النسخ. وقيل: النسيان بمعنى الترك؛ أي يعصِمك من أن تترك العمل به؛ إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه. فهذا في نسخ العمل، والأوّل في نسخ القراءة. قال الفَرْغاني: كان يغشى مجلس الجنيد أهلُ البَسْط من العلوم، وكان يغشاه ابن كَيْسانَ النحويّ، وكان رجلاً جليلاً؛ فقال يوماً: ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾؟ فأجابه مسرعاً ـ كأنه تقدّم له السؤال قبل ذلك بأوقات: لا تَنْسَى العملَ به. فقال ابن كيسان: لا يَفْضُضِ الله فاك! مثلُك من يُصْدَر عن رأيه. وقوله: «فلا»: للنفي لا للنهي. وقيل: للنهي؛ وإنما أثبتت الياء[2] لأن رؤوس الآي على ذلك. والمعنى: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه؛ إلا ما شاء الله أن ينسِيكه برفع تلاوته للمصلحة. والأوّل هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتاً معلوماً. وأيضاً فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليها القراء. وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله. وقيل: المعنى فجعله غثاء أحوى إلا ما شاء الله أن يناله بنو آدم والبهائم، فإنه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ أي الإعلان من القول والعمل. ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾ من السر. وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك. وقال محمد بن حاتم: يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها. وقيل: الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك. «وما يخفى» هو ما نسخ من

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) يريد الألف في «تنسىٰ» وأصلها الياء «نسيَ ينسي».

صدرك. ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾: معطوف على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ اعتراض. ومعنى ﴿لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ أي للطريقة اليسرى؛ وهي عمل الخير. قال ابن عباس: نيسرك لأن تعمل خيراً. ابن مسعود: «لِلْيسرى» أي للجنة. وقيل: نوفقك للشريعة اليسرى؛ وهي الحنيفية السمحة السهلة؛ قال معناه الضحاك. وقيل: أي نهوّن عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فعِظ قومك يا محمد بالقرآن. ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ أي الموعظة. وروى يونس عن الحسن قال: تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر. وكان ابن عباس يقول: تنفع أوليائي، ولا تنفع أعدائي. وقال الجُرجانِيّ: التذكير واجب وإن لم ينفع. والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى؛ أو لم تنفع، فحذف؛ كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]. وقيل: إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم. وقيل: إنّ «إنْ» بمعنى ما؛ أي فذكر ما نفعت الذكرى، فتكون «إنْ» بمعنى ما، لا بمعنى الشرط؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال؛ قاله ابن شَجَرة. وذكر بعض أهل العربية: أنّ «إنْ» بمعنى إذْ؛ أي إذْ نفعت؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي إذ كنتم؛ فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم. وقيل: بمعنى قد.

قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾.

أي من يَتَّقِ الله ويخافه. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت في ابن أم مكتوم[1]. الماوَرْدِيّ: وقد يذكر من يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي؛ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء. وقيل: أي عَمِّمْ أنت التذكير والوعظ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء؛ حكاه القُشيرِيّ.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها. ﴿ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ أي الشقيّ في علم الله. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة. ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ أي العظمى، وهي السفلى من أطباق النار؛ قاله الفرّاء. وعن الحسن: الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا؛ وقاله يحيى بن سلام.

(١) الصواب عموم الآية، وأبو صالح روى عن ابن عباس موضوعات.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي لا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة تنفعه؛ كما قال الشاعر:

ألا مَا لنفسٍ لا تموتُ فينقضِي عَناها ولا تَحيا حياةً لها طَعْمُ

وقد مضى في «النساء» وغيرها حديث أبي سعيد الخُدْريّ[1]، وأن الموحدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم ـ وهي النار الصغرى على قول الفراء ـ احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يُشْفَع فيهم. خرّجه مسلم. وقيل: أهل الشقاء متفاوتون في شقائهم، هذا الوعيد للأشقى، وإن كان ثمَّ شقِيَ لا يبلغ هذه المرتبة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي قد صادف البقاء في الجنة؛ أي من تَطَهَّر من الشرك بإيمان؛ قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة. وقال الحسن والربيع: من كان عمله زاكياً نامِياً. وقال مَعْمر عن قتادة: «تزَكَّى» قال بعملٍ صالح. وعنه عن عطاء وأبي العالية: نزلت في صدقة الفِطر. وعن ابن سِيرينَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾. قال: خرج فصلَّى بعد ما أدّى. وقال عكرمة: كان الرجل يقول أقدّم زكاتي بين يدي صلاتي. فقال سفيان: قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ وابن عمر: أن ذلك في صدقة الفطر، وصلاة العيد. وكذلك قال أبو العالية، وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها، ومن سِقاية الماء. وروى كَثير بن عبد الله عن أبيه عن جدّه:

[٦٣١٠] عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ قال: «أخرج زكاة الفطر»، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ قال: «صلاة العيد». وقال ابن عباس والضحاك: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ في طريق المصلَّى ﴿فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ صلاة العيد. وقيل: المراد بالآية زكاة الأموال كلها؛ قاله أبو الأحوص وعطاء. وروى ابن جُرَيج قال: قلت لعطاء: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ للفطر؟ قال: هي للصدقات كلها. وقيل: هي زكاة الأعمال، لا زكاة الأموال؛

[٦٣١٠] ضعيف جداً، أخرجه البيهقي في «سننه» ٤/ ١٥٩ والبزار كما في المجمع ٧/ ١٣٦ـ١٣٧ من حديث عوف بن مالك ومداره على كثير بن عوف المزني، وهو واهٍ، وكذبه الشافعي، وقد ضعفه السيوطي في الدر ٦/ ٥٦٨. والصواب موقوف.

---

(١) تقدم في سورة النساء.

أي تطهر في أعماله من الرياء والتقصير؛ لأن الأكثر أن يقال في المال: زَكّى، لا تَزَكَّى. وروى جابر بن عبد الله قال:

[٦٣١١] قال النبي ﷺ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ أي من شهد أَنْ لا إلٰه إلاّ الله، وخَلع الأندادَ، وشهد أني رسولُ الله». وعن ابن عباس ﴿تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ قال: لا إلٰه إلا الله. وروى عنه عطاء قال[1]: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه. قال: كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة، مائلة في دار رجل من الأنصار، إذا هبت الرياح أسقطت البُسْرَ والرطبَ إلى دار الأنصاريّ، فيأكل هو وعياله، فخاصمه المنافق؛ فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه، فقال: «إن أخاك الأنصاريّ ذكر أن بُسْرك ورُطَبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعياله، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها؟» فقال: أبيع عاجلاً بآجل! لا أفعل. فذكروا أن عثمان بن عفان أعطاه حائطاً من نخل بدل نخلته؛ ففيه نزلت «قد أفلح من تزكى». ونزلت في المنافق ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١﴾. وذكر الضحاك[2] أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

الثانية: قد ذكرنا القول في زكاة الفِطر في سورة «البقرة» مستوفى. وقد تقدّم أن هذه السورة مكية؛ في قول الجمهور، ولم يكن بمكة عِيد ولا زكاة فطر. القشيرِي: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره في صدقة الفِطر وصلاة العيد، فيما يأمر به في المستقبل.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ أي ذكر ربه. وروى عطاء عن ابن عباس قال: يريد ذكر معاده وموقفه بين يدي الله جل ثناؤه، فعبده وصلّىٰ له. وقيل: ذكر اسم ربه بالتكبير في أوّل الصلاة، لأنها لا تنعقد إلا بذكره؛ وهو قوله: الله أكبر: وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها. وفيه حجة لمن قال: إن الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله عز وجلّ. وهذه مسألة خلافية بين الفقهاء. وقد مضى القول في هذا في أوّل سورة «البقرة». وقيل: هي تكبيرات العيد. قال الضحاك: «وذكر اسم ربهِ» في طريق المصلَّى «فصلّى»؛ أي صلاة

[٦٣١١] ضعيف جداً. أخرجه البزار ٢٢٨٤ من حديث جابر، وقال: لا نعلمه عن جابر إلا بهذا الإسناد. قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٣٧: فيه شيخه عباد بن أحمد العرزمي، وهو متروك.

---

(١) لم يذكره الواحدي ولا السيوطي في أسباب النزول ولا في الدر، ولا ذكره ابن كثير أو البغوي أو غيرهما، فهذا دليل علىٰ عدم صحته والله أعلم. والآية عامة.

(٢) لم يذكر أحد أنه سبب نزول، وراوي الضحاك جويبر، وهو متروك. والآية عامة.

العيد. وقيل: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته، فيخاف عقابه، ويرجو ثوابه؛ ليكون استيفاؤه لها، وخشوعه فيها، بحسب خوفه ورجائه. وقيل: هو أن يفتتح أوّل كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم. «فصلّى» أي فصلّى وذكر. ولا فرق بين أن تقول: أكرمتني فزرتني، وبين أن تقول: زرتني فأكرمتني. قال ابن عباس: هذا في الصلاة المفروضة، وهي الصلوات الخمس. وقيل: الدعاء؛ أي دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة. وقيل: صلاة العيد؛ قاله أبو سعيد الخُدرِيّ وابن عمر وغيرهما. وقد تقدّم. وقيل: هو أن يتطوّع بصلاةٍ بعد زكاته؛ قاله أبو الأحوص، وهو مقتضى قول عطاء. ورُوِيَ عن عبد الله قال: من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾.

قراءة العامة «بل تؤثِرون» بالتاء؛ تصديقه قراءة أبيّ «بل أنتم تؤثرون». وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم «بل يؤثِرون» بالياء على الغيبة؛ تقديره: بل يؤثِرُون الأَشْقون الحياة الدنيا. وعلى الأوّل فيكون تأويلها بل تؤثرون أيُّها المسلمون الاستكثار من الدنيا، للاستكثار من الثواب. وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية، فقال: أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ لأن الدنيا حَضَرتْ وعجِلَت لنا طيباتها، وطعامها وشرابها، ولذاتها وبهجتها، والآخرة غُيبت عنا، فأخذنا العاجل، وتركنا الآجل. وروى ثابت عن أنس قال: كُنَّا مع أبي موسى في مسِير، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا. قال أبو موسى: يا أنس، إن هؤلاء يكاد أحدهم يَفْرِي الأديم بلسانه فرياً، فتعال فلنذكر ربنا ساعة. ثم قال: يا أنس، ما ثَبَر[1] الناس! ما بَطَّأ بهم؟ قلت: الدُّنيا والشيطان والشهوات. قال: لا، ولكن عُجِّلتِ الدنيا، وغُيبت الآخرة، أما والله لو عاينوها ما عَدَلوا ولا مَيَّلوا[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾.

أي والدار الآخرة؛ أي الجنة. ﴿خَيْرٌ﴾ أي أفضل. ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ أي أدوم من الدنيا. وقال النبيّ ﷺ:

[٦٣١٢] «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليمّ، فلينظر بِمَ يرجع» صحيح. وقد تقدّم. وقال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يُؤْثَر خزف يبقى، على ذهب يفنى. قال: فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى.

[٦٣١٢] مضىٰ تخريجه.

---

(١) الثَّبر: الحبس.
(٢) أي ما شكوا ولا ترددوا.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) ﴾ قال قتادة وابن زيد: يريد قوله: ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) ﴾ . وقالا: تتابعت كتب الله جل ثناؤه ـ كما تسمعون ـ أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا. وقال الحسن: «إنَّ هذا لفي الصحف الأُولى» قال: كُتُب الله جل ثناؤه كلها. الكلبيّ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) ﴾ من قوله: «قد أفلح» إلى آخر السورة؛ لحديث أبي ذرّ على ما يأتي. وروى عِكرمة عن ابن عباس: «إنَّ هذا لفي الصحف الأولى» قال: هذه السورة. وقال والضحاك: إن هذا القرآن لفي الصحف الأولى؛ أي الكتب الأولى. ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ يعني الكتب المنزلة عليهما. ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف، وإنما هو على المعنى؛ أي إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. وروى الآجُرّي من حديث أبي ذرّ قال:

[٦٣١٣] قلت يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلُّها: أيها الملك المتسلِّط المُبتلَى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر. وكان فيها أمثال: وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيهَا نفسه، يفكر فيها في صنع الله عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا في ثلاث: تزوّد لمعاد، ومَرَمَّة[1] لمعاش، ولذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شانه، حافظاً للسانه. ومن عدّ كلامه من عمله قلَّ كلامُه إلاَّ فيما يعينه». قال: قلت يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عِبراً كلُّها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح! وعجبت لمن أيقن بالقَدَر كيف ينْصَب. وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل»! قال: قلت يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: «نعم اقرأ يا أبا ذرّ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ . وذكر الحديث.

[٦٢١٣] ضعيف جداً. أخرجه ابن حبان ٣٦١ وأبو نعيم في «الحلية» ١/١٦٦ ـ ١٦٧ ـ ١٦٨ وابن عدي ٧/٢٦٩٩ والبيهقي في «السنن» ٩/٤ من أبي ذر، وفي إسناده إبراهيم بن هشام الغساني كذبه أبو حاتم وأبو زرعة، وتابعه يحيىٰ بن سعيد القرشي، وهو متروك، وقد اتهمه ابن حبان.

---

(١) المرمة: متاع البيت.

سورة الغاشية

وهي مكية في قول الجميع، وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾.

«هل» بمعنى قد؛ كقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ [الإنسان: ١]؛ قاله قُطْرب. أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية؛ أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها؛ قاله أكثر المفسرين. وقال سعيد بن جُبير ومحمد بن كعب: «الغاشية»: النار تَغْشَى وجوه الكفار؛ ورواه أبو صالح عن ابن عباس؛ ودليله قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: ٥٠]. وقيل: تَغشَى الخلق. وقيل: المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تَغشَى الخلائق. وقيل: «الغاشية» أهلُ النار يَغْشَونها، ويقتحمون فيها. وقيل: معنى «هل أتاك» أي هذا لم يكن من علمك، ولا من علم قومك. قال ابن عباس: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور هاهنا. وقيل: إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك؛ وهو معنى قول الكلبيّ.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾.

قال ابن عباس: لم يكن أتاه حديثهم، فأخبره عنهم، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة. ﴿خَـٰشِعَةٌ ۝٢﴾ قال سفيان: أي ذليلة بالعذاب. وكل متضائلٍ ساكن خاشع. يقال: خَشَع في صلاته: إذا تذلل ونكّس رأسه. وخَشَع الصوتُ: خفِي؛ قال الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]. والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه. وقال قتاد وابن زيْد: «خاشعة» أي في النار. والمراد وجوه الكفار كلهم؛ قاله يحيىٰ بن سلام. وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى؛ قاله ابن عباس. ثم قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ فهذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل. فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة في الدنيا «خاشعة» في الآخرة. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل يعملُ عملاً. ويقال

للسحاب إذا دام برقه: قد عَمل يعمل عملاً. وذا سحاب عَمِل. قال الهذليّ[1]:

حتى شآها كليلٌ مَوْهِناً عمِلٌ   باتت طِرابا وباتَ الليلَ لم يَنَمِ[2]

﴿نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ أي تعِبة. يقال: نَصِب (بالكسر) ينصَب نَصَباً: إذا تعب، ونَصْباً أيضاً، وأنصبه غيره. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل، وعلى الكفر؛ مثل عَبَدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصاً له. وقال سعيد عن قتادة: «عاملة ناصبة» قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل، فأعملَها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حُفاة عراة في العَرَصات، في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة. قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم. وقال الكلبيّ: يُجَرّون على وجوههم في النار. وعنه وعن غيره: يُكَلَّفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فَينصَبون فيها أشدّ ما يكون من النَّصَب، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار؛ كما تخوض الإبل في الوَحَل، وارتقائها في صَعُود من نار، وهبوطها في حَدُور منها؛ إلى غير ذلك من عذابها. وقاله ابن عباس. وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد، ورواها عبيد عن شبل عن ابن كثير «ناصبةً» بالنصب على الحال. وقيل: على الذمّ. الباقون (بالرفع) على الصفة أو على إضمار مبتدأ، فيوقف على «خاشعة». ومن جعل المعنى في الآخرة، جاز أن يكون خبراً بعد خبر عن «وجوه»، فلا يوقف على «خاشعة». وقيل: «عاملة ناصبة» أي عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة. وعلى هذا يحتمل وجوه يومئذٍ عاملة في الدنيا، ناصبة في الآخرة، خاشعة. قال عكرمة والسدّيّ: عملت في الدنيا بالمعاصي. وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: هم الرُّهبان أصحاب الصوامع؛ وقاله ابن عباس. وقد تقدّم في رواية الضحاك عنه. وروي عن الحسن قال: لما قدم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الشام أتاه راهب شيخ كبير مُتَقَهِّل[3]، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى. فقال له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، ـ وقرأ قول الله عز وجل ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾. قال الكسائيّ: التقهل: رثاثة الهيئة، ورجل مُتَقَهِّل: يابس الجلد سَيِّءُ الحال، مثل المتقحل. وقال أبو عمرو: التقهل: شكوى الحاجة. وأنشد:

(١) هو ساعدة بن جؤية.
(٢) شآها: ساقها. الكليل: البرق الضعيف. الموهن: القطعة من الليل.
(٣) أي شعث وسخ.

لَـعْـواً[1] إذا لاقيتـه تقـهْـلاَ

والقَهْل: كفران الإحسان. وقد قَهَلَ يَقْهَلُ قَهْلاً: إذا أثنى ثناء قبيحاً. وأقهل الرجل تكلف ما يعيبه ودنس نفسه. وانقهل ضعف وسقط؛ قاله الجوهري. وعن عليّ رضي الله عنه أنهم أهل حَرُورَاءَ. يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال:

[٦٣١٤] «تَحقِرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يَمرُقون من الدين كما يَمرُق السهمُ من الرَّمِيَّة...» الحديث.

قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾.

أي يصيبها صِلاؤها وحرّها. ﴿حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ شديدة الحرّ؛ أي قد أُوقدت وأُحْميت المدة الطويلة. ومنه حَمِي النار (بالكسر)، وحمِي التنور حَمْياً فيهما؛ أي اشتدّ حرّه. وحكى الكِسائيّ: اشتدّ حَمْيُ الشمس وحَمْوها: بمعنى. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب «تُصْلَى» بضم التاء. الباقون بفتحها. وقرىء «تُصَلَّى» بالتشديد. وقد تقدم القول فيها في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الإنشقاق: ١]. الماورديّ: فإن قيل فما معنىٰ وصفها بالحماء[2]، وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالها، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟ قيل: قد اختلف في المراد بالحامية هاهنا على أربعة أوجه: أحدها: أن المراد بذلك أنها دائمة الحَمْى، ليست كنار الدنيا التي ينقطع حَمْيها بانطفائها. الثاني: أن المراد بالحامية أنها حِمًى من ارتكاب المحظورات، وانتهاك المحارم؛ كما قال النبيّ ﷺ:

[٦٣١٥] «إن لكل ملِك حِمًى، وإن حِمى الله محارمه. ومن يرتع حول الحِمَى يُوشِك أن يقع فيه». الثالث: أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها، أو ترام مُماسَّتها؛ كما يحمِي الأسد عَرِينه؛ ومثله قول النابغة:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ... وتتقِي صَولَةَ المستأسِدِ الحامِي

الرابع: أنها حامية حِمَى غيظ وغضب؛ مبالغة في شدّة الانتقام. ولم يرد حِمَى جِرْم

[٦٣١٤] صحيح. أخرجه البخاري ٦٩٣٠ ومسلم ١٠٦٦ ح ١٥٦ من حديث علي في أثناء خبر مطول، والسياق لمسلم. ومن حديث أبي سعيد أخرجه البخاري ٦٩٣١ ومسلم ١٠٦٤.

[٦٣١٥] تقدم تخريجه وصدره «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن...» رواه البخاري ومسلم.

---

(١) اللعو: السيّىء الخلق.

(٢) في الأصل «بالحَمْىٰ» والمثبت عن تفسير الماوردي ٦/ ٢٥٨.

ودات؛ كما يقال: قد حمي فلان: إذا اغتاظ وغضب عند إرادة الانتقام. وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

قوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾.

الآني: الذي قد انتهى حَرّه؛ من الإيناء، بمعنى التأخير. ومنه:

[٦٣١٦] «آنيتَ وآذيت»[١]. وآناه يؤنيه إيناء، أي أَخَّرَهُ[٢] وحبسه وأبطأه. ومنه ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ۝٤٤﴾ [الرحمن: ٤٤]. وفي التفاسير ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾ أي تناهَى حرها؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت. وقال الحسن: «آنيةٍ» أي حرها أدرك؛ أوقِدت عليها جهنم منذ خلقت، فدُفِعوا إليها وِرداً عِطاشا. وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: بلغت أناها، وحان شربها.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أي لأهل النار. ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦﴾ لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم. قال عكرمة ومجاهد: الضَّرِيع: نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشِّبْرِق إذا كان رطباً، فإذا يبِس فهو الضريع، لا تَقْرَبُه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه؛ وهو سُمٌّ قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه؛ على هذا عامّة المفسرين. إلا أن الضحاك روى عن ابن عباس قال: هو شيء يَرْمِي به البحر، يسمَّى الضَّريعَ، من أقوات الأنعام لا الناس، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلكت هُزْلاً. والصحيح ما قاله الجمهور: أنه نبت. قال أبو ذُؤَيب:

رَعَى الشِّبرِقَ الريّانَ حتى إذا ذَوَى ... وعاد ضَريعاً بانَ منه النَّحائصُ[٣]

وقال الهُذليّ[٤] وذكر إبلاً وسوء مرعاها:

[٦٣١٦] صحيح. أخرجه أبو داود ١١١٨ والنسائي ٣/١٠٣ وأحمد ٤/١٩٠ وصححه ابن خزيمة ١٨١١ وابن حبان ٢٧٩٠ والحاكم ١/٢٨٨ كلهم من حديث عبد الله بن بسر، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وهو كما قالا وفي الباب من حديث جابر أخرجه ابن ماجة ١١١٥ وإسناده لا بأس به في الشواهد. وسبب الحديث: جاء رجل يتخطىٔ رقاب الناس، ورسول الله ﷺ يخطب الناس فقال له: «اجلس، فقد آذيت، وآنيت».

---

(١) آنية: متناهية في شدة الحر.

(٢) في الأصل «أحره» وهو تصحيف.

(٣) هي الأتان الوحشية الحائل.

(٤) هو قيس بن عيزارة.

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضرِيع فكلُّها حَدْبـاءُ دامِيـةُ اليـديـن حَـرُودُ(١)

وقال الخليل: الضريع: نبات أخضر مُنتن الريح، يرمي به البحر. وقال الوالبيّ عن ابن عباس: هو شجر من نار، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها. وقال سعيد بن جُبير: هو الحجارة، وقاله عكرمة. والأظهر أنه شجر ذو شوك حَسْب ما هو في الدنيا. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال:

[٦٣١٧] «الضريع: شيء يكون في النار، يشبه الشوك، أشدّ مرارة من الصبرِ، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سماه الله ضريعاً». وقال خالد بن زياد: سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ قال: بلغني أن الضريع شجرة من نار جهنم، حَمْلها القيح والدم، أشدّ مرارة من الصَّبرِ، فذلك طعامهم. وقال الحسن: هو بعض ما أخفاه الله من العذاب. وقال ابن كيسان: هو طعام يَضْرعون عنده ويذِلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى، طلباً للخلاص منه؛ فسمي بذلك، لأن آكله يضرع في أن يُعْفَى منه، لكراهته وخشونته. قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارع، وهو الذليل؛ أي ذو ضراعة، أي من شرِبه ذليل تلحقه ضراعة. وعن الحسن أيضاً: هو الزُّقوم. وقيل: هو وادٍ في جهنم. فالله أعلم. وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ [الحاقة: ٣٥ ـ ٣٦]. وقال هنا: «إلا مِن ضرِيع» وهو غير الغِسلِين. ووجه الجمع أن النار دَرَكات؛ فمنهم مَنْ طعامه الزُّقوم، ومنهم من طعامه الغِسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصّديد. قال الكلبيّ: الضريع في درجة ليس فيها غيره، والزقوم في درجة أخرى. ويجوز أن تُحْمل الآيتان على حالتين كما قال: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾ [الرحمن: ٤٤]. القُتَبيّ: ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نَبتين من النار، أو من جوهر لا تأكله النار. وكذلك سلاسل النار وأغلالُها وعقاربها وحَياتها، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار. قال: وإنما دلنا الله على الغائب عنده، بالحاضر عندنا؛ فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة. وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها. القُشَيريّ: وأمثل من قول القُتَبيّ أن نقول: إن الذي يُبقي الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب، يُبقي النبات وشجرة الزقوم في النار، ليعذب بها الكفار. وزعم

[٦٣١٧] باطل. أخرجه الواحدي في «الوسيط» ٤/ ٤٧٤ من حديث ابن عباس، وإسناده ساقط، فيه نهشل بن سعيد، وهو متروك متهم، والضحاك لم يلق ابن عباس.

---

(١) هَزْمُ الضريع: ما تكسر منه. الحرود: الناقة لا تدرّ.

بعضهم أن الضريع بعينه لا يَنْبتُ في النار، ولا أنهم يأكلونه. فالضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس. وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع، وهلكت هزلاً، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم، وضرب الضريع له مثلاً، أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع. قال الترمذي الحكيم: وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنيء، كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريع قادر على أن ينبته في حريق النار، جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر ناراً، فلا النار تُحْرِق الشجر، ولا رطوبة الماء في الشجر تُطْفِىء النار؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠] . وكما قيل حين نزلت:

[٦٣١٨] ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]: قالوا يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يُمْشِيهم على وجوههم». فلا يتحير في مثل هذا إلا ضعيف القلب. أو ليس قد أخبرَنا أنه ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ [المزمل: ١٢] أي قُيوداً. ﴿وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٢ ـ ١٣] قيل: ذا شوك. فإنما يتَلوّن عليهم العذاب بهذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾.

يعني الضريع لا يسمن آكله. وكيف يَسْمن من يأكل الشوك! قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضَّريع، فنزلت: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾. وكَذَبوا، فإن الإبل إنما ترعاه رَطْباً، فإذا يبس لم تأكلْه. وقيل: اشتبه عليهم أمرهم فظنوه كغيره من النبت النافع، لأن المضارعة المشابهة. فوجدوه لا يسمن ولا يغني من جوع.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي ذات نَعْمة. وهي وجوه المؤمنين؛ نَعِمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح. ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا. ﴿رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ في الآخرة حين أُعطيت الجنة بعملها. ومجازه: لثواب سعيها راضية. وفيها واو مضمرة. المعنى: ووجوه يومئذٍ، للفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة. والوجوه عبارة عن الأنفس. ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ أي مرتفعة، لأنها فوق السموات حَسْب ما تقدم.

[٦٣١٨] تقدم تخريجه والمرفوع منه متفق عليه.

وقيل: عالية القدر، لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين. وهم فيها خالدون.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾.

أي كلاماً ساقطاً غير مَرْضيّ. وقال: ﴿لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾، واللَّغْو واللَّغَا واللاَّغية: بمعنى واحد. قال[1]:

عـنِ اللَّـغَـا ورَفَـثِ التَّـكـلـمِ

وقال الفرّاء والأخفش: أي لا تَسمع فيها كلمة لغو. وفي المراد بها ستة أوجه: أحدها: يعني كذباً وبُهتاناً وكفراً بالله عز وجل؛ قاله ابن عباس. الثاني: لا باطل ولا إثم؛ قاله قتادة. الثالث: أنه الشتم؛ قاله مجاهد. الرابع: المعصية؛ قاله الحسن. الخامس: لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب؛ قاله الفرّاء. وقال الكلبيّ: لا يُسمع في الجنة حالف بيمين برّة ولا فاجرة. السادس: لا يسمع في كلامهم كلمة بلغو؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم؛ قاله الفرّاء أيضاً. وهو أحسنها لأنه يعمّ ما ذُكر. وقرأ أبو عمرو وابن كثير «لا يُسْمَع» بياء غير مسمّى الفاعل. وكذلك نافع، إلا أنه بالتاء المضمومة؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه. ومن قرأ بالياء فلأنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور. وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة ﴿لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ نصاً على إسناد ذلك للوجوه، أي لا تسمع الوجوه فيها لاغية.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي بماء مندفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أُخدود. وقد تقدم في سورة «الإنسان» أن فيها عيوناً. فـ«عين»: بمعنىٰ عيون. والله أعلم. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾: أي عالية. ورُوي أنه كان ارتفاعها قدر ما بين السماء والأرض، ليرىٰ ولي الله ملكه حوله. ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ أي أباريق وأوانٍ. والإبريق: هو ما له عُروة وخُرطوم. والكوب: إناء ليس له عروة ولا خرطوم. وقد تقدم هذا في سورة «الزخرف» وغيرها. ﴿وَنَمَارِقُ﴾ أي وسائد، الواحدة نُمْرُقة. ﴿مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ أي واحدة إلى جنب الأخرىٰ. قال الشاعر:

وإنا لنُجْرِي الكاس بين شُروبنا ... وبيـنَ أبـي قـابـوسَ فَـوقَ النَّمـارقِ

وقال آخر:

---

(١) قائلهُ رؤبة.

كُهـولٌ وشبـانٌ حِسـانٌ وجـوهُهُـمْ   علـى سُـرُرٍ مَصفـوفـة ونمـارقِ

وفي الصحاح: النُّمرق والنُّمرقة: وسادة صغيرة. وكذلك النِّمرِقة (بالكسر) لغة حكاه يعقوب. وربما سموا الطِّنْفِسة التي فوق الرحْل نُمرقة؛ عن أبي عُبيد. ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾: قال أبو عُبيدة: الزرابيّ: البُسُط. وقال ابن عباس: الزَّرابيّ: الطَّنافس التي لها خَمْل رقيق، واحدتها: زُرْبِيّة؛ وقاله[1] الكلبيّ والفرّاء. والمبثوثة: المبسوطة؛ قاله[1] قتادة. وقيل: بعضها فوق بعض؛ قاله عكرمة. وقيل: كثيرة؛ قاله الفراء. وقيل: متفرِّقة في المجالس؛ قاله القُتَبيّ.

قلت: هذا أصوب، فهي كثيرة متفرقة. ومنه ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقال أبو بكر الأنباريّ: وحدّثنا أحمد بن الحسين، قال حدّثنا حسين بن عرفة، قال حدّثنا عمار بن محمد، قال: صليت خلف منصور بن المعتمر، فقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾، وقرأ فيها: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾: متكئين فيها ناعمين.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

قال المفسرون: لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين، تعجّب الكفار من ذلك فكذّبوا وأنكروا؛ فذكَّرهُمُ الله صنعته وقدرته؛ وأنه قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض. ثم ذكر الإبل أولاً، لأنها كثيرة في العرب، ولم يَرَوُا الفِيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خَلْقه؛ قد ذلله للصغير، يقوده ويُنيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحِمل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره. فأراهم عظيماً من خَلقه، مسخراً لصغير من خلقه؛ يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته. وعن بعض الحكماء: أنه حدّث عن البعير وبديع خَلْقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها؛ ففكر ثم قال: يوشِك أن تكون طوال الأعناق. وحين أراد بها أن تكون سفائن البر، صبَّرها على احتمال العطش؛ حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العَشْر فصاعداً، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراريّ والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم. وقيل: لمّا ذكر السُّرُر المرفوعة قالوا: كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية، وبين أن الإبل تَبْرُك حتى يحمل عليها ثم تقوم؛ فكذلك تلك السُّرُر تتطامن ثم ترتفع. قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما. وقيل: الإبل هنا القِطع العظيمة من السحاب؛ قاله المبرِّد. قال الثعلبيّ: وقيل في الإبل هنا: السحاب، ولم أجد لذلك أصلاً في كتب الأئمة.

قلت: قد ذكر الأصمعيّ أبو سعيد عبدُ الملك بن قُرَيب، قال أبو عمرو: من قرأها

(١) في الأصل «قال» والمثبت هو الصواب.

«أفلا ينظُرون إلى الإبل كيف خُلِقت» بالتخفيف: عنى به البعير، لأنه من ذوات الأربع، يَبرُكُ فتحمل عليه الحَمولة، وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم. ومن قرأها بالتثقيل فقال: «الإبّل»[1]، عنى بها السحاب التي تحمل الماء والمطر. وقال الماورديّ: وفي الإبل وجهان: أحدهما: وهو أظهرهما وأشهرهما: أنها الإبل من النَّعَم. الثاني: أنها السحاب. فإن كان المراد بها السحاب، فلِما فيها من الآيات الدالة على قدرته، والمنافع العامة لجميع خلقه. وإن كان المراد بها الإبل من النَّعَم، فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان؛ لأن ضروبه أربعة: حَلُوبة، ورَكُوبة، وأَكُولة، وحَمُولة. والإبل تجمع هذه الخِلال الأربع؛ فكانت النعمة بها أعم، وظهور القدرة فيها أتم. وقال الحسن: إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النَّوَى والقَتّ، وتخرج اللبن. وسئل الحسن أيضاً عنها وقالوا: الفيل أعظم في الأعجوبة: فقال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير لا يُؤكل لحمه، ولا يُركب ظهره، ولا يحلب درّه. وكان شُرَيْح يقول: اخرجوا بنا إلى الكُناسة[2] حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلِقت. والإبل: لا واحد لها من لفظها، وهي مؤنثة؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها، إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم، وإذا صغرتها دخلتها الهاء، فقلت: أُبيلة وغنيمة، ونحو ذلك. وربما قالوا للإبل: إبْل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع: آبال.

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ ﴾ أي رُفعت عن الأرض بلا عَمَد. وقيل: رفعت، فلا ينالها شيء. ﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ ﴾ أي كيف نُصبت على الأرض، بحيث لا تزول؛ وذلك أن الأرض لما دُحِيت مادت، فأرساها بالجبال. كما قال: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ ﴾ [الأنبياء: ٣١]. ﴿ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي بُسطت ومدّت. وقال أنس: صليت خلف عليّ رضي الله عنه، فقرأ «كَيفَ خَلَقْتُ» و«رَفَعْتُ» و«نَصَبْتُ» و«سَطَحْتُ»، بضم التاءات؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى. وبه كان يقرأ محمد بن السَّميْفع وأبو العالية؛ والمفعول محذوف، والمعنى خلقتها. وكذلك سائرها. وقرأ الحسن وأبو حَيْوة وأبو رجاء: «سُطِّحَتْ» بتشديد الطاء وإسكان التاء. وكذلك قرأ الجماعة، إلا أنهم خففوا الطاء. وقدّم الإبل في الذكر، ولو قدّم غيرها لجاز.

(١) وقع في الأصل « الإبل» بالتخفيف، وهو تحريف من النساخ، وقد نص المصنف على التثقيل فيه.
(٢) سوق بالكوفة ترد إليها الإبل بأحمال البضائع.

قال القشيريّ: وليس هذا مما يطلب فيه نوع حكمة. وقد قيل: هو أقرب إلى الناس في حق العرب، لكثرتها عندهم، وهم من أعرف الناس بها. وأيضاً: مَرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر؛ فهي مأكولة، ولبنها مشروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسافات البعيدة عليها، والصبر على العطش، وقلة العَلَف، وكثرة الحَمْل، وهي مُعْظم أموال العرب. وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس، ومَنْ هذا حاله تفكر فيما يحضره، فقد ينظر في مركوبه، ثم يمد بصره إلى السماء، ثم إلى الأرض. فأُمِروا بالنظر في هذه الأشياء، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر.

قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي فعِظهم يا محمد وخوّفهم. ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ أي واعظ. ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي بمسَلَّط عليهم فتقتلَهم. ثم نسختها آية السيف. وقرأ هارون الأعور «بِمُسَيْطَرٍ» (بفتح الطاء)، و«المسيطرون». وهي لغة تميم. وفي الصحاح: «المسيطِر والمصيطِر: المسلّط على الشيء، ليشرِف عليه، ويتعهد أحواله، ويكتب عمله، وأصله من السطر، لأن من معنى السطر ألا يتجاوز، فالكتاب مسطر، والذي يفعله مسطر ومسيطِر؛ يقال: سيطرت علينا، وقال تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيطر﴾. وسَطَرَه أي صَرَعَه». ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ استثناء منقطع، أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير. ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ وهي جهنم الدائم عذابها. وإنما قال «الأكبر» لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقَحْط والأسر والقتل. ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود: «إلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَر. فإنه يعذبه الله». وقيل: هو استثناء متصل. والمعنى: لست بمسلّط إلا على من تولى وكفر، فأنت مُسَلَّط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير. ورُوِي أن علياً أتِي برجل ارتد، فاستتابه ثلاثة أيام، فلم يعاود الإسلام، فضرب عنقه، وقرأ ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾. وقرأ ابن عباس وقتادة «أَلاَ» على الاستفتاح والتنبيه، كقول امرىء القيس:

أَلاَ رُبَّ يـومٍ لَـكَ مِـنْـهُـنَّ صَـالِـحٍ

و«مَنْ» على هذا: للشرط. والجواب ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ﴾ والمبتدأ بعد الفاء مضمر، والتقدير: فهو يعذبه الله، لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذي بعد الفاء لكان: إلا من تولى وكفر يعذبه الله. ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي رُجوعهم بعد الموت. يقال: آب يؤوب؛ أي رجع. قال عَبيد:

وكُـــــلّ ذي غَيْبَـــــةٍ يَـــــؤُوبُ وغـــائـــب المـــوتِ لا يَـــؤُوبُ

وقرأ أبو جعفر «إِيَّابَهُمْ» بالتشديد. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام. وقيل: هما لغتان بمعنى. الزمخشري: وقرأ أبو جعفر المدنيّ «إيابهم» بالتشديد؛ ووجهه أن يكون فِيْعالا: مصدر أيب، فيل من الإياب. أو أن يكون أصله إوّاباً فِعّالاً من أوّب، ثم قيل: إيواباً كدِيوان في دِوّان. ثم فعل ما فعل بأصل سيد ونحوه.

سورة الفجر

مكية، وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ أقسم بالفجر. ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ أقسام خمسة. واختُلِف في «الفجر»، فقال قوم: الفجر هنا: انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم؛ قاله عليّ وابن الزُّبير وابن عباس رضي الله عنهم. وعن ابن عباس أيضاً أنه النهار كله، وعَبَّر عنه بالفجر لأنه أوّله. وقال ابن مُحَيْصِن عن عطية عن ابن عباس: يعني فجر يوم المحرم. ومثله قال قتادة. قال: هو فجر أوّل يوم من المحرم، منه تنفجر السنة. وعنه أيضاً: صلاة الصبح. وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: «والفجر»: يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله، إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده؛ لأن يوم عرفة له ليلتان: ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر، فجر يوم النحر. وهذا قول مجاهد. وقال عكرمة: «والفجر» قال: انشقاق الفجر من يوم جَمْع[1]. وعن محمد بن كعب القُرَظيّ: «والفجرِ» آخر آيام العشر، إذا دفَعْتَ من جَمْع. وقال الضحاك: فجر ذي الحجة، لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ أي ليال عشر من ذي الحجة. وكذا قال مجاهد والسدّيّ والكلبيّ في قوله: «وليالٍ عشرٍ» هو عشر ذي الحِجة، وقاله[2] ابن عباس. وقال مسروق: هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسىٰ

(١) أي مزدلفة.

(٢) في الأصل «وقال» والمثبت هو الصواب.

عليه السلام ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وهي أفضل أيام السنة. وروى أبو الزبير عن جابر:

[٦٣١٩] أن رسول الله ﷺ قال: «﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ - قال: عشر الأضحى» فهي ليال عشر على هذا القول؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه، إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفاً لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة. وإنما نكرت ولم تعرّف لفضيلتها على غيرها، فلو عُرِّفت لم تستقبل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير، فنكرت من بين ما أقسم به، للفضيلة التي ليست لغيرها. والله أعلم. وعن ابن عباس أيضاً: هي العشر الأواخر من رمضان؛ وقاله الضحاك. وقال ابن عباس أيضاً ويمان والطبريّ: هي العشر الأَوَّل من المحرّم، التي عاشِرها يوم عاشوراء. وعن ابن عباس «وَلَيَالِ عَشْرٍ» (بالإضافة) يريد: وليالي أيام عشر.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾.

الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد. واختلف في ذلك؛ فرُوِي مرفوعاً عن عِمران بن الحصين عن النبي ﷺ أنه قال:

[٦٣٢٠] «الشفع والوتر: الصلاة، منها شَفْع، ومنها وَتْر». وقال جابر بن عبد الله:

[٦٣٢١] قال النبي ﷺ: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ ـ قال: «هو الصبح، وعشر النحر، والوتر يوم عرفة، والشفع: يوم النحر». وهو قول ابن عباس وعكرمة. واختاره النحاس،

[٦٣١٩] أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» ١١٦٧٢ والبزار ٢٢٨٦ والطبري ٣٧٠٧٣ من حديث جابر ومداره علىٰ عياش بن عقبة، وهو صدوق كما في التقريب، وباقي رجاله رجال مسلم، إلا أن أبا الزبير مدلس، وقد عنعن. واستغربه ابن كثير حيث قال ٤/ ٥٤٠: وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة، والله أعلم ا هـ. قلت: علته عنعنةُ أبي الزبير، والراجح وقفه.

[٦٣٢٠] الراجح وقفه. أخرجه الترمذي ٣٣٤٢ وأحمد ٢/ ١٧٠ والطبري ٣٧٠٩٨ و ٣٧٠٩٩ من طرق عن قتادة عن عمران بن عصام عن شيخ من أهل البصرة عن عمران بن حصين مرفوعاً به. وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٢ والطبري ٣٧٠٩٧ عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين مرفوعاً، وذلك بإسقاط ذلك الشيخ البصري، وصححه الحاكم، وسكت الذهبي. وأخرجه عبد الرزاق ٣٥٩٧ والطبري ٣٧٠٩٤ و ٣٧٠٩٥ كلاهما بإسناد صحيح علىٰ شرطهما عن عمران بن حصين موقوفاً، وهو أصح، وكذا قال ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥٤١: وعندي أن وقفه علىٰ عمران أشبه، والله أعلم ا هـ. وبهذا يترجح الوقف للاختلاف في إسناد الحديث المرفوع، كما تقدم بيانه.

[٦٣٢١] أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» ١١٦٧١ من حديث جابر دون لفظ «الصبح» وإسناده ضعيف، فيه عنعنةُ أبي الزبير، وهو مدلس، والراجح وقفه.

وقال: حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح[(١)] عن النبي ﷺ، وهو أصح إسناداً من حديث عِمران بن حُصين[(٢)]. فيوم عرفة وتر، لأنه تاسعها، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها. وعن أبي أيوب قال:

[٦٣٢٢] سُئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣﴾ فقال: «الشفع: يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر». وقال مجاهد وابن عباس أيضاً: الشفع خَلْقه، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ۝٨﴾ [النبأ: ٨] والوتْر هو الله عز وجل. فقيل لمجاهد[(٣)]: أترويه عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، عن النبي ﷺ. ونَحوَه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة، قالوا: الشفع: الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والسماء والأرض، والجنّ والإنس. والوتر: هو الله عز وجل، قال جل ثناؤه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٢]. وقال النبيّ ﷺ:

[٦٣٢٣] «إن لله تسعةً وتسعين اسماً، والله وِتر يحب الوِتر». وعن ابن عباس أيضاً: الشفع: صلاة الصبح» والوتر: صلاة المغرب. وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هي صلاة المغرب، الشفع فيها ركعتان، والوتر الثالثة. وقال ابن الزُّبير: الشفع: يوما مِنًى: الحادي عشر، والثاني عشر. والثالث عشر الوتر؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وقال الضحاك: الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر: أيام مِنًى الثلاثة. وهو قول عطاء. وقيل: إن الشفع والوتر: آدم وحوّاء؛ لأن آدم كان فرداً فشُفِع بزوجته حوّاء، فصار شفعاً بعد وتر. رواه ابن أبي نَجِيح، وحكاه

[٦٣٢٢] ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في «الكبير» ٤٠٧٣ من حديث أبي أيوب، وقال في المجمع ٧/ ١٣٧ فيه واصل بن السائب وهو متروك.

[٦٣٢٣] تقدم تخريجه، وهو صحيح.

---

(١) لم يصح كما تقدم.

(٢) تقدم قبل حديث واحد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ٦/ ٥٨٠ عن عطية العوفي عن أبي سعيد بمثل سياق المصنف، وعطية هذا واه جداً روىٰ عن أبي سعيد مناكير كثيرة، ولا يصح هذا الأثر عن مجاهد، فقد أخرج عبد الرزاق ٣٥٩٦ بسند جيد عن مجاهد في قوله تعالىٰ ﴿والشفع والوتر﴾ قال: الخلق كله شفع ووتر، فأقسم بالخلق ا هـ فلما صح هذا عن مجاهد امتنع الأول للمعارضة بين القولين، ثم إن مجاهداً لا يروي عن أبي سعيد، وإنما جل روايته عن ابن عباس وابن عمر، والله أعلم.

القشيريّ عن ابن عباس. وفي رواية: الشفع: آدم وحوّاء، والوتر هو الله تعالى. وقيل: الشفع والوتر: الخلق؛ لأنهم شفع ووتر، فكأنه أقسم بالخلق. وقد يقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه، ويقسم بأفعاله لقدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [الليل: ٣]. ويقسم بمفعولاته، لعجائب صنعه؛ كما قال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس: ٥]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق: ١]. وقيل: الشفع: دَرَجات الجنة، وهي ثمان. والوتر، دَرَكات النار؛ لأنها سبعة. وهذا قول الحسين بن الفضل؛ كأنه أقسم بالجنة والنار. وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: الكَعْبة. وقال مقاتل بن حَيّان: الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة. وقال سفيان بن عُيينة: الوتر: هو الله، وهو الشفع أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]. وقال أبو بكر الورّاق: الشفع: تضادّ أوصاف المخلوقين: العز والذل، والقدرة والعجز، والقوّة والضعف، والعلم والجهل، والحياة والموت، والبصر والعَمَى، والسمع والصَّمَم، والكلام والخَرَس. والوتر: انفراد صفات الله تعالى: عِز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوّة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، وبصر بلا عَمًى، وكلام بلا خَرَس، وسمع بلا صَمَم، وما وازاها. وقال الحسن: المراد بالشفع والوتر: العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما، وهو إقسام بالحساب. وقيل: الشفع: مسجد مكة والمدينة، وهما الحرمان. والوتر: مسجد بيت المقدس. وقيل: الشفع: القِرن[1] بين الحج والعمرة، أو التمتع بالعمرة إلى الحج. والوتر: الإفراد فيه. وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذكر وأنثى. والوتر: الجماد. وقيل: الشفع: ما يَنْمِي، والوتر: ما لا يَنْمِي. وقيل غير هذا. وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائيّ وحمزة وخلف «والوِترِ» بكسر الواو. والباقون (بفتح الواو)، وهما لغتان بمعنى واحد. وفي الصحاح: الوِتر (بالكسر): الفرد، والوَتْر (بفتح الواو): الذحل[2]. هذه لغة أهل العالية. فأمّا لغة أهل الحجاز فبالضدّ منهم. فأما تميم فبالكسر فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ وهذا قسم خامس. وبعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم. ومعنى «يسرِي» أي يُسْرَى فيه؛ كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم. قال[3]:

---

(١) لعل الصواب «القرآن».

(٢) الحقد والعداوة.

(٣) هو جرير يرد علىٰ الفرزدق.

لَقَدْ لُمْتِنا يا أمَّ غَيلان في السُّرَى ونِمـتِ ومـا ليـلُ المطِـيِّ بنـائِـم

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]. وهذا قول أكثر أهل المعاني، وهو قول القُتَبِيّ والأخفش. وقال أكثر المفسرين: معنى «يَسْرِي»: سار فذهب. وقال قتادة وأبو العالية: جاء وأقبل. ورُوِي عن إبراهيم: «والليلِ إذا يَسْرِ» قال: إذا استوى. وقال عكرمة والكلبيّ ومجاهد ومحمد بن كعب في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ﴾: هي ليلة المزدلِفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله. وقيل: ليلة القَدْر؛ لِسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها. وقيل: إنه أراد عموم الليل كله.

قلت: وهو الأظهر، كما تقدّم. والله أعلم. وقرأ ابن كثِير وابن مُحيصِن ويعقوب «يسرِي» بإثبات الياء في الحالين، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومة، فثبتت فيها الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، وبحذفها في الوقف، وروي عن الكسائي. قال أبو عبيد: كان الكسائي يقول مرة بإثبات الياء في الوصل، وبحذفها في الوقف، اتباعاً للمصحف. ثم رجع إلى حذف الياء في الحالين جميعاً؛ لأنه رأس آية، وهي قراءة أهل الشام والكوفة واختيار أبي عُبيد، اتباعاً للخط؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء. قال الخليل: تسقط الياء منها اتفاقاً لرؤوس الآي. قال الفرّاء: قد تحذف العرب الياء، وتكتفي بكسر ما قبلها. وأنشد بعضهم:

كَفَّـاكَ كَـفٌّ مـا تُليـقُ دِرهَمـاً جُودا وأخرى تعطِ بالسَّيف الدّما

يقال: فلان ما يُلِيق درهماً من جوده؛ أي ما يمسكه، ولا يلصق به. وقال المؤرِّج: سألت الأخفش عن العِلة في إسقاط الياء من «يَسْرِ» فقال: لا أجيبك حتى تبِيت على باب داري سنة، فبت على باب داره سنة؛ فقال: الليل لا يَسْرِي وإنما يُسْرَى، فيه؛ فهو مصروف، وكل ما صرفته عن جهته بَخَسْته من إعرابه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٨]، ولم يقل بغِية، لأنه صرفها عن باغية. الزمخشريّ: وياء «يسرِي» تحذف في الدَّرْج، اكتفاء عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة. وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم، والجواب محذوف، وهو لَيُعَذَّبُنّ؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ـ إلى قوله تعالى ـ: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١٣]. وقال ابن الأنباريّ هو ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]. وقال مقاتل: «هل» هنا في موضع إنّ؛ تقديره: إن في ذلك قسماً لذي حِجْر. فـ«هل» على هذا في موضع جواب القسم. وقيل: هي على بابها من الاستفهام الذي معناه التقرير؛ كقولك: ألم أُنعِم عليك؛ إذا كنت قد أنعمت. وقيل: المراد بذلك التأكيد لما

أقسم به وأقسم عليه. والمعنى: بل في ذلك مَقْنَع لذي حِجر. والجواب على هذا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾. أو مضمر محذوف. ومعنى ﴿لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ أي لذي لُبّ وعقل. قال الشاعر:

وكيـفَ يـرجَّـى أَنْ تَتـوبَ وإنَّمـا　　يُرَجَّى من الفِتيانِ مَنْ كان ذا حِجْر

كذا قال عامة المفسرين؛ إلا أن أبا مالك قال: «لِذِي حِجر»: لذي سِتر من الناس. وقال الحسن: لذي حلم. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد: لذي حجْر، ولذي عقل، ولذي حلم، ولذي سِتر؛ الكل بمعنى العقل. وأصل الحِجر: المنع. يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لذو حِجْر؛ ومنه سمي الحَجَر، لامتناعه بصلابته، ومنه حَجر الحاكم على فلان، أي منعه وضبطه عن التصرّف؛ ولذلك سميتِ الحُجْرة حجرة، لامتناع ما فيها بها. وقال الفرّاء: العرب تقول: إنه لذو حِجْر: إذا كان قاهراً لنفسه، ضابطاً لها؛ كأنه أخذ من حَجَرت على الرجل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي مالكك وخالقك. ﴿بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ﴾ قراءة العامة «بعادٍ» منوّناً. وقرأ الحسن وأبو العالية «بعادِ إرَمَ» مضافاً. فمن لم يضف جعل «إرَم» اسمه، ولم يصرفه؛ لأنه جعل عاداً اسم أبيهم، وإرَم اسم القَبِيلة؛ وجعله بدلاً منه، أو عطف بيان. ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله اسم أمّهم، أو اسم بلدتهم. وتقديره: بعاد أهل إرم. كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ولم تنصرف ـ قبيلة كانت أو أرضاً ـ للتعريف والتأنيث. وقراءة العامة «إِرَمَ» بكسر الهمزة. وعن الحسن أيضاً «بعادَ إرَمَ» مفتوحتين، وقرىء «بعادَ إرْمَ» بسكون الراء، على التخفيف؛ كما قرىء «بوَرْقِكُمْ». وقرىء «بِعادٍ إرَمَ ذاتِ العِمادِ» بإضافة «إرَمَ» ـ إلى ـ «ذاتِ العِمادِ». والإرم: العلم. أي بعاد أهل ذات العَلَم. وقرىء «بِعادٍ إرَمَ ذاتِ العِمادِ» أي جعل الله ذاتَ العماد رميماً. وقرأ مجاهد والضحاك وقتادة «أَرَمَ» بفتح الهمزة. قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام، التي هي الأعلام، واحدها: أَرَم. وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي والفجر وكذا وكذا إنّ ربك لبالمِرصاد ألم تر. أي ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد. وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد عامّ. وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهوراً؛ إذ كانوا في بلاد العرب، وحِجر ثمود موجود اليوم. وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضت به الأخبار، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب. وقد تقدّم هذا المعنى في سورة «البروج» وغيرها ﴿بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ أي بقوم عاد.

فروىٰ شَهْر بن حَوْشَب[1] عن أبي هريرة قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المِصْراع من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يُقِلُّوه، وإن كان أحدهم ليُدخِل قدمه في الأرض فتدخل فيها. و«إرَم»: قيل هو سام بن نوح؛ قاله ابن إسحاق. وروى عطاء عن ابن عباس ـ وحكى عن ابن إسحاق أيضاً ـ قال: عاد بن إرَم. فإرَم على هذا أبو عاد، وعاد بن إرَم بن عوص بن سام بن نوح. وعلى القول الأوّل: هو اسم جدّ عاد. قال ابن إسحاق: كان سام بن نوح له أولاد، منهم إرم بن سام، وأرْفَخْشَذ بن سام. فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك الطغاة والعصاة. وقال مجاهد: «إرَم» أمّة من الأمم. وعنه أيضاً: أن معنى إرَمَ: القديمة، ورواه ابن أبي نَجِيح. وعن مجاهد أيضاً أن معناها القوية. وقال قتادة: هي قبيلة من عاد. وقيل: هما عادان. فالأولى هي إرَم؛ قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم: ٥٠]. فقيل لعقِب عاد بن عَوْص بن إرَمَ بن سام بن نوح: عاد؛ كما يقال لبني هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى. وإرَم: تسمية لهم باسم جَدّهم. ولمن بعدهم: عادٌ الأخيرة. قال ابن الرُّقَيّات:

مَجْــداً تلِيــداً بنــاهُ أوّلهُــم أدرك عــاداً وقبلَــهُ إرَمَــا

وقال مَعْمر: «إرم»: إليه مجمع عاد وثمود. وكان يقال: عادُ إرَمَ، وعادُ ثَمُودَ. وكانت القبائل تنتسب إلى إرم. ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع، والقصير منهم طوله ثلاثمائة ذراع بذراع نفسه. ورُوي عن ابن عباس أيضاً أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعاً. ابن العَربيّ: وهو باطل؛ لأن في الصحيح:

[٦٣٢٤] «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في الهواء، فلم يزل الخلق ينقُص إلى الآن». وزعم قتادة: أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعاً. قال أبو عبيدة: «ذاتِ العِمادِ» ذات الطُّول. يقال: رجل مُعَمَّد إذا كان طويلاً. ونحوه عن ابن عباس ومجاهد. وعن قتادة أيضاً: كانوا عِماداً لقومهم؛ يقال: فلان عَمِيد القوم وعَمُودهم: أي سيدهم. وعنه أيضاً: قيل لهم ذلك، لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكلأ، ثم يرجعون إلى منازلهم. وقيل: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ أي ذات الأبنية المرفوعة على العَمَد. وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور. قال

[٦٣٢٤] مضىٰ تخريجه.

---

(١) هذا الأثر من الإسرائيليات.

ابن زيد: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧﴾ يعني إحكام البُنيان بالعَمَد وفي الصحاح: والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكر وتؤنث. قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عِمادُ الحيّ خَرَّتْ　　على الأحْفاضِ نَمْنع مَنْ يَلِينا

والواحدة عمادة. وفلان طويل العِماد: إذا كان منزله مَعْلَماً لزائره. والأحفاض: جمع حَفَض (بالتحريك) وهو متاع البيت إذا هُيِّيءَ ليُحمل؛ أي خَرّتْ على المتاع. ويروى؛ «عن الأحفاض» أي خرّت عن الإبل التي تحمل خُرْثِيَّ[1] البيت. وقال الضحاك: «ذاتِ العِمادِ» ذات القوّة والشدّة، مأخوذ من قوّة الأعمدة؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. وروى عوف عن خالد الرّبعِيّ «إرم ذاتِ العِمادِ» قال: هي دمشق. وهو قول عكرمة وسعيد المَقْبُرِيّ. رواه ابن وهب وأشهب عن مالك. وقال محمد بن كعب القُرظِيّ: هي الإسكندرية.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾.

الضمير في «مِثلها» يرجع إلى القبيلة. أي لم يخلق مثل القبيلة في البلاد: قوّة وشدّة، وعظم أجساد، وطول قامة؛ عن الحسن وغيره. وفي حرف عبدالله «الّتي لم يُخْلَقْ مِثْلُهُمْ في البلاد». وقيل: يرجع للمدينة. والأوّل أظهر، وعليه الأكثر، حسْب ما ذكرناه. ومن جعل «إرم» مدينة قدّر حذفاً؛ المعنى: كيف فعل ربك بمدينة عاد إرم، أو بعد صاحبه إرم. وإرم على هذا: مؤنثة معرّفة. واختار ابن العربيّ أنها دِمشق، لأنه ليس في البلاد مثلها. ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها. ثم قال: وإن في الإسكندرية لعجائب، لو لم يكن إلا المنارة، فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد، ولكن لها أمثال، فأمّا دِمشق فلا مِثل لها. وقد روى مَعْن عن مالك أن كتاباً وُجِد بالإسكندرية، فلم يُدْرَ ما هو؟ فإذا فيه «أنا شدّاد بن عاد، الذي رفع العماد، بنيتها حين لا شيبَ ولا مَوْت. قال مالك: إن كان لتمرّ بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة. وذكر عن ثور بن زيد أنه قال: أنا شدّاد بن عاد، وأنا رفعت العماد، وأنا الذي شَدَدْت بذراعي بطن الواد، وأنا الذي كنزت كنزاً على سبعة أذرع، لا يخرجه إلا أمّة محمد ﷺ[2]. ورُوِي أنه كان لعاد ابنان: شدّاد وشديد؛ فملكا وقهرا، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشدّاد فملك الدنيا، ودانت له ملوكها؛ فسمع بذكر الجنة، فقال: ابني مثلها. فبنى إرَمَ في بعض صحارى عَدَن، في ثلاثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة. وهي مدينة عظيمة، قصورها من الذهب

(١) خرسيّ ككرسيّ: سَقْطُ متاع البيت وأثاثه.

(٢) هذه الأخبار من الإسرائيليات.

والفضة، وأساطينها[١] من الزَّبَرْجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المُطَّرِدة[٢]. ولما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قِلابة: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثَمَّ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب[٣] فسأله، فقال: هي إرَمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عَقِبه خال، يخرج في طلب إبل له؛ ثم التفت فأبصر ابن قِلابة، وقال: هذا والله ذلك الرجل. وقيل: أي لم يخلق مثل أبنية عاد المعروفة بالعمد. فالكناية للعماد. والعماد على هذا: جمع عَمَد. وقيل: الإرَم: الهلاك؛ يقال: أَرِم بنو فلان: أي هلكوا؛ وقاله ابن عباس. وقرأ الضحاك: «أَرَمَّ ذاتَ العِمادِ»؛ أي أهلكهم، فجعلهم رَميماً.

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾.

ثمود: هم قوم صالح. و﴿جَابُوا۟﴾: قطعوا. ومنه: فلان يجوب البلاد، أي يقطعها. وإنما سمي جيب القميص لأنه جِيبَ؛ أي قطع. قال الشاعر وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة، فكتب له بستين وَسْقاً يأخذها بالكوفة. فقال:

راحت رَوَاحاً قَلُوصِي وهي حامدة ... آلَ الزُّبَير ولم تَعْدِل بهم أَحدَا
راحتْ بستينَ وَسْقاً في حَقِيبتها ... ما حَمَلَتْ حَمْلَها الأدنَى ولا السَّدَدا
ما إنْ رأيتُ قَلُوصا قبلها حملت ... سِتين وَسْقاً ولا جابت به بلدا

أي قطعت. قال المفسرين: أوّل من نحت الجبال والصور والرخام: ثمود. فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة. ومن الدور والمنازل ألفَيْ ألِف وسبعمائة ألف[٤]، كلها من الحجارة. وقد قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ [الحجر: ٨٢]. وكانوا لقوّتهم يُخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم. ﴿بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ أي بوادي القُرَى؛ قاله محمد بن إسحاق. وروى أبو الأشهب عن أبي نضْرة قال:

---

(١) جمع أسطوانة وهي العمود والسارية.
(٢) أي الجارية.
(٣) هو كعب الأحبار. وقد أنكر الحافظ في تخريج الكشاف هذه القصة، وقال: آثار الوضع عليه لائحة ا هـ ٧٤٨/٤.
(٤) هذه أرقام خيالية.

[٦٣٢٥] أتى رسول الله ﷺ في غَزاة تَبوك على وادي ثمود، وهو على فَرَس أشقر، فقال: «أسرعوا السير، فإنكم في وادٍ ملعون». وقيل: الوادي بين جبال، وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتاً ودوراً وأحواضاً. وكل مُنْفَرَج بين جبال أو تلال يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً فهو وادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾.

أي الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشدّ ملكه؛ قاله ابن عباس. وقيل: كان يعذب الناس بالأوتاد، ويشدهم بها إلى أن يموتوا؛ تجبراً منه وعُتُوّاً. وهكذا فعل بامرأته آسية وماشطة ابنته؛ حَسْب ما تقدم في آخر سورة «التحريم». وقال عبد الرحمن بن زيد: كانت له صخرة تُرفع بالبكرات، ثم يؤخذ الإنسان فتوتد له أوتاد الحديد، ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه. وقد مضى في سورة «ص» من ذكر أوتاده ما فيه كفاية. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾﴾ يعني عاداً وثموداً[1] وفرعون «طَغَوْا» أي تمرّدوا وعَتَوْا وتجاوزوا القدر في الظلم والعُدوان. ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ أي الجَوْر والأذى و﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟﴾ أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذمّ. ويجوز أن يكون مرفوعاً على: هم الذين طغوا، أو مجروراً على وصف المذكورين: عادٍ، وثمودٍ، وفرعونَ. ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ أي أفرغ عليهم وألقَى؛ يقال: صبّ على فلان خِلعة، أي ألقاها عليه. وقال النابغة:

فَصبّ عليه الله أحْسَنَ صَنْعِه ... وكان له بين البرية ناصرا

﴿سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ أي نصِيب عذاب. ويقال: شِدّته؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يُعَذَّب به. قال الشاعر:

ألم تر أن الله أظهرَ دِينه ... وصبَّ على الكفار سَوْطَ عَذابِ

[٦٣٢٥] ذكره الماوردي ٤/٢٦٨ عن أبي نضرة بدون إسناد، ومع ذلك هو مرسل. وتقدم بنحو هذا السياق.

---

(١) منهم من يصرفها، ومنهم من لا يصرفها. فمن يصرفها أراد الحيّ، لأنه اسم عربي، ومن لم يصرفها أراد القبيلة.

وقال الفرّاء: وهي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب. وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يُعذِّبون به، فجرى لكل عذاب؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل: معناه عذاب يخالط اللحم والدم؛ من قولهم: ساطه يَسوطه سَوْطاً أي خلطه، فهو سائط. فالسوط: خلط الشيء بعضِه ببعض؛ ومنه سمي المِسْواط. وسَاطَهُ أي خَلَطه، فهو سائط، وأكثر ذلك يقال: سَوَّط فلان أموره. قال:

فَسُطْهـا ذَمِيـمَ الـرأْيِ غَيـر مُـوَفَّـقٍ   فلسـت علـى تَسـوِيطهـا بمُعـانِ

قال أبو زيد: يقال أموالهم سَوِيطة بينهم؛ أي مختلطة. حكاه عنه يعقوب. وقال الزجاج: أي جعل سوطَهم الذي ضربهم به العذاب. يقال: ساط دابته يَسُوطها؛ أي ضربها بسوطه. وعن عمرو بن عُبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطاً كثيرة، فأخذهم بسوط منها. وقال قتادة: كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

أي يَرْصُد عمل كل إنسان حتى يجازِيه به؛ قاله الحسن وعكرمة. وقيل: أي على طريق العباد لا يفوته أحد. والمَرْصَد والمِرصاد: الطريق. وقد مضى في سورة «براءة» والحمد لله. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: إن على جهنم سبع قناطر، يُسأل الإنسان عند أوّل قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تاماً جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يُسأل عن الصلاة، فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة. ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان، فإن جاء به جاز إلى الخامسة. ثم يُسأل عن الحجّ والعُمْرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة. ثم يسأل عن صلة الرحم، فإن جاء بها جاز إلى السابعة. ثم يُسأل عن المظالم، وينادِي منادٍ: ألا من كانت له مَظْلِمة فليأت؛ فيقتص للناس منه، ويقتص له من الناس؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾. وقال الثورِيّ: ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ يعني جهنم عليها ثلاث قناطر: قنطرة فيها الرَّحِم، وقنطرة فيها الأمانة، وقنطرة فيها الرب تبارك وتعالى[1].

قلت: أي حكمته وإرادته وأمره. والله أعلم. وعن ابن عباس أيضاً «لبِالْمِرصادِ» أي يسمع ويرى.

قلت: هذا قول حسن؛ «يَسْمع» أقوالهم ونجواهم، و«يَرَى» أي يعلم أعمالهم وأسرارهم، فيجازِي كلا بعمله. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال:

(١) لا يصح مثل هذا عن الثوري، ولا حاجة للتأويل.

بالمرصاد. وعن عمرو بن عُبيد أنه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ يا أبا جعفر! قال الزمخشري: عَرَّض له في هذا النداء، بأنه بعض من تُوُعِّد بذلك من الجبابرة؛ فلِلَّه درّه. أيُّ أَسدٍ فَرَّاس كان بين يديه؟ يَدُقّ الظَّلمة بإنكاره، ويقمَع[1] أهل الأهواء والبدع باحتجاجه!

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ يعني الكافر. قال ابن عباس[2]: يريد عُتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة. وقيل: أُمية بن خلف. وقيل: أبيّ بن خلف. ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي امتحنه واختبره بالنعمة. و«ما»: زائدة صلة. ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بالمال. ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بما أوسع عليه. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥﴾ فيفرح بذلك ولا يحمده. ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي امتحنه بالفقر واختبره. ﴿فَقَدَرَ﴾ أي ضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ على مقدار البُلْغة. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۝١٦﴾ أي أولاني هوانا. وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته. فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه، المؤدّي إلى حظ الآخرة، وإن وسَّع عليه في الدنيا حمِده وشكره.

قلت: الآيتان صفة كل كافر. وكثير من المسلمين يظنّ أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربما يقول بجهله: لو لم أستحقَّ هذا لم يعطنيه الله. وكذا إن قَتَّر عليه يظنّ أن ذلك لهوانه على الله. وقراءة العامة «فقَدَر» مخففة الدال. وقرأ ابن عامر مشدّداً، وهما لغتان. والاختيار التخفيف؛ لقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]. قال أبو عمرو: و«قُدِر» أي قُتِّر. و«قُدِّر» مشدّداً: هو أن يعطيه ما يكفيه، ولو فعل به ذلك ما قال «ربّي أهانن». وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو «ربّيَ» بفتح الياء في الموضعين. وأسكن الباقون. وأثبت البَزّي وابن مُحَيصِن ويعقوب الياء من «أكرمنِ»، و«أهاننِ» في الحالين؛ لأنها اسم فلا تحذف. وأثبتها المدنيون في الوصل دون الوقف، اتباعاً للمصحف. وخير أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حذفها؛ لأنها رأس آية، وحذفها في الوقف لخط المصحف. الباقون بحذفها، لأنها وقعت في الموضعين بغير ياء، والسنة ألا يخالف خط المصحف؛ لأنه إجماع الصحابة.

---

(١) في الكشاف ٤/٧٤٩ «ويقصع» وفي الصحاح: قصعت الرجل. صغّرته، وحقرته.

(٢) الصواب أن الآية عامة، ولا يصح هذا عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردّ؛ أي ليس الأمر كما يُظَنّ، فليس الغِنى لفضله، ولا الفقر لهوانه، وإنما الفقر والغنى من تقديري وقضائي. وقال الفراء: «كَلّا» في هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمدُ الله عز وجل على الغنى والفقر. وفي الحديث:

[٦٣٢٦] «يقول الله عز وجل: كلا إني لا أكرِم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهِين من أهنت بقلتها، إنما أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي».

قوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ إخبار عن ما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث، وأكل ماله إسْرافاً وبِدَاراً أَنْ يَكْبُروا. وقرأ أبو عمرو ويعقوب «يُكْرِمون»، و«يَحُضُّون» و«يأكلون»، و«يُحِبُّونَ» بالياء؛ لأنه تقدّم ذكر الإنسان، والمراد به الجنس، فعبر عنه بلفظ الجمع. الباقون بالتاء في الأربعة، على الخطاب والمواجهة؛ كأنه قال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً. وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه، وأكل ماله كما ذكرنا. قال مقاتل: نزلت في قُدامة بن مظعون وكان يتيماً في حجر أُمية بن خَلَف. ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ أي لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكين يجيئهم. وقرأ الكوفيون «ولا تَحَاضُّونَ» بفتح التاء والحاء والألف. أي يَحُضُّ بعضهم بعضاً. وأصله تتحاضُّون، فحذف إحدى التاءين لدلالة الكلام عليها. وهو اختيار أبي عُبيد. ورُوِي عن إبراهيمَ والشَّيْزَرِيّ عن الكسائي والسُّلَمِيّ «تُحَاضُّون» بضم التاء، وهو تُفاعِلون من الحضّ، وهو الحث. ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي ميراث اليتامى. وأصله الوُراث من ورِثت، فأبدلوا الواو تاء؛ كما قالوا في تُجاه وتُخمَة وتُكأَة وتُؤَدة ونحو ذلك. وقد تقدّم. ﴿أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ أي شديداً؛ قاله السُّدّيّ. قيل: «لَمّا»: جمعا؛ من قولهم: لممت الطعام لما إذا أكلته جمعاً؛ قاله الحسن وأبو عُبيدة. وأصل اللَّمّ في كلام العرب: الجمع؛ يقال: لَمَمْت الشيء أَلُمُّه لَمًّا: إذا جمعته، ومنه يقال: لمّ الله شعثه، أَي جمع ما تفرّق من أموره. قال النابغة:

ولَسْــتَ بِمُسْتَبِــقٍ أَخــاً لا تَلُمُّــه   على شَعَـثٍ أَيُّ الـرجـال المُهَـذَّبُ

ومنه قولهم: إن دارك لَمُومَة؛ أي تَلُمّ الناس وتَرُبُّهم وتجمعهم. وقال المِرناق الطائيُّ يمدح علقمة بن سيف:

[٦٣٢٦] لم أجده وأمارة الوضع لائحة عليه، وقد ذكر السمرقندي ٣/ ٤٧٧ عن قتادة نحوه من قوله يفسر هذه الآية.

لأَحبَّنِــي حُـــبّ الصبــيّ ولَمَّنِـــي لَـمَّ الهُـدِيّ إلـى الكـرِيـم المـاجِـد

وقال الليث: اللمّ الجمع الشديد؛ ومنه حجر ملموم، وكتيبة ملمومة. فالآكل يَلُم الثريد، فيجمعه لُقَماً ثم يأكله. وقال مجاهد. يَسفُّه سَفّاً، وقال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب غيره. قال الحُطيئة:

إذا كــانَ لَمَّــا يُتْبَــع الــذمَّ ربَّــه فلا قدّسَ الرحمنُ تلك الطواحِنا

يعني أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم. وقال ابن زيد: هو أنه إذا أكل ماله ألَمّ بمال غيره فأكله، ولا يفكر، أكل من خبيث أو طيب. قال: وكان أهل الشرك لا يورّثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع مِيراثِهم، وتراثهم مع تُراثِهم. وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك، فَيلُمّ في الأكل بين حرامه وحلاله. ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفِر بالمال سَهْلاً مَهْلاً، من غير أن يَعرَق فيه جبينه، فيسرِف في إنفاقه، ويأكله أكلاً واسعاً، جامعاً بين المشتهيات، من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوُرّاث البطالون. ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ أي كثيراً، حلاله وحرامه. والجمّ الكثير. يقال: جمّ الشيء يَجُمّ جُموماً، فهو جَمٌّ وجامٌّ. ومنه جمّ الماء في الحوض: إذا اجتمع وكثر. وقال الشاعر[(١)]:

إن تغفِــرِ اللّهُــمَّ تغفِــرْ جَمَّــا وأيُّ عبــدٍ لـــك لا ألَمَّـــا

والجَمَّة: المكان الذي يجتمع فيه ماؤه. والجَموم: البئر الكثيرة الماء. والجُمومُ (بالضم): المصدر؛ يقال: جمّ الماء يجِم جموماً: إذا كثر في البئر واجتمع، بعد ما استقي ما فيها.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر. فهو ردّ لانكبابهم على الدنيا، وجمعهم لها، فإن من فعل ذلك يندم يوم تُدَكّ الأرض، ولا ينفع الندم. والدّك: الكسر والدقّ؛ وقد تقدّم. أي زلزلت الأرض، وحُرِّكت تحريكاً بعد تحريك. وقال الزجاج: أي زلزلت فَدَك بعضها بعضاً. وقال المبرد: أي ألصِقت وذهب ارتفاعها. يقال: ناقة دَكّاء، أي لا سنام لها، والجمع دُكٌّ. وقد مضى في سورة «الأعراف» و«الحاقة» القول في هذا. ويقولون: دُكّ الشيء أي هُدِم. قال:

هـل غـيـر غـارٍ[(٢)] دَكَّ غـاراً فـانـهـدمْ

(١) هو أبو خراش الهذلي.

(٢) الجمع الكثير من الناس.

﴿ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ أي مرة بعد مرة؛ زلزلت فكسّر بعضها بعضاً؛ فتكسر كل شيء على ظهرها. وقيل: دُكّت جبالها وأنشازها حتى استوت. وقيل: دُكت أي استوت في الانفراش؛ فذهب دُورها وقُصورها وجبالها وسائر أبنيتها. ومنه سمي الدّكان، لاستوائه في الانفراش. والدك: حطُّ المرتفع من الأرض بالبسط؛ وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس: تمدّ الأرض مدّ الأديم.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ أي أمره وقضاؤه؛ قاله الحسن. وهو من باب حذف المضاف. وقيل: أي جاءهم الربّ بالآيات العظيمة؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي بظلل. وقيل: جعل مجيء الآيات مجيئاً له، تفخيماً لشأن تلك الآيات. ومنه قوله تعالى في الحديث:

[٦٣٢٧] «يا ابن آدم، مرِضت فلم تَعُدني، واستسقيتُك فلم تَسْقِني، واستطعمتك فلم تُطْعِمْني». وقيل: «وجاءَ رَبُّك» أي زالت الشُّبَهُ ذلك اليوم، وصارت المعارف ضرورية، كما تزول الشُّبَه والشك عند مجيء الشيء الذي كان يُشَك فيه. قال أهل الإشارة: ظهرت قدرته واستولت، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحوّل من مكان إلى مكان، وأنّى له التحوّل والانتقال، ولا مكان له ولا أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان؛ لأن في جَرَيان الوقت على الشيء فوت الأوقات، ومن فاته شيء فهو عاجز.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ ﴾ أي الملائكة. ﴿ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ أي صفوفاً. ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾: قال ابن مسعود ومقاتل: تقاد جهنم بسبعين ألف زمام، كل زمام بيد سبعين ألف ملك، لها تغيظ وزفير، حتى تنصب عن يسار العرش. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦٣٢٨] «يُؤتَى بجهنم يومئذٍ، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، يجرّونها». وقال أبو سعيد الخُدرِيّ:

[٦٣٢٩] لما نزلت ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ تغير لون رسول الله ﷺ، وعُرف في

[٦٣٢٧] صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٦٩ والبخاري في الأدب المفرد ٥١٧ وابن حبان ٢٦٩ من حديث أبي هريرة بأتم منه.

[٦٣٢٨] صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٤٢ وغيره وتقدم.

[٦٣٢٩] ضعيف جداً، أخرجه الواحدي في «الوسيط» ٤/ ٤٨٥ بإسناد ساقط، وذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٧٥٢ =

وجهه، حتى اشتدّ على أصحابه، ثم قال: «أقرأني جبريل ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ ـ الآية ـ ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾». قال عليّ رضي الله عنه: قلت يا رسول الله، كيف يجاء بها؟ قال: «يؤتى بها تقاد بسبعين ألفَ زمام، يقود بكل زمام سبعون ألفَ مَلَك، فَتَشْرُد شَرْدَة لو تركت لأحرقت أهل الجمع ثم تَعْرِض لي جهنم فتقول: ما لي ولك يا محمد، إن الله قد حرّم لحمك عليّ» فلا يبقى أحد إلا قال نفسي نفسي! إلا محمد ﷺ فإنه يقول: ربي أمتي! ربِّ أمتي!.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي يتعِظ ويتوب. وهو الكافر، أو من هِمته معظم الدنيا. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ أي ومِن أين له الاتعاظ والتوبة وقد فرّط فيها في الدنيا. ويقال: أي ومِن أين له منفعة الذكرى. فلا بدّ من تقدير حذف المضاف، وإلا فبين «يَوْمَئِذٍ يتذكر» وبين «وأنَّى له الذكرى» تنافٍ؛ قاله الزمخشريّ.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾.

أي في حياتي. فاللام بمعنى في. وقيل: أي قدمت عملاً صالحاً لحياتي، أي لحياة لا موت فيها. وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة، فكأنهم لا حياة لهم؛ فالمعنى: يا ليتني قدّمت من الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمن له حياة هنيئة.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي لا يعذِّب كعذاب الله أَحَد، ولا يُوثِق كوثاقه أحد. والكناية ترجع إلى الله تعالى. وهو قول ابن عباس والحسن. وقرأ الكسائي «لا يُعَذَّب» «ولا يُوثَق» بفتح الذال والثاء؛ أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يَوْمَئذ، ولا يوثَق كما يوثَق الكافر. والمراد إبليس؛ لأن الدليل قام على أنه أشدّ الناس عذاباً، لأجل إجرامه؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير. وقيل: إنه أمية بن خلف؛ حكاه الفرّاء. يعني أنه لا يعذَّب كعذاب هذا الكافر المعيَّن أحد، ولا يوثَق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد؛ لتناهيه في كفره وعناده. وقيل: أي لا يعذَّب مكانه أحد، فلا يؤخذ منه فداء. والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى الإيثاق. ومنه قول الشاعر:

= فقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي، من طريق عطية العوفي عن أبي سعيد بأتم منه ا هـ وعطية العوفي واه جداً روىٰ مناكير كثيرة، واتهمه بعضهم بأنه كان يدلس الكلبي، فيكنيه بأبي سعيد، فيظن الناس أنه أبو سعيد الخدري راجع الميزان، وعنه عبيد الله بن الوليد، وهو ضعيف.

وبَعْـدَ عَطـائِـكَ المِـائَـةَ الـرِّتـاعـا[1]

وقيل: لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر. واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والثاء. وتكون الهاء ضمير الكافر؛ لأن ذلك معروف: أنه لا يعذب أحد كعذاب الله.

[٦٣٣٠] وقد روى أبو قِلابة عن النبيّ ﷺ أنه قرأ بفتح الذال والثاء. وروي أن أبا عمرو رجع إلىٰ قراءة النبي ﷺ. وقال أبو عليّ: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة؛ أي لا يعذِّب أحدٌ مثل تعذيب هذا الكافر؛ فتكون الهاء للكافر. والمراد بـ«أحد» الملائكة الذين يتولون تعذيب أهل النار.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ لما ذكر حال من كانت هِمته الدنيا فاتهم الله في إغنائه وإفقاره، ذكر حال من اطمأنت نفسه إلى الله تعالى، فسلم لأمره، واتكل عليه. وقيل: هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل. والنفس المطمئنة: الساكنة المُوقنة؛ أيقنت أن الله ربها، فأخبتت لذلك؛ قاله مجاهد وغيره. وقال ابن عباس: أي المطمئنة بثواب الله. وعنه المؤمنة. وقال الحسن: المؤمنة الموقنة. وعن مجاهد أيضاً: الراضية بقضاء الله، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأنّ ما أصابها لم يكن ليخطئها. وقال مقاتل: الآمنة من عذاب الله. وفي حرف أُبيّ بن كعب «يأيتها النفس الآمنة المطمئنة». وقيل: التي عمِلت على يقين بما وعد الله في كتابه. وقال ابن كَيسان: المطمئنة هنا: المخلصة. وقال ابن عطاء: العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين. وقيل: المطمئنة بذكر الله تعالى؛ بيانه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. وقيل: المطمئنة بالإيمان، المُصدِّقة بالبعث والثواب. وقال ابن زيد: المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث، ويوم الجمع. وروى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال: يعني نفس حمزة[2]. والصحيح أنها عامة في كل نفسٍ مؤمنٍ مخلصٍ

[٦٣٣٠] أخرجه الطبري ٣٧١٩٨ والحاكم ٢/٢٥٥ عن أبي قلابة عمن أقرأهُ النبي ﷺ.. فذكره. وصححه الحاكم علىٰ شرطهما، وقال: والصحابي الذي لم يسمه في إسناده، قد سماه غيره مالك بن الحويرث. ووافقه الذهبي.

(١) عجز بيت للقطامي وصدره «أكفراً بعد ردّ الموت عني».

(٢) الصواب أنها عامة كما قال القرطبي وحمزة رضي الله عنه منهم، ثم إن السورة مكية.

طائع. قال الحسن البصريّ: إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض رُوح عبده المؤمن، اطمأنت النفس إلى الله تعالى، واطمأن الله إليها. وقال عبد الله بن[1] عمرو بن العاص: إذا تُوُفِّيَ المؤمن أرسل الله إليه مَلَكين، وأرسل معهما تُحْفة من الجنة، فيقولان لها: اخرُجي أَيَّتُها النفسُ المطمئنةُ راضية مَرْضِية، ومَرْضِياً عنك، اخرجي إلى رَوْحٍ وريَحْان، ورَبٍّ راضٍ غيرِ غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك وَجَد أحد من أنفه على ظهر الأرض. وذكر الحديث. وقال سعيد بن جبير[2]:

[٦٣٣١] قرأ رجل عند النبيّ ﷺ «يأيَّتُها النفسُ المُطْمَئِنَّة»، فقال أبو بكر: ما أحسن هذا يا رسول الله! فقال النبيّ ﷺ: «إن المَلَكَ سيقولها لك يا أبا بكر». وقال سعيد بن جبير:

[٦٣٣٢] مات ابن عباس بالطائف، فجاء طائر لم يُرَ على خِلقته طائر قط، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شَفِير القبر ـ لا يُدْرَى من تلاها ـ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾. وروى الضحاك:

[٦٣٣٣] أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رُومَة. وقيل: نزلت في خُبَيب بن عدِيّ الذي صَلَبه أهل مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة، فحوّل الله وجهه نحو القِبلة. والله أعلم[3].

معنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي إلى صاحبك وجسدِك؛ قاله ابن عباس وعِكرمة وعطاء. واختاره الطَّبَريّ؛ ودليله قراءة ابن عباس «فادْخُلِي فِي عَبْدِي» على التوحيد، فيأمر الله تعالى الأرواحِ غداً أن ترجع إلى الأجساد. وقرأ ابن مسعود «في جسدِ عبدي». وقال الحسن: ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته. وقال أبو صالح: المعنى: ارجعي إلى الله.

[٦٣٣١] أخرجه الطبري ٣٧٢١٣ بسند صحيح عن سعيد بن جبير مرسلاً وقال ابن كثير ٥٤٥/٤: هذا مرسل حسن اهـ ووصله ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في «المختارة» بذكر ابن عباس كما في الدر المنثور ٥٨٨/٦.

[٦٣٣٢] ذكره الهيثمي في المجمع ٢٨٥/٩ فقال: أخرجه الطبراني عن سعيد بن جبير ورجاله رجال الصحيح.

[٦٣٣٣] أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر ٥٨٩/٦ عن ابن عباس به وفيه جويبر متروك والضحاك لم يلق ابن عباس، وقد نقل ابن الجوزي في زاد المسير ٢٤٠/٨ الإجماع على أن السورة مكية.

---

(١) وقع في الأصل «عمرو بن العاص» والاستدراك عن تفسير البغوي ٤٥٥/٤.

(٢) وقع في الأصل «سعيد بن زايد» والتصويب عن كتب التخريج.

(٣) تقدم أن السورة مكية فلا يصح.

وهذا عند الموت. ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾ أي في أجساد عبادي؛ دليله قراءة ابن عباس وابن مسعود. قال ابن عباس: هذا يوم القيامة؛ وقاله الضحاك. والجمهور على أن الجنة هي دار الخلود التي هي مَسْكَن الأبرار، ودار الصالحين والأخيار. ومعنى «فِي عِبادِي» أي في الصالحين من عبادي؛ كما قال: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت: ٩]. وقال الأخفش: ﴿فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾ أي في حِزبي؛ والمعنى واحد. أي انتظمي في سِلْكهم. ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ معهم.

سورة البلد

مكية باتفاق. وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾﴾.

يجوز أن تكون «لا» زائدة؛ كما تقدّم في ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة: ١]؛ قاله الأخفش. أي أقسم؛ لأنه قال: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾﴾ وقد أقسم به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ٣] فكيف يَجْحَد القسم به وقد أقسم به. قال الشاعر:

تَذَكَّرتُ ليلى فاعترتني صَبابة ... وكاد صميم القلبِ لا يتقطَّع

أي يتقطع، ودخل حرف «لا» صلة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] بدليل قوله تعالى في (ص): ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ [صَ: ٧٥]. وقرأ الحسن والأعمش وابن كثير «لأُقْسِم» من غير ألف بعد اللام إثباتاً. وأجاز الأخفش أيضاً أن تكون بمعنى «أَلاَ». وقيل: ليست بنفي القسم، وإنما هو كقول العرب: لا والله لا فعلت كذا، ولا والله ما كان كذا، ولا والله لأَفْعَلَنّ كذا. وقيل: هي نفي صحيح؛ والمعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه. حكاه مكيّ. ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: «لا» ردٌّ عليهم. وهذا اختيار ابن العربيّ؛ لأنه قال: «وأما من قال إنها ردّ، فهو قول ليس له ردّ؛ لأنه يصح به المعنى، ويتمكن اللفظ والمراد». فهو ردّ لكلام من أنكر البعث ثم ابتدأ القسم. وقال القشيريّ: قوله «لا»: ردّ لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة، المغرور بالدنيا. أي ليس الأمر كما يحسبه، من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم ابتدأ القسم. و«البلد»: هي مكة، أجمعوا عليه. أي أُقسِم بالبلد الحرام الذي أنت فيه،

لكرامتك عليّ وحبي لك. وقال الواسطيّ أي نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حياً، وبركتك ميتاً؛ يعني المدينة. والأوّل أصح؛ لأن السورة نزلت بمكة باتفاق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

يعني في المستقبل؛ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠]. ومثله واسع في كلام العرب. تقول لمن تَعِدُه الإكرامَ والحِباء: أنت مُكرمٌ مَحْبُو. وهو في كلام الله واسع، لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة؛ وكفاك دليلاً قاطعا على أنّه للاستقبال، وأن تفسيره بالحال محال: أن السورة باتفاق مكية قبلَ الفتح. فروى منصور عن مجاهد: «وأَنتَ حِلٌّ» قال: ما صنعت فيه من شيء فأنت في حِلّ. وكذا قال ابن عباس: أُحِلّ له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء، فقتل ابن خَطَل ومِقْيس بن صُبَابة وغيرهما. ولم يَحِلَّ لأحد من الناس أن يقتل بها أحداً بعد رسول الله ﷺ. وروى السُّدّي قال: أنت في حِلٍّ ممن قاتلك أن تقتله. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: أُحِلَّت له ساعة من نهار، ثم أُطِبِقت وحرّمت إلى يوم القيامة، وذلك يوم فتح مكة. وثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦٣٣٤] «إن الله حرم مكة يوم خَلَق السمواتِ والأرضَ، فهي حَرام إلى أن تقوم الساعة، فلم تَحِلّ لأحد قبلي، ولا تَحِلّ لأحد بعدي، ولـم تحِلَّ لي إلاّ ساعةً من نهار» الحديث. وقد تقدم في سورة «المائدة». ابن زيد: لم يكن بها أحد حَلالاً غيرَ النبيّ ﷺ. وقيل: وأنت مُقِيم فيه وهو محلك. وقيل: وأنت فيه محْسن، وأنا عنك فيه راضٍ. وذكر أهل اللغة أنه يقال: رجل حِلٌّ وحَلال ومُحِلّ، ورجل حَرامٌ ومُحِل، ورجل حَرَام ومُحْرِم. وقال قتادة: أنت حِلٌّ به: لست بآثم. وقيل: هو ثناء على النبيّ ﷺ؛ أي إنك غير مرتكب في هذا البلد ما يَحرُم عليك ارتكابه، معرفة منك بحق هذا البيت؛ لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه. أي أقسِم بهذا البيت المعظم الذي قد عَرفتَ حرمته، فأنت مقيم فيه معظم له، غير مرتكب فيه ما يحرُم عليك. وقال شُرَحْبِيل بن سعد: «وأنت حِل بِهذا البلد» أي حلال؛ أي هم يحرّمُون مكة أن يقتلوا بها صيداً أو يَعضِدوا بها شجرة، ثم هم مع هذا يستحلون إخراجك وقتلك.

قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾.

قال مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح: ﴿وَوَالِدٍ﴾ آدم عليه السلام.

[٦٣٣٤] متفق عليه، وتقدم.

﴿وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ أي وما نَسَل من ولده. أقسم بهم لأنهم أعجبُ ما خلق الله تعالى على وجه الأرض؛ لما فيهم من التِّبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدُّعاة إلى الله تعالى. وقيل: هو إقسام بآدم والصالحين من ذُرّيته، وأما غير الصالحين فكأنهم بهائم. وقيل: الوالد إبراهيم. وما ولد: ذرّيته؛ قاله أبو عمران الجَوْنيّ، ثم يحتمل أنه يريد جميع ذريته. ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذريته. قال الفرّاء: وصَلحَتْ «ما» للناس؛ كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣]، وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الليل: ٣] وهو الخالق للذكر والأنثى، وقيل: «ما» مع ما بعدها في موضع المصدر؛ أي ووالد ووِلادته؛ كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس: ٥]. وقال عكرمة وسعيد بن جُبير: ﴿وَوَالِدٍ﴾ يعني الذي يولد له. ﴿وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ يعني العاقر الذي لا يُولَد له؛ وقاله ابن عباس. و«ما» على هذا نفي. وهو بعيد، ولا يصح إلا بإضمار الموصول؛ أي ووالد والذي ما ولد، وذلك لا يجوز عند البصريين. وقيل: هو عموم في كل والد وكل مولود؛ قاله عطية العَوفي. ورُوِي معناه عن ابن عباس أيضاً؛ وهو اختيار الطبريّ. قال الماورديّ: ويحتمل أن الوالد النبيّ ﷺ، لتقدّم ذكره، وما ولد أمّته، لقوله عليه السلام:

[٦٣٣٥] «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم». فأقسم به وبأمّته بعد أن أقسم ببلده؛ مبالغة في تشريفه عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

إلى هنا انتهى القَسَم؛ وهذا جوابه. ولله أن يُقْسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، كما تقدم. والإنسان هنا ابن آدم. ﴿فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ أي في شدّة وعناء من مكابدة الدنيا. وأصل الكَبَد الشدّة. ومنه تَكَبَّد اللبن: غلُظ وخَثُر واشتدّ. ومنه الكَبِد؛ لأنه دم تغلّظ واشتدّ. ويقال: كابدت هذا الأمر: قاسيت شدّته. قال لَبيد:

يـا عيـنُ هـلاَّ بكيـتِ أربـدَ إذْ قُمْنـا وقـام الخصـومُ فـي كَبَـدِ

قال ابن عباس والحسن: «في كَبَد» أي في شدّة ونَصَب. وعن ابن عباس أيضاً: في شدّة من حمله وولادته ورضاعه ونَبْت أسنانه، وغير ذلك من أحواله. وروى عكرمة عنه قال: منتصباً في بطن أمّه. والكَبَد: الاستواء والاستقامة. فهذا امتنان عليه في الخلقة. ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة في بطن أمها إلا منكَبة على وجْهها إلا ابن آدم، فإنه منتصِب انتصاباً؛ وهو قول النَخعِيّ ومجاهد وغيرهما. ابن كيسان: منتصباً رأسُه في بطن أمه؛ فإذا

[٦٣٣٥] مضى تخريجه.

أَذِن الله أن يخرجَ من بطن أمه قَلَبَ رأسَه إلى رجلي أمّه. وقال الحسن: يُكابِد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وعنه أيضاً: يكابد الشكر على السَّرَّاء ويكابد الصبرَ على الضَّرَّاء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما. ورواه ابن عمر. وقال يَمانٌ: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم؛ وهو مع ذلك أضعف الخلق. قال عُلماؤنا: أوّل ما يكابد قطع سُرَّته، ثم إذا قُمِط قِماطاً، وشَدَّ رِباطاً، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرّك لسانه، ثم يكابد الفِطام، الذي هو أشدّ من اللِّطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المُعَلِّم وصَولَته، والمؤدّب وسياسته، والأستاذ وهَيبته، ثم يكابد شغل التَّزْويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شُغْل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكِبَرَ والهَرَم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادُها، ونوائب يطول إيرادُها، من صُداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغَمِّ الدَّين، ووجع السنّ، وألم الأذن. ويكابِد مِحَناً في المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلاّ يقاسي فيه شدّة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة المَلَك، وضَغْطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقرّ به القرار، إما في الجنة وإما في النار؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾، فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد. ودلّ هذا على أن له خالقاً دَبَّره، وقضى عليه بهذه الأحوال؛ فليمتثل أمره. وقال ابن زيد: الإنسان هنا آدم. وقوله: ﴿فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ أي في وسط السماء. وقال الكَلْبِيّ: إن هذا نزل في رجل من بني جُمَحَ؛ كان يقال له أبُو الأشدين، وكان يأخذ الأديم العُكاظِيّ فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالني عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه؛ وكان من أعداء النبيّ ﷺ، وفيه نزل ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ يعني: لقوّته. ورُوي عن ابن عباس. «فِي كَبَدٍ» أي شديداً، يعني شديد الخَلق؛ وكان من أشدّ رجال قريش. وكذلك رُكانة بن هاشم بن عبد المطلب، وكان مثلاً في البأس والشدّة. وقيل: ﴿فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ أي جريء القلب، غليظ الكَبِد، مع ضعف خِلقته، ومهانة مادّته. ابن عطاء: في ظلمة وجهل. الترمذِيّ: مُضِيعاً ما يَعْنِيه، مشتغِلاً بما لا يعنيه.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ أي أيظنّ ابن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ أي أنفقت. ﴿مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾ أي كثيراً مجتمعاً. ﴿أَيَحْسَبُ﴾

أي أيظنّ. ﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ﴾ أي أن لم يعاينه ﴿أَحَدٌ ۝٧﴾ بل علم الله عز وجل ذلك منه، فكان كاذباً في قوله: أهلكت ولم يكن أنفقه. وروى أبو هريرة قال: يوقف العبد، فيقال ماذا عملت في المال الذي رزقتك؟ فيقول: أنفقته وزكّيته. فيقال: كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سَخِيّ، فقد قيل ذلك. ثم يؤمر به إلى النار. وعن سعيد عن قتادة: إنك مسؤول عن مالِكَ من أينَ جمعت؟ وكيف أنفقت؟ وعن ابن عباس قال: كان أبو الأشدّين يقول: أنفقت في عداوة محمد مالاً كثيراً وهو في ذلك كاذب. وقال مقاتل[1]: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب فاستفتى النبيّ ﷺ، فأمره أن يُكفّر. فقال: لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات، منذ دخلت في دين محمد. وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق، فيكون طغياناً منه، أو أسفاً عليه، فيكون ندماً منه. وقرأ أبو جعفر «مالاً لُبَّداً» بتشديد الباء مفتوحة، على جمع لابد؛ مثل راكع وركّع، وساجد وسُجّد، وشاهد وشُهّد، ونحوه. وقرأ مجاهد وحُمَيد بضمّ الباء واللام مخففاً، جمع لُبود. الباقون بضمّ اللام وكسرها وفتح الباء مخففاً، جمع لِبْدَة ولبدة، وهو ما تلبد؛ يريد الكثرة. وقد مضى في سورة «الجن» القول فيه. وروي عن النبيّ ﷺ أنه كان يقرأ «أَيَحْسُب» بضم السين في الموضعين[2]. وقال الحسن: يقول أتلفت مالاً كثيراً، فمن يحاسبني به؛ دعني أَحْسُبه. ألم يعلم أن الله قادر على مُحاسبته، وأن الله عز وجل يرى صنيعه، ثم عَدّد عليه نعمه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ يبصر بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به. ﴿وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ يستُر بهما ثغره. والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه ونُحصِيَ عليه ما عمله. وقال أبو حازم:

[٦٣٣٦] قال النبيّ ﷺ: «إن الله تعالى قال: يا ابن آدم، إن نازعك لسانك فيما حرّمتُ عليك، فقد أعنْتُكَ عليه بطبقين، فأطبِق؛ وإن نازعك بصرك فيما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطْبِق؛ وإن نازعك فرجك إلى ما حرّمتُ عليك، فقد أعنتك عليه بطبقَين، فأطبق». والشَّفَة: أصلها شَفْهة، حذفت منها الهاء، وتصغيرها: شُفيهة، والجمع: شِفاهٌ. ويقال: شَفَهات وشَفَوات؛ والهاء أقيس، والواو أعمّ، تشبيهاً بالسنوات. وقال الأزهريّ: يقال: هذه شَفَة في الوصل وشفةٌ، بالتاء والهاء. وقال قتادة: نِعَم الله ظاهرة، يقرّرك بها حتى تشكر.

[٦٣٣٦] ضعيف جداً. ذكره الواحدي ٤/٤٩٠ تعليقاً، فهو لا شيء. وذكره السيوطي في الدر ٦/٥٩٤ فقال: أخرجه ابن عساكر عن مكحول مرسلاً اهـ ومراسيل مكحول واهية والأشبه كونه من الإسرائيليات.

---

(١) هذا معضل ومقاتل غير حجة.

(٢) وهي قراءة حفص وهي التي عليها الجمهور اليوم، وانظر الدر المنثور ٦/ ٥٩٤.

قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

يعني الطريقين: طريق الخير وطريق الشر. أي بيناهما له بما أرسلناه من الرسُل. والنجد: الطريق في ارتفاع. وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. وروى قتادة قال:

[٦٣٣٧] ذُكِر لنا أن النبيّ ﷺ كان يقول: «يا أيُّها الناسُ، إنَّما هما النَّجْدان: نجد الخير، ونجد الشر، فلِمَ تجعل نجد الشر أحب إليك من نجد الخير». ورُوي عن عكرمة قال: النَّجدان: الثديان. وهو قول سعيد بن المسيّب والضحاك، وروِي عن ابن عباس وعليّ رضي الله عنهما؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه. فالنجد: العُلُوّ، وجمعه نُجُود؛ ومنه سُمِّيَتْ «نجد»، لارتفاعها عن انخفاض تِهامة. فالنجدانِ: الطريقان العاليان. قال امرؤ القيس:

فـريقـان منهـمْ جـازعٌ بَطْـنَ نخلـةٍ ... وآخـرُ منهـم قـاطِـعٌ نجـدَ كَبْكَـبِ

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾.

أي فهلا أنفق ماله الذي أنفقه في عداوة محمد، هلا أنفقه لاقتحام العَقَبة فيأمن! والاقتحام: الرّمْيُ بالنفس في شيء من غير رَوِية؛ يقال منه: قَحَم في الأَمْر قُحوماً: أي رمى بنفسه فيه من غير روِية. وقَحَّم الفَرَس فارسَه تقحيماً على وجهه: إذا رماه. وتقحيم النفسِ في الشيء: إدخالها فيه من غير روِية. والقُحْمة (بالضم) المَهْلَكة، والسنة الشديدة. يقال: أصابت الأعراب القُحْمة: إذا أصابهم قحط، فدخلوا الريف. والقُحَم: صِعاب الطريق. وقال الفرّاء والزجاج: وذكر «لا» مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد «لا» مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلام آخر؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾ [القيامة: ٣١] ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [البقرة: ٦٢]. وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه؛ فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قائماً مقام التكرير؛ كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن. وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء؛ كقوله: لا نجا ولا سلِم. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾؟ قال سفيان بن عُيينة: كل شيء قال فيه «وما أدراك»؟ فإنه أَخْبَر به، وكل شيء قال فيه «وما يدريك»؟ فإنه لم يخبر به. وقال: معنى ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ أي فلم يقتحم العقبة؛ كقول زُهَير:

[٦٣٣٧] أخرجه الطبري ٣٧٣٠٣ عن قتادة هكذا مرسلاً، وكرره عن الحسن ٣٧٣٠٤ مرسلاً، وأخرجه ابن وهب كما في «تفسير ابن كثير» عن أنس مرفوعاً، وأعله بسنان بن سعد وأنه منكر الحديث ا هـ والأشبه كونه موقوفاً، وانظر تفسير ابن كثير ٤/٥٤٧ـ٥٤٨.

وكانَ طَوَى كَشْحاً[1] على مُسْتكِنَّةٍ فـلا هُـوَ أَبـداهـا ولـم يَتَقـدّمِ

أي فلم يبدها ولم يتقدّم. وكذا قال المبرّد وأبو عليّ «لا»: بمعنى لم. وذكره البخارِيّ عن مجاهد. أي فلم يقتحم العقبة في الدنيا، فلا يحتاج إلى التكرير. ثم فَسَّر العقبة وركوبها فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ وكذا وكذا؛ فبين وجوهاً من القُرَب المالية. وقال ابن زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام الاستفهام الذي معناه الإنكار؛ تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو هلا اقتحم العقبة. يقول: هلا أنفق ماله في فكّ الرقاب، وإطعام السَّغْبان[2]، ليجاوز به العقبة؛ فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوة محمد ﷺ. ثم قيل: اقتحام العقبة هاهنا ضرب مَثَل، أي هل تَحَمَّل عِظام الأمور في إنفاق ماله في طاعة ربه، والإيمان به. وهذا إنما يليق بقول من حمل ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ على الدعاء؛ أي فلا نجا ولا سلم من لم ينفق ماله في كذا وكذا. وقيل: شبه عِظم الذنوب وثِقلها وشدّتها بعقبة، فإذا أعتق رقبة وعمِل صالحاً، كان مثله كمثل من اقتحم العقبة، وهي الذنوب التي تضره وتؤذيه وتثقله. قال ابن عمر: هذه العقبة جبل في جهنم. وعن أبي رجاء قال: بلغنا أن العقبة مَصْعَدُها سبعة آلاف سنة، ومهبِطها سبعة آلاف سنة. وقال الحسن وقتادة: هي عقبة شديدة في النار دون الجِسر، فاقتحِمُوها بطاعة الله. وقال مجاهد والضحاك والكلبي: هي الصراط يُضْرب على جهنم كحدّ السيف، مسيرة ثلاثة آلاف سنة، سهلاً وصُعوداً وهُبوطاً. واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء. وقيل: اقتحامه عليه قدرُ ما يصلي صلاة المكتوبة. وروي عن أبي الدرداء أنه قال: إن وراءنا عقبة، أَنْجَى الناسِ منها أخفهم حِمْلاً. وقيل: النار نفسها هي العقبة. فروى أبو رجاء عن الحسن قال: بلغنا أنه ما من مسلم يُعْتق رقبة إلا كانت فداءه من النار. وعن عبد الله بن عمر قال: من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضواً منه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة:

[٦٣٣٨] عن رسول الله ﷺ، قال: «من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار، حتى فرجَه بفرجه». وفي الترمذي عن أبي أُمامة وغيره من أصحاب النبيّ ﷺ قال:

[٦٣٣٨] صحيح. أخرجه البخاري ٢٥١٧ و٦٧١٥ ومسلم ١٥٠٩ كلاهما من حديث أبي هريرة، واللفظ لمسلم، وتقدم.

---

(١) الكشح: الخاصرة.
(٢) أي الجائع.

[٦٣٣٩] «أيُّما امرىءٍ مُسْلِمٍ أعتقَ امْرأً مُسْلِماً، كان فَكَاكَهُ من النار، يَجْزِي كل عضو منه عضواً منه، وأيُّما امرأة مسلمة أعتقتْ امرأة مُسلمة، كانت فكاكَها من النار، يجزي كل عضو منها عضواً منها». قال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقيل: العقبة خلاصه من هول العَرْض. وقال قتادة وكعب: هي نار دون الجسر. وقال الحسن: هي والله عقبة شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان. وأنشد بعضهم:

إنـي بُلِيـتُ بـأربـعٍ يَـرْمينَنـي ... بـالنَّبْـل قـد نَصَبـوا علـيّ شِـراكـا

إبليـسُ والـدنيـا ونفسـي والهـوَى ... مـن أيـن أرجـو بينهـن فكـاكـا

يـا ربِّ سـاعـدنـي بعفـوٍ إننـي ... أصبحـت لا أرجـو لهـن سِـواكـا

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾.

فيه حذف؛ أي وما أدراك ما اقتحام العقبة. وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين؛ والخطاب للنبيّ ﷺ، ليعلمه اقتحام العقبة. قال القشيريّ: وحمل العقبة على عَقَبة جَهنم بعيد؛ إذ أحد في الدنيا لم يقتحم عقبة جهنم؛ إلا أن يحمل على أن المراد فهلاَّ صَيَّر نفسه بحيث يمكنه اقتحام عقبة جهنم غداً. واختار البخارِيّ قول مجاهد: إنه لم يقتحم العقبة في الدنيا. قال ابن العربيّ: «وإنما اختار ذلك لأجل أنه قال بعد ذلك في الآية الثانية: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾؟ ثم قال في الآية الثالثة: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾، وفي الآية الرابعة ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾، ثم قال في الآية الخامسة: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾، ثم قال في الآية السادسة: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾؛ فهذه الأعمال إنما تكون في الدنيا. المعنى: فلم يأت في الدنيا بما يُسَهِّل عليه سلوك العقبة في الآخرة».

قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ فكها: خلاصها من الأسر. وقيل: من الرّق. وفي الحديث: «وفك الرقبةِ أن تُعِين في ثَمَنها»[1] من حديث البرَاء، وقد تقدم في سورة «براءة». والفكّ: هو حلّ القيد؛ والرِّق قيد. وسمي المرقوق رَقبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته. وسُمِّي عنقها فَكًّا كفك الأسير من الأَسْر. قال حسان:

[٦٣٣٩] حسن. أخرجه الترمذي ١٥٤٧ بإسناد حسن وقال: حسن صحيح غريب اهـ وله شواهد كثيرة.

---

(١) مضىٰ في سورة براءة.

كَـمْ مِـن أسيـرٍ فكَكنـاه بـلا ثَمَـنٍ   وجَـزّ نـاصيـةٍ كنـا مَـوَاليهـا

وروى عُقبة بن عامر الجهنيّ أن رسول الله ﷺ قال:

[٦٣٤٠] «من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار». قال الماوردِيّ: ويحتمِل ثانياً أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه، باجتناب المعاصي، وفعل الطاعات؛ ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه بالصواب.

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ قال أصْبَغُ: الرقبة الكافرة ذات الثمن أفضل في العِتق من الرقبة المؤمنة القليلة الثمن؛ لقول النبيّ ﷺ وقد سُئل أيّ الرقاب أفضل؟ قال:

[٦٣٤١] «أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها». ابن العربيّ: «والمراد في هذا الحديث: من المسلمين؛ بدليل قوله عليه السلام: «مَنْ أَعْتَقَ امْرأً مسْلماً» و«مَنْ أَعتقَ رقبةً مُؤْمِنة»[1]. وما ذكره أصبغ وَهْلَة، وإنما نظر إلى تنقيص المال، والنظر إلى تجريد المعتق للعبادة، وتفريغه للتوحيد، أولى».

الثالثة: العِتق والصدقة من أفضل الأعمال. وعن أبي حنيفة: أن العتق أفضل من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقة أفضل. والآية أدل على قول أبي حنيفة؛ لتقديم العتق على الصدقة. وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة: أيضعه في ذي قرابة أو يعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل؛ لأن النبيّ ﷺ قال: «من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضواً من النار»[2].

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ أي مجَاعة. والسَّغَب: الجوع. والساغب: الجائع ـ وقرأ الحسن «أو إطعامٌ فِي يومٍ ذا مَسْغَبةٍ» بالألف في «ذا» ـ وأنشد أبو عبيدة:

[٦٣٤٠] صحيح. أخرجه الحاكم ٢/ ٢١١ والطيالسي ١٠٠٠ من حديث عقبة بن عامر وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، وتقدم له عدة شواهد.

[٦٣٤١] تقدم تخريجه.

---

(١) انظر الحديث المتقدم وما قبله.

(٢) تقدم آنفاً.

فلَوْ كنتُ جاراً يابن قَيْسٍ بن عاصمٍ لَمَا بِتَّ شَبْعاناً وجارُك ساغِبا

وإطعام الطعام فضيلة، وهو مع السَّغَب الذي هو الجوع أفضل. وقال النَّخَعِيّ في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ قال: في يوم عزيز فيه الطعام. ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦٣٤٢] «من موجِباتِ الرحمةِ إطعامُ المُسْلِم السَّغْبانَ». ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي قرابة. يقال: فلانٌ ذو قرابتي وذو مَقْرَبتي. يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة، كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد من يَكْفله. وأهل اللغة يقولون: سُمِّي يتيماً لضعفه. يقال: يَتُمَ الرجل يُتْماً: إذا ضعف. وذكروا أن اليَتيم في الناس من قِبل الأب، وفي البهائم من قِبل الأمهات. وقد مضى في سورة «البقرة» مُسْتوفًى، وقال بعض أهل اللغة: اليتيم الذي يموت أبواه. وقال قيس بن الملّوح:

إلَى الله أشكو فقدَ لَيْلَى كما شَكا إلَى الله فقدَ الوالِدَيْن يَتِيمُ

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي لا شيء له، حتى كأنه قد لصِق بالتّراب من الفقر، ليس له مَأْوًى إلا التراب. قال ابن عباس: هو المطروح على الطريق، الذي لا بيت له. مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لِباس ولا غيره. وقال قتادة: إنه ذو العيال. عكرمة: المديون. أبو سنان: ذُو الزَّمانَةِ. ابن جبير: الذي ليس له أحد. وروى عكرمة عن ابن عباس: ذو المَتْرَبَة البعيد التربة؛ يعني الغريب البعيد عن وطنه. وقال أبو حامد الخارَزَنْجِيّ: المَتْربة هنا: من التَّرِيب؛ وهي شدة الحال. يقال ترِب: إذا افتقر. قال الهُذَليّ:

وكُنَّا إذا ما الضيفُ حَلَّ بأرْضِنا سَفَكْنا دِماءَ البُدْن في تُرْبة الحالِ

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائيّ: «فَكَّ» بفتح الكاف، على الفعل الماضي. «رقبةً» نصباً لكونها مفعولاً «أو أَطْعَمَ» بفتح الهمزة ونصب الميم، من غير ألف، على الفعل الماضي أيضاً؛ لقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهذا أشكل بـ«فكَّ وأَطعمَ». وقرأ الباقون: «فَكُّ» رفعاً، على أنه مصدر فككت. «رقبةٍ» خفض بالإضافة. «أو إطعامٌ» بكسر الهمزة وألف ورفع الميم وتنوينها على المصدر أيضاً. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه

[٦٣٤٢] ضعيف جداً أخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٤ برقم ٣٩٣٥ من حديث جابر، وصححه، ووافقه الذهبي! مع أن مداره على طلحة بن عمرو المكي ذكره الذهبي في الميزان وقال: ضعفه يحيىٰ وغيره وقال أحمد والنسائي: متروك الحديث اهـ وقال الحافظ في التقريب: متروك اهـ فالخبر واهٍ بمرة، والوقف أشبه.

تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾؟ ثم أخبره فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٌ﴾. المعنى: اقتحام العقبة: فكّ رقبة أو إطعام. ومن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى؛ أي ولا فَكَّ رقبةً، ولا أطعمَ في يوم ذا مَسْغبة؛ فكيف يجاوز العَقَبة. وقرأ الحسن وأبو رَجاء: «ذا مسغبة» بالنصب على أنه مفعول «إطعام» أي يطعمون ذا مَسْغَبة و«يَتيماً» بدل منه. الباقون «ذِي مَسْغَبة» فهو صفة لـ«يوم». ويجوز أن يكون قراءة النصب صفة لموضع الجار والمجرور؛ لأن قوله: «في يوم» ظرف منصوب الموضع، فيكون وصفاً له على المعنى دون اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: أنه لا يقتحم العقبَة من فكَّ رقبة، أو أطعمَ في يوم ذا مَسْغَبة، حتى يكون من الذين آمنوا؛ أي صدّقوا، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله. فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]. وقالت عائشة:

[٦٣٤٣] يا رسول الله، إن ابن جُدْعَانَ كان في الجاهلية يصِل الرحِم، ويُطعم الطعام، ويَفُكُّ العاني، ويُعتق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال: «لا، إنه لم يقل يوماً ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يومَ الدِّين». وقيل: «ثُمَّ كانَ مِن الذينَ آمَنُوا» أي فعل هذه الأشياء وهو مؤمن، ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة؛ نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]. وقيل: المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى. وقيل: أتى بهذه القُرَب لوجه الله، ثم آمن بمحمد ﷺ. وقد قال حكيم بن حزام بعد ما أسلم:

[٦٣٤٤] يا رسول الله، إنا كنا نَتَحَنث بأعمالٍ في الجاهلية، فهل لنا منها شيء؟ فقال عليه السلام: «أسلمت على ما أسلفت من الخير». وقيل: إن «ثم» بمعنى الواو؛ أي

[٦٣٤٣] صحيح. أخرجه مسلم ٢١٤ وأحمد ٦/ ٩٣ واستدركه الحاكم ٢/ ٣٥٢ كلهم من حديث عائشة، وهذا الحديث يوهن قول من قال: إن أهل الفترة ناجون. وفي الباب أحاديث كثيرة تدل على أنهم سيعذبون، والله أعلم.

[٦٣٤٤] صحيح. أخرجه البخاري ١٤٣٦ ومسلم ١٢٣ من حديث حكيم بن حزام، وقد تقدم.

وكان هذا المعتِق الرقبة، والمطعم في المسغبة، من الذين آمنوا. ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً. ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله، وعن معاصيه؛ وعلى ما أصابهم من البلاء والمصائب. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ أي بالرَّحمة على الخلق؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رَحِموا اليتيم والمسكين. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ أي الذين يُؤْتَون كتبهم بأيمانهم؛ قاله محمد بن كعب القُرَظيّ وغيره. وقال يحيى بن سلام: لأنهم مَيامينُ على أنفسهم. ابن زيد: لأنهم أُخِذوا من شِقّ آدم الأيمن. وقيل: لأن منزلتهم عن اليمين؛ قاله مَيمون بن مِهْران. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي القرآن. ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾ أي يأخذون كتبهم بشمائلهم؛ قاله محمد بن كعب. يحيى بن سلام: لأنهم مَشائيم على أنفسهم. ابن زيد: لأنهم أُخِذوا من شِق آدم الأيسر. ميمون: لأن منزلتهم عن اليسار.

قلت: ويجمع هذه الأقوال أن يُقال: إن أصحاب الميمنة أصحابُ الجنة، وأصحاب المَشأَمة أصحابُ النار؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقعة: ٢٧ ـ ٢٨]، وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٢]. وما كان مثله. ومعنى ﴿مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي مطبَقة مُغْلَقة. قال:

تَحِنُّ إلى أجبال مكة ناقَتي ومِن دُونِها أبوابُ صنعاءَ مُؤْصَدَهْ

وقيل: مُبْهمة، لا يُدْرَى ما داخلُها. وأهل اللغة يقولون: أَوْصَدْتُ البابَ وآصَدْتُهُ؛ أي أغلقته. فمن قال أوصدت، فالاسم «الوِصاد»، ومن قال آصدته، فالاسم الإصاد. وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب والشَّيْزَريُّ عن الكسائيّ ﴿مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ بالهمز هنا، وفي «الهمزة»[1]. الباقون بلا همز. وهما لُغتان. وعن أبي بكر بن عياش قال: لنا إمام يهمز ﴿مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾، فأشتهي أن أسُدّ أذنيّ إذا سمعته.

---

(١) أي وفي سورة «الهمزة».

سورة الشمس

مكية باتفاق، وهي خَمْس عَشْرةَ آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾.

قال مجاهد: ﴿وَضُحَاهَا ۝١﴾ أي ضوؤها وإشراقها. وهو قَسَم ثان. وأضاف الضحى إلى الشمس، لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس. وقال قتادة: بهاؤها. السُّدّي: حرّها. وروى الضحاك عن ابن عباس: «وضحاها» قال: جعل فيها الضوء وجعلها حارة. وقال اليزيديّ: هو انبساطها. وقيل: ما ظهر بها من كل مخلوق؛ فيكون القسم بها وبمخلوقات الأرض كلها. حكاه الماورديّ. والضُّحَا: مؤنثة. يقال: ارتفعت الضُّحا، وهي فوق الضَّحْو. وقد تُذَكَّر. فمن أنّث ذهب إلى أنها جمع ضَحْوَة. ومن ذكّر ذهب إلى أنه اسم على فُعَل، نحو صُرَدٍ ونُغَرٍ[1]. وهو ظرف غير متمكن مثل سَحَر. تقول: لقِيتُه ضُحاً وضُحَا؛ إذا أردت به ضُحا يومِك لم تنوّنه. وقال الفرّاء: الضُّحا هو النهار؛ كقول قتادة. والمعروف عند العرب أن الضحا: إذا طلعت الشمس وبُعَيْد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضَّحاء بالمد. ومن قال: الضُّحا: النهار كله، فذلك لدوام نور الشمس. ومن قال: إنه نور الشمس أو حرها، فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس. وقد استدل من قال: إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه: ١١٩] أي لا يؤذيك الحرّ. وقال المبرد: أصل الضُّحَا من الضِّحّ، وهو نور الشمس، والألف مقلوبة من الحاء الثانية. تقول: ضَحْوَة وضَحَوَات، وضَحَوَاتٌ وضُحَا، فالواو من (ضَحْوَة) مقلوبة عن الحاء الثانية، والألف في (ضُحَا) مقلوبة عن الواو. وقال أبو الهيثم: الضِّح: نقيض الظِّل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصله الضُّحَا، فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء، فقلبوها ألفا.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾.

أي تَبعها: وذلك إذا سقطت رِيءَ الهلال. يقال: تَلَوْت فلانا: إذا تَبِعته. قال قتادة:

---

(١) الصرد: طائر فوق العصفور. والنفر: فرخ العصفور.

إنما ذلك ليلة الهلال، إذا سَقطت الشمس رِئ الهلال. وقال ابن زيد: إذا غَرَبت الشمس في النصف الأول من الشهر، تلاها القمر بالطلوع، وفي آخر الشهر يتلُوها بالغروب. الفراء: «تلاها»: أخذ منها؛ يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس. وقال قوم: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ حين استوى واستدار، فكان مِثلَها في الضياء والنور[1]؛ وقاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

أي كشفها. فقال قوم: جلَّى الظلمة؛ وإن لم يجر لها ذكر؛ كما تقول: أضحت باردة؛ تريد أضحت غَداتُنا باردة. وهذا قول الفرّاء والكلبيّ وغيرهما. وقال قوم: الضمير في «جَلاَّها» للشمس؛ والمعنى: أنه يبين بضوئه جِرْمها. ومنه قول قيس بن الخَطِيم:

تَجَلَّت لنا كالشمسِ تحتَ غَمامةٍ   بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجِبِ

وقيل: جَلَّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر، لاستتاره ليلاً وانتشاره نهاراً. وقيل: جَلَّى الدنيا. وقيل: جَلَّى الأرض؛ وإن لم يجر لها ذكر؛ ومثله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢﴾ [صۤ: ٣٢] على ما تقدّم آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾.

أي يغشى الشمس، فَيذْهَب بضوئها عند سقوطها؛ قاله مجاهد وغيره. وقيل: يغشى الدنيا بالظُّلَم، فتُظلم الآفاق. فالكناية ترجع إلى غير مذكور.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

أي وبنيانها. فما مصدرية؛ كما قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ [يۤس: ٢٧] أي بغفران ربي؛ قاله قتادة، واختاره المبرد. وقيل: المعنى ومَن بناها؛ قاله الحسن ومجاهد؛ وهو اختيار الطبرِيّ. أي ومن خلقها ورفعها، وهو الله تعالى. وحُكِي عن أهل الحجاز: سُبحانَ ما سَبَّحَتْ له؛ أي سبحان مَنْ سَبَّحت له.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

أي وطحوها. وقيل: ومَنْ طحاها؛ على ما ذكرناه آنفاً. أي بسطها؛ كذا قال عامة المفسرين؛ مثل دحاها. قال الحسن ومجاهد وغيرهما: طحاها ودحاها: واحد؛ أي بسطها من كل جانب. والطَّحْوُ: البسط؛ طَحا يطحُو طحْوا، وطَحَى يَطْحِي طَحْياً،

---

(١) القمر غير مضيء، وإنما يعكس ضوء الشمس.

وطَحَيت: اضطجعت؛ عن أبي عمرو. وعن ابن عباس: طحاها: قَسَمها. وقيل: خلقها؛ قال الشاعر:

وما تَـدْرِي جَـذِيمـة مـن طَحَـاهـا ... ولا مَـنْ سـاكِـنُ العـرشِ الـرَّفِيـعِ

الماورديّ: ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز؛ لأنه حياة لما خُلِق عليها. ويقال في بعض أيمان العرب: لا، والقمر الطَّاحِي؛ أي المُشْرِف المشرق المرتفع. قال أبو عمرو: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض. يقال: ما أدري أين طَحَا! ويقال: طحا به قلبه: إذا ذهب به في كل شيء. قال علقمة:

طَحَا بكَ قَلْبٌ في الحِسانِ طَروبُ ... بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

قيل: المعنى وتسويتها. «فما»: بمعنى المصدر. وقيل: المعنى ومن سَوّاها، وهو الله عز وجل. وفي النفس قولان: أحدهما: آدم. الثاني: كل نفس منفوسة. وسوّى: بمعنى هيأ. وقال مجاهد: سوّاها: سَوَّى خَلْقها وعَدَّل. هذه الأسماء كلها مجرورة على القَسَم. أقسم جل ثناؤه بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ أي عَرَّفها؛ كذا رَوَى ابن أبي نَجِيح عن مجاهد. أي عرفها طريق الفجور والتقوى؛ وقاله ابن عباس. وعن مجاهد أيضاً: عَرَّفها الطاعة والمعصية. وعن محمد بن كعب قال: إذا أراد الله عز وجل بعبده خيراً، ألهمه الخيرَ فعمِل به، وإذا أراد به السوء، ألهمه الشر فعمِل به. وقال الفَراء: «فألهمها» قال: عَرّفها طريق الخير وطريق الشر؛ كما قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: أَلْهَمَ المؤمن المتقي تقواه، وألهم الفاجر فجوره. وعن سعيد عن قتادة قال: بَيَّن لها فجورها وتقواها. والمعنى متقارب. ورُوِي عن أبي هريرة قال:

[٦٣٤٥] قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ قال: «اللَّهُمَّ آتِ نَفسي

[٦٣٤٥] أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» ٣١٩ من حديث أبي هريرة، وزاد السيوطي في الدر ٦/ ٦٠٠ نسبته لابن أبي حاتم، وابن مردويه وإسناده ضعيف لضعف عبد الله بن عبد الله بن الأموي لكن يشهد له ما بعده، وللمرفوع منه دون تلاوة الآية شاهد صحيح من حديث زيد بن أرقم أخرجه مسلم وغيره راجع الدر ٦/ ٦٠٠.

تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكّاها، أنت وليُّها ومولاها». ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس:

[٦٣٤٦] أن النبيّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ رفع صوته بها، وقال: «اللهم آتِ نفسِي تقواها، أنت ولِيها ومولاها، وأنت خيرُ من زَكّاها».

وفي صحيح مسلم:

[٦٣٤٧] عن أبي الأسود الدُّؤَلِيّ قال: قال لي عِمران بن حصين: أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم، ويَكْدَحون فيه، أشيء قُضِي ومَضَى عليهم من قَدَرٍ سبق، أو فيما يَسْتقبلون مما أتاهم به نبِيُّهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قُضِي عليهم، ومَضى عليهم. قال فقال: أفلا يكون ظُلْماً؟ قال: ففزِعت من ذلك فَزَعاً شديداً، وقلت: كل شيء خَلْقُ الله ومِلْك يده، فلا يُسْأَل عما يفعلُ وَهُمْ يُسْأَلون. فقال لي: يرحمك الله! إني لم أرِد بما سألتك إلا لأحزِر عقلَك، إنّ رجلين من مُزَينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعملُ الناس اليوم ويَكْدَحون فيه: أشيء قُضِيَ عليهم ومضى فيهمْ من قَدَرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبِيُّهم. وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا بل شيء قُضِي عليهم ومضى فيهم. وتصديق ذلك في كتاب الله عَزَّ وجل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾». والفجور والتقوى: مصدران في موضع المفعول به.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ هذا جواب القسم، بمعنى: لقد أفلح. قال الزجاج: اللام حذفت، لأن الكلام طال، فصار طوله عِوضاً منها. وقيل: الجواب محذوف؛ أي والشمس وكذا وكذا لَتُبْعثن. الزمخشريّ: تقديره لَيُدَمْدِمنّ الله عليهم؛ أي على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دَمْدَم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً. وأما «قد أفلح من زكّاها» فكلام تابع لأوّله؛ لقوله: «فألهمها فجورها وتقواها»، على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء. وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف؛ والمعنى: قد أفلح من زَكّاها، وقد خاب من دَسّاها، والشمس وضحاها.

[٦٣٤٦] جويبر بن سعيد متروك، والضحاك لم يلق ابن عباس، وأخرجه الطبراني ١١١٩١ من طريق ابن لهيعة عن ابن عباس مرفوعاً، وحسن الهيثمي في المجمع ١٣٨/٧ هذا الإسناد، ولعله حسنه لشواهده، وإلا ففيه ابن لهيعة واهٍ، وليس الراوي عنه أحد العبادلة.

[٦٣٤٧] صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٠ وأحمد ٤٣٨/٤ واللالكائي في «أصول الاعتقاد» ٩٥١ و ا هـ٩٥ و ٩٥٣ وابن أبي عاصم ١٧٤ وابن عبد البر في «التمهيد» ١١/٦ ـ ١٢ والبغوي ٤٣٨/٤ وابن حبان ٦١٨٢ من حديث عمران بن حصين.

﴿أَفْلَحَ﴾ فاز. ﴿مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ أي من زكى الله نفسه بالطاعة. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ أي خسِرت نفسٌ دَسَّها الله عز وجل بالمعصية. وقال ابن عباس: خابت نفس أضلها وأغواها. وقيل: أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دسّ نفسه في المعاصي؛ قاله قتادة وغيره. وأصل الزكاة: النموّ والزيادة، ومنه زكا الزرع: إذا كثر رَيْعُه، ومنه تزكية القاضي للشاهد؛ لأنه يرفعه بالتعديل، وذكر الجميل. وقد تقدم هذا المعنى في أوّل سورة «البقرة» مستوفًى. فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البر، شَهَر نفسه ورفعها. وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا وارتفاعَ الأرض، ليشتهر مكانُها للمُعْتفِين[1]، وتوقد النار في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأَوْلاج والأطراف والأهضام[2]، ليخفى مكانها عن الطالبين. فأولئك عَلَّوا أنفسهم وزَكُّوها، وهؤلاء أخفَوا أنفسهم ودَسُّوها. وكذا الفاجر أبدا خَفِيّ المكان، زَمِرُ[3] المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس بركوب المعاصي. وقيل: دساها: أغواها. قال:

وأنتَ الذي دَسَّيْتَ عَمْرا فأصبحت ... حلائلُه منه أرامِلَ ضُيَّعا[4]

قال أهل اللغة: والأصل: دسَّسهَا، من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فأبدلت سينه ياء؛ كما يقال: قَصَّيْت أظفاري؛ وأصله قَصَّصْت أظفاري. ومثله قولهم في تَقَضَّضَ: تقضى. وقال ابن الأعرابي: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾أي دس نفسه[5] في جملة الصالحين وليس منهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ أي بطغيانها، وهو خروجها عن الحدّ في العصيان؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. وعن ابن عباس «بِطغواها» أي بعذابها الذي وُعِدَتْ به. قال: وكان اسم العذاب الذي جاءها الطَّغْوى؛ لأنه طَغَى عليهم. وقال محمد بن كعب: «بِطغواها» بأجمعها. وقيل: هو مصدر، وخرج على هذا المخرج، لأنه أَشْكَلُ برؤوس الآي. وقيل: الأصل بطَغْياها، إلا أن «فَعْلَى» إذا كانت من ذوات الياء

(١) المعتفي: كل طالب فضل أو رزق.
(٢) الأولاج: غار أو كهف. والأهضام: أسافل الأودية.
(٣) الزمر: القليل.
(٤) دسَّيْت: أغويت وأفسدت. وعمرو: قبيلة.
(٥) في الأصل «نفس».

أبدلت في الاسم واواً، لِيُفصَل بين الاسم والوصف. وقراءة العامة بفتح الطاء. وقرأ الحسن والجَحْدرِي وحماد بن سلمة (بضم الطاء) على أنه مصدر؛ كالرُّجْعَى والحُسْنى وشبههما في المصادر. وقيل: هما لغتان. ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ أي نهض. ﴿أَشۡقَىٰهَا ۝١٢﴾ لعقر الناقة. واسمه قُدَار بن سالِف. وقد مضى في «الأعراف» بيان هذا، وهل كان واحداً أو جماعة. وفي البخارِيّ عن عبد الله بن زَمَعة:

[٦٣٤٨] أنه سمع النبيّ ﷺ يخطُب، وذكر الناقة والذي عَقَرها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢﴾ انبعث لها رجل عزيز عارِم، منيع في رهطه، مثل أبي زَمَعة» وذكر الحديث. خرّجه مسلم أيضاً. وروى الضحاك عن عليّ:

[٦٣٤٩] أن النبيّ ﷺ قال له: «أتدري من أشقى الأوّلين» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «عاقر الناقة ـ قال ـ أتدري من أشقى الآخرين» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «قاتلك». ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يعني صالحا. ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ «ناقةَ» منصوب على التحذير؛ كقولك: الأسد الأسد، والصبِيَّ الصبِيَّ، والحِذار الحِذارَ. أي احذروا ناقة الله؛ أي عَقْرها. وقيل: ذروا ناقة الله، كما قال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٧٣﴾ [الأعراف: ٧٣]. ﴿وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣﴾ أي ذروها وشِربَها. وقد مضى في سورة «الشعراء» بيانه والحمد لله. وأيضاً في سورة ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]. فإنهم لما اقترحوا الناقة، وأخرجها لهم من الصخرة، جعل لهم شِربَ يوم من بئرهم، ولها شِربُ يوم مكان ذلك، فشقَّ ذلك عليهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوا صالحاً عليه السلام في قوله لهم: إنكُمْ تُعَذَّبونَ إنْ عَقَرْتُموها. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي عقرها الأشقى. وأضيف إلى الكل، لأنهم رَضُوا بفعله. وقال قتادة: ذُكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم. وقال الفرّاء: عقرها اثنان: والعرب تقول: هذان أفضلُ الناس، وهذان خير الناس، وهذه المرأة أشقى القوم؛ فلهذا لم يقل: أَشْقَيَاها.

قوله تعالى: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ أي أهلكهم وأطبق عليهم العذابُ

[٦٣٤٨] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٤٢ من حديث عبد الله بن زمعة وتقدم في سورة الأعراف.

[٦٣٤٩] الضحاك لم يدرك علياً، لكن أخرجه النسائي في الخصائص ١٤٩ وأحمد ٤/٢٦٣ والطحاوي في المشكل ١/٣٥١ من حديث عمار بن ياسر، وإسناده ضعيف.
ـ وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠٣٧ من حديث جابر وفيه ناصح أبو عبد الله متروك كما في المجمع ٩/١٣٦، وله شواهد واهية.

بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعَقْر. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: دَمْدم عليهم قال: دَمَّرَ عَلَيْهم ربُّهم بذنبهم؛ أي بجُرمهم. وقال الفرّاء: دَمْدم أي أرجف. وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده. ويقال: دَمَّمْت على الشيء: أي أطبقت عليه، ودمم عليه القبرَ: أطبقه. وناقة مدمومة: أَلْبَسها الشحم. فإذا كرّرت الإطباق قلت: دَمْدَمْت. والدمدمة: إهلاك باستئصال؛ قاله المؤرِّج. وفي الصحاح: ودَمْدَمْت الشيء: إذا ألزقته بالأرض وطَحْطَحْتُه. ودمدم الله عليهم: أي أهلكهم. القُشَيرِي: وقيل دَمْدَمت على الميت الترابَ: أي سَوَّيتُ عليه. فقوله: «فدمدم عليهم» أي أهلكهم، فجعلهم تحت التراب. ﴿فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾ أي سَوّى عليهم الأرض. وعلى الأول «فسوّاها» أي فسوّى الدَّمدمة والإهلاك عليهم. وذلك أن الصيحة أهلكتهم، فأتت على صغيرهم وكبيرهم. وقال ابن الأنباريّ: دمدمَ أي غضِب. والدمدمة: الكلام الذي يزعج الرجل. وقال بعض اللغويين: الدمدمة: الإدامة؛ تقول العرب: ناقة مدمدَمة أي سمينة. وقيل: «فسوّاها» أي فسوّى الأمة في إنزال العذاب بهم، صغيرهم وكبيرهم، وضِيعهم وشريفهم، ذكرهم وأنثاهم، وقرأ ابن الزُّبير «فَدهْدَم» وهما، لغتان؛ كما يقال؛ امتُقِع لونُه وانْتُقِع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾.

أي فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تَبِعة الدَّمدمة من أحد؛ قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد. والهاء في «عُقْباها» ترجع إلى الفَعْلة؛ كقوله: «من اغتسل يوم الجمعة فبِها ونِعمتْ»[1] أي بالفعلة والخصلة. قال السديّ والضحاك والكلبيّ: ترجع إلى العاقر؛ أي لم يخف الذي عقرها عُقْبى ما صنع. وقاله ابن عباس أيضاً. وفي الكلام تقديم وتأخير، مجازه: إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عُقْباها. وقيل: لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، ونجاه الله تعالى حين أهلكهم. وقرأ نافع وابن عامر «فلا» بالفاء، وهو الأجود؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول؛ أي فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم. والباقون بالواو، وهي أشبه بالمعنى الثاني؛ أي ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع. ورَوَى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالا: أخرج إلينا مالك مصحفاً لجدّه، وزعم أنه كتبه في أيام عُثمان بن عفان حين كتب المصاحف، وفيه: «ولا يخاف» بالواو. وكذا هي في مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، اتباعاً لمصحفهم.

---

(١) مضىٰ تخريجه، وهو صحيح.

سورة والليل

مَكِّيَّة. وقيل: مَدَنِيَّة. وهي إحدى وعشرون آية بإجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ أي يُغَطِّي. ولم يذكر معه مفعولاً للعلم به. وقيل: يغشى النهار. وقيل: الأرض. وقيل: الخلائق. وقيل: يغشى كل شيء بظلمته. وروى سعيد عن قتادة قال: أولُ ما خلق الله النور والظلمة، ثم مَيَّز بينهما، فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلِماً، والنور نهاراً مضيئاً مبصِراً. ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ أي إذا انكشف ووضح وظهر، وبان بضوئه عن ظلمة الليل. ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ قال الحسن: معناه والذي خلق الذكر والأنثى؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل. وقيل: معناه وخلق الذكر والأنثى؛ فـ(ما): مصدرية على ما تقدم. وأهل مكة يقولون للرعد: سُبْحان ما سَبَّحتَ لَه! فـ(ما) على هذا بمعنى (مَنْ)، وهو قول أبي عبيدة وغيره. وقد تقدّم. وقيل: المعنى وما خلق من الذكر والأنثى؛ فتكون «مِنْ» مضمرة، ويكون القسم منه بأهل طاعته، من أنبيائه وأوليائه، ويكون قسمه بهم تكرمة لهم وتشريفاً. وقال أبو عبيدة: «وما خلق» أي مَنْ خلق. وكذا قوله: «والسماءِ وما بناها»، «ونفس وما سوّاها»، «ما» في هذه المواضع بمعنى منْ. ورُوي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ «والنهار إذا تجلى. والذكر والأنثى» ويسقط «وما خلق». وفي صحيح مسلم عن علقمة قال:

[٦٣٥٠] قدمنا الشام، فأتانا أبو الدرداء، فقال: فيكم أحد يقرأ عليّ قراءة عبد الله؟ فقلت: نعم، أنا. قال: فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾؟ قال: سمعته يقرأ «والليلِ إذا يَغْشَى. والذكر والأنثى» قال: وَأنا والله هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ «وما خلق» فلا أتابعهم. قال أبو بكر

[٦٣٥٠] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٤٣ ومسلم ٨٢٤ عن علقمة عن أبي الدرداء به.

الأنباريّ: وحدثنا محمد بن يحيى المروزيّ قال حدثنا محمد قال حدّثنا أبو أحمد الزبيريّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال:

[٦٣٥١] أقرأني رسول الله ﷺ «إني أنا الرازق ذو القوّة المتِين»؛ قال أبو بكر: كل من هذين الحديثين مردود؛ بخلاف الإجماع له، وأن حمزة وعاصماً يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعة المسلمين، والبناء على سندين يوافقان الإجماع أولى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماع والأمة، وما يبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه، أخذ برواية الجماعة، وأبطل نقل الواحد؛ لما يجوز عليه من النسيان والإغفال. ولو صح الحديث عن أبي الدرداء وكان إسناده مقبولاً معروفاً، ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه، لكان الحكم العمل بما روته الجماعة، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد، الذي يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة، وجميع أهل الملة.

وفي المراد بالذكر والأنثى قولان: أحدهما: آدم وحوّاء؛ قاله ابن عباس والحسن والكلبيّ. الثاني: يعني جميع الذكور والإناث من بني آدم والبهائم؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم. وقيل: كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته. ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ هذا جواب القسم. والمعنى: إن عملكم لمختلف. وقال عكرمة وسائر المفسرين: السعي: العمل؛ فساعٍ في فَكاك نفسه، وساعٍ في عَطَبها؛ يدل عليه قوله عليه السلام:

[٦٣٥٢] «الناس غاديان: فمبتاع نفسه فمعتِقها، وبائع نفسه فموبِقها». و«شتىٰ»: واحده شتيت؛ مثل مريض ومرضى. وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه. أي إنّ عملكم لمتباعد بعضه من بعض؛ لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى. أي فمنكم مؤمن وبر، وكافر وفاجر، ومطيع وعاصٍ. وقيل: «لشتى» أي لمختلف الجزاء؛ فمنكم مثاب بالجنة، ومعاقب بالنار. وقيل: أي لمختلف الأخلاق؛ فمنكم راحم وقاس، وحليم وطائش، وجواد وبخيل؛ وشبه ذلك.

[٦٣٥١] إسناده حسن رجاله ثقات معروفون، إلا أنه شاذ يخالف ما عليه الجمهور، والرسم العثماني، والذي هو مجمع عليه. ولابن مسعود قراءات شاذة لكثير من الآيات تعرض بسببها لمحنة أيام جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنهما، والله تعالىٰ أعلم بالصواب.

[٦٣٥٢] هذا السياق للثعلبي كما نسبه إليه بعضهم وهو عجز حديث صحيح أخرجه مسلم وغيره من حديث أبي مالك الأشعري، وعجزه «. . . كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها» وقد تقدم تخريجه، وصدره «الطهور شطر الإيمان. . .».

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) ﴾ قال ابن مسعود: يعني أبا بكر رضي الله عنه؛ وقاله عامة المفسرين. فروِي عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يُعْتق على الإسلام عجائز ونساء، قال: فقال له أبوه قحافة: أي بني! لو أنك أعتقت رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون معك؟ فقال: يا أبت إنما أريد ما أريد. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ أي بذل. ﴿ وَاتَّقَىٰ (٥) ﴾ أي محارم الله التي نَهَى عنها. ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) ﴾ أي بالخَلَف من الله تعالى على عطائه. ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال:

[٦٣٥٣] قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ومَلَكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تَلَفاً». وروي من حديث أبي الدرداء:

[٦٣٥٤] أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم غَرَبَت شمسه إلا بُعِث بجنبتها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثَّقَلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأَعطِ ممسِكاً تلفاً» فأنزل الله تعالى في ذلك في القرآن ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾... الآيات. وقال أهل التفسير: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ المُعْسِرين. وقال قتادة: أعطى حق الله تعالى الذي عليه. وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه. ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) ﴾ أي بلا إله إلا الله؛ قاله الضحاك والسلمي وابن عباس أيضاً. وقال مجاهد: بالجنة؛ دليله قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]... الآية. وقال قتادة: بموعود الله الذي وعده أن يثيبه. زيد بن أسلم: بالصلاة والزكاة والصوم. الحسن: بالخَلَف من عطائه؛ وهو اختيار الطبريّ. وتقدم عن ابن عباس، وكله متقارب المعنى إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) ﴾ أي نرشده لأسباب الخير والصلاح، حتى يسهل عليه فعلها. وقال زيد بن أسلم: «لليسرى» للجنة. وفي الصحيحين والترمذي عن عليّ رضي الله عنه قال:

[٦٣٥٣] تقدم تخريجه.

[٦٣٥٤] تقدم تخريجه.

[٦٣٥٥] كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي ﷺ، فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكُتُ به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: «ما مِن نفسٍ منفوسةٍ إلا قد كتِب مدخلها» فقال القوم: يا رسول الله، أفلا نتكِل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء. قال: «بل اعملوا فكل ميسر؛ أما من كان من أهل السعادة فإنه يُيَسَّر لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء ـ ثم قرأ ـ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾» لفظ الترمذيّ. وقال فيه: حديث حسن صحيح.

[٦٣٥٦] وسأل غلامان شابان رسول الله ﷺ فقالا: العمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم في شيء يستأنف؟ فقال عليه السلام: «بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير» قالا: ففيم العمل؟ قال: «اعملوا، فكل ميسر لعمل الذي خلق له» قالا: فالآن نجِد ونعمل.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي ضنّ بما عنده، فلم يبذل خيراً. وقد تقدّم بيانه وثمرته في الدنيا في سورة «آل عمران». وفي الآخرة مآله النار، كما في هذه الآية. روى الضحاك عن ابن عباس ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ قال: سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله. وعنه عن ابن عباس قال: نزلت في أمية بن خلف، وروى عكرمة عن ابن عباس: «وأما من بخِل واستغنى» يقول: بخِل بمالِه، واستغنى عن ربه. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ أي بالخلف. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد: «وكذب بِالحسنى» قال: بالجنة. وبإسناد عنه آخر قال: «بالحسنى» أي بلا إله إلا الله. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ أي نسهل طريقه. ﴿لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ أي للشر. وعن ابن مسعود: للنار. وقيل: أي فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها. وقد تقدّم:

[٦٣٥٧] أن الملك ينادي صباحاً ومساءً: «اللهم أعطِ منفِقاً خلفاً، وأعط ممسِكاً تلفاً». رواه أبو الدرداء.

مسألة: قال العلماء: ثبت بهذه الآية وبقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾

[٦٣٥٥] متفق عليه وقد تقدم وهذا لفظ الترمذي.

[٦٣٥٦] أخرجه الطبري ٣٧٤٧٩ من حديث بشير بن كعب العدوي وكرره بنحوه من حديث جابر برقم ٣٧٤٠٧٨ و ٣٧٤٧٥ عن أبي عبد الرحمن السلمي مرسلاً، وفي الباب أحاديث كثيرة.

[٦٣٥٧] تقدم تخريجه.

[البقرة: ٣]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [البقرة: ٢٧٤] إلى غير ذلك من الآيات ـ أن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أرذلها. وليس الجواد الذي يعطي في غير موضع العطاء، ولا البخيل الذي يمنع في موضع المنع، لكن الجواد الذي يعطي في موضع العطاء، والبخيل الذي يمنع في موضع العطاء، فكل من استفاد بما يعطي أجراً وحمداً فهو الجواد. وكل من استحق بالمنع ذماً أو عقاباً فهو البخيل. ومن لم يستفد بالعطاء أجراً ولا حمداً، وإنما استوجب به ذماً فليس بجواد، وإنما هو مسرف مذموم، وهو من المبذِّرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين، وأوجب الحجْر عليهم. ومن لم يستوجب بالمنع عقاباً ولا ذماً، واستوجب به حمداً، فهو من أهل الرشد، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم، بحسن تدبيرهم وسداد رأيهم.

الرابعة: قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: «فسنيسره للعسرى»؟ وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [آل عمران: ٢١]، والبِشارة في الأصل على المفرح والسارّ، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما. وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعاً. قال الفراء: وقوله تعالى: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ ﴾: سنهيئه. والعرب تقول: قد يَسَّرَتِ الغنم: إذا ولدت أو تهيأت للولادة. قال[1]:

هما سيدانا يزعمان وإنما ... يَسُودانِنا أن يَسَّرتْ غَنماهما

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ أي مات. يقال: رَدِيَ الرجُل يَرْدَى رَدًى: إذا هلك. قال:

صرفت الهوى عنهنّ من خشية الردى

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: «إذا تردى»: سقط في جهنم؛ ومنه «المتردّية». ويقال: رَدِي في البئر وتردى: إذا سقط في بئر، أو تهوّر من جبل. يقال: ما أدري أين رَدِيَ؟ أي أين ذهب. و«ما»: يحتمل أن تكون جحداً؛ أي ولا يغني عنه ماله شيئاً؛ ويحتمل أن تكون استفهاماً معناه التوبيخ؛ أي أيّ شيء يغني عنه إذا هلك ووقع في جهنم! ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ أي إن علينا أن نُبيِّن طريق الهدى من طريق الضلالة.

---

(١) هو أبو أسيدة الدبيري.

فالهدى: بمعنى بيان الأحكام، قاله الزجاج: أي على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته؛ قاله قتادة. وقال الفرّاء: من سلك الهدى فعلى الله سبيله؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد. وقيل: معناه إن علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال؛ كقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ [آل عمران: ٢٦]، و﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [يس: ٨٣]. وكما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وهي تقي البرد؛ عن الفرّاء أيضاً. وقيل: أي إن علينا ثواب هداه الذي هديناه. ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣﴾ و«للأخرة»: الجنة. و«الأولى» الدنيا. وكذا روىٰ عطاء عن ابن عباس. أي الدنيا والآخرة لله تعالى. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النساء: ١٣٤] فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق.

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ﴾ أي حذرتكم وخوّفتكم. ﴿نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ أي تلَهَّب وتتوقد. وأصله تتلظى. وهي قراءة عُبيد بن عُمير، ويحيى بن يعمر، وطلحة بن مصرف. ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ﴾ أي لا يجد صَلاَها وهو حرها. ﴿إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾ أي الشقي. ﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ﴾ نبي الله محمداً ﷺ. ﴿وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ أي أعرض عن الإيمان. وروى مكحول عن أبي هريرة قال: كل يدخل الجنة إلا من أباها. قال: يا أبا هريرة، ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ قال: الذي كَذَّب وتَوَلَّى. وقال مالك: صلَّى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب، فقرأ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ فلما بلغ ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ وقع عليه البكاء، فلم يقدر يتعدّاها من البكاء، فتركها وقرأ سورة أخرى. وقال الفرّاء: «إلا الأشقى» إلا من كان شقياً في علم الله جل ثناؤه. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: «لا يصلاها إلا الأشقَى» أمية بن خلف ونظراؤه الذين كذبوا محمداً ﷺ. وقال قتادة: كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله. وقال الفرّاء: لم يكن كذب بردّ ظاهر، ولكنه قصَّر عما أُمِر به من الطاعة؛ فجُعِل تكذيباً؛ كما تقول: لقِي فلان العدوّ فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. قال: وسمعت أبا ثروان يقول: إن بني نُمَيْر ليس لجدّهم مكذوبة. يقول: إذا لَقُوا صدقوا القتال، ولم يرجعوا. وكذلك قوله جل ثناؤه: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢﴾ [الواقعة: ٢] يقول؛ هي حق. وسمعت سلم بن الحسن يقول: سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء[1] بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛

(١) فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، سموا مرجئة، لأنهم يعتقدون أن الله أرجأ =

لقوله جل ثناؤه: ﴿لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ وليس الأمر كما ظنوا. هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولّى. ولأهل النار منازل؛ فمنها أن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار؛ والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به. وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلو كان كل من لم يشرك لم يعذَّب، لم يكن في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فائدة، وكان ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ كلاماً لا معنى له.

الزمخشريّ: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصَّلى، كأن النار لم تخلق إلا له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصاً بالجنة، كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف. وأبو بكر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي يكون بعيداً منها. ﴿ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ أي المتقي الخائف. قال ابن عباس: هو أبو بكر رضي الله عنه، يزحزح عن دخول النار. ثم وصف الأتقى فقال ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً، ولا يطلب بذلك رياء ولا سمعة، بل يتصدق به مبتغياً به وجه الله تعالى. وقال بعض أهل المعاني: أراد بقوله «الأتقى» و«الأشقى» أي التقيّ والشقيّ؛ كقول طرفة:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحدِ

أي واحد ووحيد؛ وتوضع (أَفْعَل) موضع فعيل، نحو قولهم: الله أكبر بمعنى كبير، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] بمعنى هين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ أي ليس يتصدق ليجازى على نعمة، إنما يبتغي وجه ربه الأعلى، أي المتعالي ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي بالجزاء. فروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال:

[٦٣٥٨] عَذَّب المشركون بلالاً، وبلال يقول أَحَد أَحَد؛ فمرّ به النبيّ ﷺ فقال:

[٦٣٥٨] ذكره الواحدي ٨٥٧ عن عطاء عن ابن عباس بدون إسناد. وأخرج الطبري ٣٧٤٩٠ عن عامر بن=

= تعذيب أهل المعاصي.

«أحد ـ يعني الله تعالى ـ ينجيك» ثم قال لأبي بكر: «يا أبا بكر إنّ بلالاً يعذب في الله» فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله ﷺ، فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب، ومضى به إلى أمية بن خلف، فقال له: أتبيعني بلالاً؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه. فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا ليدٍ كانت له عنده؛ فنزلت ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ﴾ أي عند أبي بكر ﴿مِن نِّعْمَةٍ﴾، أي من يدٍ ومِنَّة، ﴿تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ بل ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ بما فعل ﴿وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾. وقيل: اشترى أبو بكر من أمية وأبيّ بن خلف بلالاً، ببردة وعشر أواق، فأعتقه لله، فنزلت: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل: ٤]. وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر: أتبيعُنِيه؟ فقال: نعم، أبيعه بنِسطاس، وكان نِسْطاس عبداً لأبي بكر، صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوارٍ ومواشٍ، وكان مشركاً، فحمله أبو بكر على الإسلام، على أن يكون له مالُه، فأبى، فباعه أبو بكر به. فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده؛ فنزلت: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ أي لكن ابتغاء؛ فهو استثناء منقطع؛ فلذلك نصبت. كقولك: ما في الدار أحد إلا حماراً. ويجوز الرفع. وقرأ يحيى بن وثاب «إلا ابتغاءُ وجهِ ربه» بالرفع، على لغة من يقول: يجوز الرفع في المستثنى. وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي خازم:

أضحتْ خَلاءً قِفاراً لا أنيسَ بها ... إلا الجآذرَ[1] والظلمانَ تختلفُ

وقول القائل:

وبلدةٍ ليسَ بها أنيسُ ... إلا اليعافيرُ[2] وإلا العِيسُ

وفي التنزيل: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]وقد تقدم. ﴿وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي مَرْضاته وما يقرّب منه. و«الأعلى» من نعت الرب الذي استحق صفات العلو. ويجوز أن يكون «ابتغاء وجهِ ربه» مفعولاً له على المعنى؛ لأن معنى الكلام: لا

= عبد الله عن أبيه قال: نزلت في أبي بكر. وكرره ٣٧٤٩١ عن قتادة. وورد عن عامر بن عبد الله عن بعض أهله أخرجه الواحدي ٨٥٥ والحاكم ٢/٥٢٥ وصححه ووافقه الذهبي، وكرره الواحدي ٨٥٣ عن ابن إسحق عن عبد الله، وهذا مرسل، وورد عن عبد الله بن الزبير أخرجه البزار ٢٢٨٩ وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان، وضعفه آخرون، لكن حديثه حسن في الشواهد، وهذه المراسيل والشواهد تعتضد بمجموعها، ويحدث منها قوة، وأنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه. والله أعلم.

---

(١) جمع جؤذر: وهو ولد البقر الوحشية. والظلمان: ولد النعام، وهو الذكر خاصة.
(٢) جمع يعفور: وهو ولد الظبية. والعيس: إبل بيض، يخالط بياضها شقرة.

يؤتِي ماله إلا ابتغاء وجهِ ربه، لا لمكافأة نعمته. ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ أي سوف يعطيه في الجنة ما يرْضى؛ وذلك أنه يعطيه أضعاف ما أنفق. وروى أبو حَيّان التيميّ عن أبيه عن عليّ رضي الله عنه، قال:

[٦٣٥٩] قال رسول الله ﷺ: «رَحِم الله أبا بكر! زوجنِي ابنته، وحملني إلى دار الهِجرة، وأعتق بلالاً من ماله». ولما اشتراه أبو بكر قال له بلال: هل اشتريتني لعملك أو لعمل الله؟ قال: بل لعمل الله قال: فذرني وعمل الله، فأعتقه. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعني بلالاً رضي الله عنه). وقال عطاء ـ وروي عن ابن عباس ـ: إن السورة نزلت في أبي الدَّحداح؛ في النخلة التي اشتراها بحائط له؛ فيما ذكر الثعلبيّ عن عطاء. وقال القشيريّ عن ابن عباس: بأربعين نخلة؛ ولم يسم الرجل. قال عطاء:

[٦٣٦٠] كان لرجل من الأنصار نخلة، يسقط من بلحِها في دار جارٍ له، فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «تبيعها بنخلة في الجنة»؟ فأبى؛ فخرج فلقِيه أبو الدَّحداح فقال: هل لك أن تبيعنِيها بـ«حُسْنَى»: حائط له. فقال: هي لك. فأتى أبو الدَّحداح إلى النبيّ ﷺ، وقال: يا رسول الله، اشترها مني بنخلة في الجنة. قال: «نعم، والذي نفسي بيده» فقال: هي لك يا رسول الله؛ فدعا النبيّ ﷺ جار الأنصاريّ، فقال: «خذها» فنزلت ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ إلى آخر السورة في بستان أبي الدحداح وصاحب النخلة. ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ يعني أبا الدحداح. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ أي بالثواب. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾: يعني الجنة. ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ يعني الأنصاريّ. ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ أي بالثواب. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ١٠]، يعني جهنم. ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ أي مات. إلى قوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥﴾ يعني بذلك الخزرجِيّ؛ وكان منافقاً، فمات على نفاقه. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا

[٦٣٥٩] أخرجه الترمذي ٣٧١٤ وابن حبان في المجروحين ٢/٣١٤ وابن الجوزي في الواهيات ٤١٠ من حديث أبي حيان عن أبيه عن علي مرفوعاً بأتم منه وإسناده ضعيف حيث ضعفه الترمذي بقوله: غريب. والمختار بن نافع كثير الغرائب. وقال ابن حبان: كان يأتي بالمناكير عن المشاهير، وقال ابن الجوزي: قال البخاري عنه: منكر الحديث اهـ والحديث وإن كان صحيحاً من جهة المعنىٰ، إلا أن فيه زيادة تدل علىٰ وهنه، وقد عده الذهبي في ميزانه ٤/ ٨٠ من مناكير المختار هذا.

[٦٣٦٠] ضعيف جداً. أخرجه الواحدي ٨٥٢ بسند واهٍ، ـ لأجل حفص بن عمر بن ميمون ـ عن عكرمة عن ابن عباس به مطولاً. وحفص ضعفه الحافظ في التقريب، وجرحه ابن حبان. والجمهور علىٰ أنها نزلت في أبي بكر، والله تعالىٰ أعلم، وخبر أبي الدحداح تقدم في أواخر سورة البقرة بغير هذا اللفظ وهو بهذا اللفظ واهٍ بمرة.

﴿ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧﴾ يعني أبا الدحداح. ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ في ثمن تلك النخلة. ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩﴾ يكافئه عليها؛ يعني أبا الدحداح. ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾ إذا أدخله الله الجنة. والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر رضي الله عنه. وروي ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم. وقد ذكرنا خبراً آخر لأبي الدحداح في سورة «البقرة»، عند قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥]. والله تعالى أعلم.

سورة الضحى

مكية باتفاق. وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ قد تقدّم القول في «الضحى»، والمراد به النهار؛ لقوله؛ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ فقابله بالليل. وفي سورة (الأعراف) ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩٨﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٨] أي نهاراً. وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق: أقسم بالضحى الذي كلم الله فيه موسى، وبليلة المعراج. وقيل: هي الساعة التي خرّ فيها السَّحَرة سجداً. بيانه قوله تعالى: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ۝٥٩﴾ [طه: ٥٩]. وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فهي إضمار، مجازه ورب الضحى. و﴿سَجَىٰ ۝٢﴾ معناه: سكن؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة. يقال: ليلة ساجية أي ساكنة. ويقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية. يقال: سجا الليل يسجو سَجْواً: إذا سكن. والبحر إذا سجا: سكن. قال الأعشى:

فما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمكم ... وبحرك ساجٍ ما يوارِي الدعامِصا[1]

وقال الراجز:

يـا حَبَّـذَا القَمْـراءُ والليـلُ السـاجْ ... وطُـرُق مِثْـلُ مِـلاءِ النّسـاجْ

وقال جرير:

(١) جمع دعموص: وهي دويبة صغيرة تكون في مستنقع الماء.

ولقد رمينَك يوم رُحْن بأعينٍ ينظرن من خِلَل الستور سواجي

وقال الضحاك: «سجا» غطّى كل شيء. قال الأصمعيّ: سَجْو الليل: تغطيته النهار؛ مثلما يُسَجَّى الرجل بالثوب. وقال الحسن: غشى بظلامه؛ وقاله ابن عباس. وعنه: إذا ذهب. وعنه أيضاً: إذا أظلم. وقال سعيد بن جبير: أقبل؛ وروي عن قتادة أيضاً. وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد: «سجا» استوى. والقول الأوّل أشهر في اللغة: «سجا» سكن؛ أي سكن الناس فيه. كما يقال: نهار صائم، وليل قائم. وقيل: سكونه استقرار ظلامه واستواؤه. ويقال: «والضحى. والليلِ إذا سَجَا»: يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعباده الذين يعبدونه بالليلِ إذا أظلم. ويقال: «الضحى»: يعني نور الجنة إذا تنوّر. «والليل إذا سجا»: يعني ظلمة الليل إذا أظلم. ويقال: «والضحى»: يعني النور الذي في قلوب العارفين كهيئة النهار. «والليلِ إذا سجا»: يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأقسم الله عز وجل بهذه الأشياء. ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾: هذا جواب القسم. وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبيّ ﷺ، فقال المشركون: قلاه الله وودّعه؛ فنزلت الآية. وقال ابن جريج: احتبس عنه الوحي اثني عشر يوماً. وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً. وقيل: خمسة وعشرين يوماً. وقال مقاتل: أربعين يوماً. فقال المشركون: إن محمداً ودّعه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من الله لتابع عليه، كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء. وفي البخاريّ عن جندب بن سفيان قال:

[٦٣٦١] اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقُم ليلتين أو ثلاثاً؛ فجاءت امرأة[1] فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربَك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. وفي الترمذيّ عن جندب البجليّ قال:

[٦٣٦٢] كنت مع النبيّ ﷺ في غار فدمِيت إصبعه، فقال النبيّ ﷺ: «هَلْ أَنْتِ إلاَّ

[٦٣٦١] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٥٠ و٤٩٥١ ومسلم ١٧٩٧ ح ١١٥ والنسائي في «الكبرىٰ» ١١٦٨١ والطبري ٣٧٥٠٣ والواحدي ٨٥٨ من حديث جندب بن عبد الله بن سفيان البَجَلي.

[٦٣٦٢] غريب بهذا اللفظ. أخرجه الترمذي ٣٣٤٥ من حديث جندب البجلي، وإسناده علىٰ شرط مسلم، لكنه شاذ لأن جندب بن عبد الله أسلم في المدينة، والسورة مكية بالإتفاق، والوهم فيه من محمد بن يحيىٰ العدني صاحب ابن عيينة فقد قال فيه أبو حاتم: كانت فيه غفلة. وقد أخرج مسلم برقم ١٧٩٦ حديث الإصبع عن جندب دون لفظ «وأبطأ عليه جبريل..» في حين أخرج برقم ١٧٩٧ من طريق إسحق بن راهويه عن ابن عيينة بسنده عن جندب قال: «أبطأ جبريل..» وبهذا =

---

(١) هي العوراء بنت حرب أخت أبي سفيان وزوج أبي لهب وهي حمالة الحطب.

إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ»! قال: وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون: قد وُدِّعَ محمد؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾. هذا حديث حسن صحيح. لم يذكر الترمذي: «فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثاً» أسقطه الترمذيّ. وذكره البخاري، وهو أصح ما قيل في ذلك. والله أعلم. وقد ذكره الثعلبي أيضاً عن جندب بن سفيان البجلي[1]، قال: رُمِي النبيّ ﷺ في إصبعه بحجر، فدمِيت، فقال: «هل أنتِ إلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وفي سبيلِ اللَّهِ ما لَقِيتِ» فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم الليل. فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فنزلت ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾. وروى عن أبي عِمران[2] الجَوْني، قال: أبطأ جبريل على النبيّ ﷺ حتى شق عليه؛ فجاء وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو؛ فنكت بين كتِفيه، وأنزل عليه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

[٦٣٦٣] وقالت خولة ـ وكانت تخدُم النبيّ ﷺ ـ: إن جَرْواً دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبيّ الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي. فقال: «يا خولة، ما حدث في بيتي؟ ما لجبريل لا يأتيني»! قالت خولة فقلت: لو هيأت البيت وكنسته؛ فأهويت بالمِكنسة تحت السرير، فإذا جَرْوٌ ميت، فأخذته فألقيته خلف الجدار؛ فجاء نبيّ الله ترعد لِحْيَاه ـ وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرِّعدة ـ فقال: «يا خولة دثِّريني» فأنزل الله هذه السورة. ولما[3] نزل جبريل سأله النبيّ ﷺ عن التأخر فقال: «أما علمت أنا

= يتضح أن كلا الحديثين ورد عن جندب، إلا أن الأول، وهو ذكر الإصبع حضره جندب، وأما الثاني، فإنه مرسل سمعه من أحد الصحابة، وبهذا يتضح أن سياق الترمذي غريب شاذ، ويوهم بأن السورة مدنية. فتنبه والله تعالىٰ أعلم.

[٦٣٦٣] أخرجه الطبراني ٢٤/٢٤٩ والواحدي ٨٦٠ من حديث خولة، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع ٧/١٣٨: أم حفص لم أعرفها اهـ وقال الحافظ في الفتح بإثر حديث ٤٩٥٠: ووجدت الآن في الطبراني بإسناد فيه من لا يُعرف، أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره ﷺ ... وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت السرير مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح، والله أعلم اهـ.

---

(١) تقدم أن هذا المتن شاذ غريب وقد نزلت سورة الضحىٰ، ولم يكن مع رسول الله ﷺ إلا عدد يسير من الصحابة، وجندب البجلي أسلم في المدينة.

(٢) هذا مرسل. أبو عمران الجوني تابعي لكن له شواهد كثيرة راجع الدر ٦/٦٠٨ ـ ٦٠٩.

(٣) هذا فما بعده ورد في حديث صحيح وذلك في المدينة وليس فيه ذكر نزول سورة الضحىٰ كما نبه عليه الحافظ آنفاً.

لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صُورة». وقيل[1]: لما سألته اليهود عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف قال: «سأخبركم غداً» ولم يقل إن شاء الله. فاحتبس عنه الوحي، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤] فأخبره بما سئل عنه. وفي هذه القصة نزلت ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾. وقيل[2]: إن المسلمين قالوا: يا رسول الله، ما لك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال: «وكيف ينزل عليّ وأنتم لا تنقون رواجِبكم ـ وفي رواية براجِمكم[3] ـ ولا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم». فنزل جبريل بهذه السورة؛ فقال النبيّ ﷺ: «ما جئت حتى اشتقت إليك» فقال جبريل: «وأنا كنت أشدّ إليك شوقاً، ولكني عبد مأمور» ثم أنزل عليه ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]. «ودّعك» بالتشديد: قراءة العامة، من التوديع، وذلك كتوديع المُفارق. وروي عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرأاهُ «وَدَعك» بالتخفيف، ومعناه: تركك. قال:

وثـم وَدَعْنـا آلَ عمـرو وعـامـر   فـرائسَ أطـراف المثقفـة[4] السمْرِ

واستعماله قليل. يقال: هو يدع كذا، أي يتركه. قال المبرد محمد بن يزيد: لا يكادون يقولون وَدَعَ ولا وَذَرَ، لضعف الواو إذا قدمت، واستغنوا عنها بترك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ أي ما أبغضك ربك منذ أحبك. وترك الكاف، لأنه رأس آية. والقِلَى: البغض؛ فإن فتحت القاف مددت؛ تقول؛ قلاه يقلِيه قِلًى وقَلَاء. كما تقول؛ قريت الضيف أقرِيه قِرًى وقَرَاء. ويقلاه، لغة طيء. وأنشد ثعلب:

أيـامَ أمِّ الـغـمْـر لا نـقْـلاهـا

أي لا نُبغضها. ونَقْلِي أي نُبغض. وقال[5]:

أسِيئـي بنـا أو أحْسِنِـي لا ملـومـةٌ   لـدينـا ولا مَقْلِيَّـةٌ إنْ تَقَلَّـتِ

وقال امرؤ القيس:

ولستُ بمـقـلِـيّ الـخِـلال ولا قـالِ

---

(١) أنكر الحافظ في الفتح ٨/ ٧١٠ كون نزول سورة الضحىٰ، كان بسبب سآلهم عن ذي القرنين، وقال ما معناه: الزمن بين نزول السورة، وسآلهم إياه غير متحد، ويجوز أن يكون قريباً.

(٢) تقدم تخريجه في سورة مريم آية ٦٤ وهو حديث ضعيف، والصواب ما رواه الشيخان، وتقدم في أول هذه السورة من حديث جندب البَجَلي.

(٣) هي العقد التي في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ.

(٤) الرمح.

(٥) هو كثير عزة.

وتأويل الآية: ما ودّعك ربك وما قلاك. فترك الكاف لأنه رأس آية؛ كما قال عز وجل: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي والذاكراتِ الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾.

روى مسلمة عن ابن إسحاق قال: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ أي ما عندي في مرجعك إليّ يا محمد، خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا. وقال ابن عباس: أُري النبيّ ﷺ ما يفتح الله على أمته بعده؛ فسُرّ بذلك؛ فنزل جبريل بقوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾. قال ابن إسحاق: الفَلْجُ[1] في الدنيا، والثواب في الآخرة. وقيل: الحوض والشفاعة. وعن ابن عباس: ألفُ قَصْر من لؤلؤ أبيض ترابه المِسك. رفعه[2] الأوزاعيّ، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال:

[٦٣٦٤] أرِي النبي ﷺ ما هو مفتوح على أمّته، فسر بذلك؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ ـ إلى قوله تعالى ـ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾، فأعطاه الله جل ثناؤه ألف قصر في الجنة، ترابها المسك؛ في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. وعنه قال: رضِي محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار. وقاله[3] السدي. وقيل: هي الشفاعة في جميع المؤمنين. وعن عليّ رضي الله عنه قال:

[٦٣٦٥] قال رسول الله ﷺ: «يشفعني الله في أُمّتي حتى يقول الله سبحانه لي: رضيت يا محمد؟ فأقول يا رب رضِيت». وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص:

[٦٣٦٦] أن النبيّ ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ

[٦٣٦٤] أخرجه الطبري ٣٧٥١٣ والطبراني ١٠٦٥٠ وفي الأوسط ٥٧٦ والحاكم ٢/ ٥٢٦ كلهم عن ابن عباس موقوفاً، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: تفرد به عصام بن رواد عن أبيه، وقد ضُعِّف اهـ قلت تابعه غير واحد، والحديث حسن، إلا أنه من كلام ابن عباس.

[٦٣٦٥] ضعيف أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ١٧٩ عن محمد بن علي بن الحسين عن ابن محمد بن الحنفية عن علي مرفوعاً، وهذا منقطع.

[٦٣٦٦] صحيح. أخرجه مسلم وتقدم.

---

(١) الفلجُ: الظفر والفلاح.

(٢) الصواب أنه وقفه على ابن عباس كما ترى.

(٣) في الأصل «وقال» وهو خطأ.

عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك» فأتى جبريل النبيّ ﷺ، فسأله فأخبره. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهب إلى محمد، فقل له: إن الله يقول لك: إنا سنرضيك في أمتك ولا نَسوءك». وقال عليّ رضي الله عنه لأهل العراق: إنكم تقولون إن أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] قالوا: إنا نقول ذلك. قال: ولكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾. وفي الحديث:

[٦٣٦٧] لما نزلت هذه الآية قال النبيّ ﷺ: «إذاً واللَّهِ لا أرضَى وواحد من أمتي في النار».

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾.

عدد سبحانه مِنَنَه على نبيه محمدٍ ﷺ فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ لا أب لك قد مات أبوك. ﴿فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾ أي جعل لك مأوى تأوي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك. وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم أُوتِم النبي ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه حق. وعن مجاهد: هو من قول العرب: درّة يتيمة؛ إذا لم يكن لها مِثل. فمجاز الآية: ألم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك ويَحُوطونك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾.

أي غافلاً عما يراد بك من أمر النبوّة، فهداك: أي أرشدك. والضلال هنا بمعنى الغفلة؛ كقوله جل ثناؤه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢] أي لا يغفل. وقال في حق نبيه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣]. وقال قوم: ﴿ضَآلًّا﴾ لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام؛ عن

[٦٣٦٧] لا أصل له في المرفوع. والمتن منكر، فإن الجَمَّ الكثير من هذه الأمة سيدخل النار نسأل الله السلامة، ولكن لا يخلدون فيها ما داموا موحدين، ومقتضىٰ الحديث أنه لن يدخل النار أحد من هذه الأمة، لأن الله وعد نبيه بأنه سيرضيه، والله لا يخلف الميعاد، فبهذا يتبين أنه حديث باطل لا أصل له وإنما ورد عن ابن عباس فيما أخرجه الطبري ٣٧٥١٦ عنه قال: من رضا محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. وإسناده واهٍ السدي عن ابن عباس منقطع، والحكم بن ظُهير متروك الحديث، وورد من طرق عن ابن عباس قال: رضاه أن تدخل الجنة أمته. راجع الدر ٦/ ٦١٠.

الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما. وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. علىٰ ما بينا في سورة الشورى وقال قوم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي في قوم ضلال، فهداهم الله بك. هذا قول الكلبي والفرّاء. وعن السدي نحوه؛ أي ووجد قومك في ضلال، فهداك إلى إرشادهم. وقيل: «ووجدك ضالاً» عن الهجرة، فهداك إليها. وقيل: «ضالاً» أي ناسياً شأن الاستثناء حين سُئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فأذكرك؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقيل: ووجدك طالباً للقِبلة فهداك إليها؛ بيانه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية. ويكون الضلال بمعنى الطلب؛ لأن الضال طالب. وقيل: ووجدك متحيراً عن بيان ما نزل عليك، فهداك إليه؛ فيكون الضلال بمعنى التحير؛ لأن الضال متحير. وقيل: ووجدك ضائعاً في قومك؛ فهداك إليه؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع. وقيل: ووجدك محِباً للهداية، فهداك إليها؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: ٩٥] أي في محبتك. قال الشاعر:

هذا الضلالُ أشاب مني المفرِقا ... والعارِضَيْنِ ولم أكن متحققا
عجباً لعزةَ في اختيار قطيعتي ... بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل: «ضالاً» في شِعاب مكة، فهداك وردّك إلى جدّك عبد المطلب. قال ابن عباس(١): ضل النبيّ ﷺ وهو صغير في شِعاب مكة، فرآه أبو جهل منصرفاً عن أغنامه، فردّه إلى جده عبد المطلب؛ فمنّ الله عليه بذلك، حين ردّه إلى جده على يدي عدوّه. وقال سعيد بن جبير(٢): خرج النبيّ ﷺ مع عمه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليس بزمام الناقة في ليلة ظَلْماء، فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل عليه السلام، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند، وردّه إلى القافلة؛ فمنّ الله عليه بذلك. وقال كعب(٣): إن حليمة لما قضت حق الرضاع، جاءت برسول الله ﷺ لتردّه على عبد المطلب، فسمعت عند باب مكة: هنيئاً لك يا بطحاء مكة، اليوم يرد إليك النور والدين والبهاء والجمال. قالت: فوضعته لأُصلِح ثيابي، فسمعت هدّة شديدة، فالتفت فلم أره، فقلت: مَعْشَرَ

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٦٦ عن أبي الصحىٰ عن ابن عباس بدون إسناد، فلا حجة فيه، وهو غريب.

(٢) باطل ذكره البغوي ٤/ ٤٦٦ عن سعيد بن المسيب بدون إسناد، فلا حجة فيه كسابقه، والجمهور علىٰ أنه كان ضالاً عن علم الشريعة التي أعطيها، وكلف بها فيما بعد راجع الكشاف ٤/ ٧٦٨ وابن كثير ٤/ ٥٥٩ والماوردي ٦/ ٢٩٤ والطبري ٣٧٥١٧ والمستند في ذلك قوله تعالىٰ ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً. .﴾.

(٣) لا حجة بخبر كعب، وهو الأحبار فإنه يروي الموضوعات وهذا منها.

الناس، أين الصبيّ؟ فقالوا: لم نر شيئاً؛ فصحت: وامحمداه! فإذا شيخ فانٍ يتوكأ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم؛ فإن شاء أن يردّه عليك فعل. ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبل رأسه وقال: يا رب، لم تزل مِنتك على قريش، وهذه السعدية تزعم أن ابنها قد ضل، فردّه إن شئت. فانكب هُبَلُ على وجهه، وتساقطت الأصنام، وقالت: إليك عنا أيها الشيخ، فهلاكنا على يدي محمد. فألقى الشيخ عصاه، وارتعد وقال: إن لابنكِ رباً لا يضيعه، فاطلبيه على مَهَل. فانحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع مكة، فلم يجدوه. فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً، وتضرع إلى الله أن يردّه، وقال:

يـــا ربِّ رُدَّ ولـــدي محمـــدَا اردده ربـي واتخـذ عنـدي يـدا
يـا رب إنْ محمـدٌ لـم يُـوجـدا فشمـــل قـــومـي كلهـم تبـدّدا

فسمعوا منادياً ينادي من السماء: معاشر الناس لا تضِجوا، فإن لمحمد رباً لا يخذله ولا يضيعه، وإن محمداً بوادي تِهامة، عند شجرة السَّمُر. فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل، فإذا النبيّ ﷺ قائم تحت شجرة، يلعب بالأغصان وبالورق. وقيل[1]: «ووجدك ضالاً» ليلة المِعراج، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق، فهداك إلى ساق العرش. وقال أبو بكر الورّاق وغيره: «ووجدك ضالاً»: تحب أبا طالب، فهداك إلى محبة ربك. وقال بسام بن عبد الله: «ووجدك ضالاً» بنفسك لا تدري من أنت، فعرفك بنفسك وحالك. وقال الجنيدي: ووجدك متحيراً في بيان الكتاب، فعلمك البيان؛ بيانه: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]. . . الآية. ﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ [النحل: ٦٤]. وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالة، فيهتدىٰ بها إلى الطريق؛ فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾ أي لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد؛ فهدَيتُ بك الخلقَ إليّ.

قلت: هذه الأقوال كلها حِسان، ثم منها ما هو معنويّ، ومنها ما هو حِسيّ. والقول الأخير أعجب إليّ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية. وقال قوم: إنه كان على جملة ما كان القوم عليه، لا يُظهر لهم خلافاً على ظاهر الحال؛ فأما الشرك فلا يُظَنُّ به؛ بل كان على مراسم القوم في الظاهر أربعين سنة. وقال الكلبيّ والسدّيّ: هذا على ظاهره؛ أي وجدك كافراً[2] والقوم كفار فهداك. وقد مضى هذا القول والردّ عليه في سورة «الشورى».

---

(١) هذه الأقوال لا تصح، وهي من بدع التأويل.

(٢) هذا مردود لا يصح إطلاق هذا اللفظ علىٰ رسول الله ﷺ، فالنبي ﷺ، لم يكن كافراً بل كان موحداً، لكن لم يوح إليه بشرع بعد، والله الموفق.

وقيل: وجدك مغموراً بأهل الشرك، فميزك عنهم. يقال: ضل الماء في اللبن؛ ومنه ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي لحقنا بالتراب عند الدفن، حتى كأنا لا نتميز من جملته. وفي قراءة الحسن «ووجدك ضالٌّ فهدى» أي وجدك الضال فاهتدى بك؛ وهذه قراءة على التفسير. وقيل: «ووجدك ضالاً» لا يهتدي إليك قومك، ولا يعرفون قدرك؛ فهدى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

أي فقيراً لا مال لك. ﴿فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي فأغناك بخديجة رضي الله عنها؛ يقال: عال الرجل يعِيل عَيلة: إذا افتقر. وقال أُحَيحة بن الجُلاح:

فمـا يَـدْرِي الفقيـرُ متـى غِنـاهُ ... ومـا يـدْرِي الغنِـيّ متـى يَعِيـل

أي يفتقر. وقال مقاتل: فرضَّاك بما أعطاك من الرزق. وقال الكلبِيّ: قنعك بالرزق. وقال ابن عطاء: ووجدك فقير النفس، فأغنى قلبك. وقال الأخفش: وجدك ذا عيال؛ دليله «فأغنى». ومنه قول جرير:

الله أنـزلَ فـي الكتـاب فـريضـةً ... لابـن السبيـل ولِلْفقيـر العـائـل

وقيل: وجدك فقيراً من الحُجَج والبراهين، فأغناك بها. وقيل: أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار. القشيري: وفي هذا نظر؛ لأن السورة مكية، وإنما فرض الجهاد بالمدينة.

وقراءة العامة «عائلاً». وقرأ ابن السميفع «عَيِّلا» بالتشديد؛ مثل طيب وهين.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ أي لا تَسَلَّطْ عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك؛ قاله الأخفش. وقيل: هما لغتان بمعنى. وعن مجاهد «فلا تقهر» فلا تَحْتَقِرْ. وقرأ النخَعِيّ والأشهب العُقَيليّ «تَكْهر» بالكاف، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود. فعلى هذا يحتمل أن يكون نهياً عن قهره، بظلمه وأخذ ماله. وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى؛ فغلَّظ في أمره، بتغليظ العقوبة على ظالمه. والعرب تعاقب بين الكاف والقاف. النحاس: وهذا غلط، إنما يقال كَهَره: إذا اشتدّ عليه وغَلَّظ. وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمِي:

[٦٣٦٨] حين تكلم في الصلاة بردّ السلام، قال: فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ـ يعني رسول الله ﷺ ـ فوالله ما كَهَرَني، ولا ضربني، ولا شتمني... الحديث. وقيل: القهر الغلبة. والكَهْر: الزجر.

الثانية: ودلت الآية على اللطف باليتيم، وبِره والإحسان إليه؛ حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم. ورِوي عن أبي هريرة:

[٦٣٦٩] أن رجلاً شكا إلى النبيّ ﷺ قسوة قلبه؛ فقال: «إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين». وفي الصحيح عن أبي هريرة:

[٦٣٧٠] أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين». وأشار بالسبابة والوُسطى. ومن حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

[٦٣٧١] «إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب، فتقول الملائكة ربنا أنت أعلم، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، اشهدوا أن من أَسْكَتَه وأرضاه؟ أن أرضِيه يوم القيامة». فكان ابن عمر إذا رأى يتيماً مسح برأسه، وأعطاه شيئاً. وعن أنس قال:

[٦٣٧٢] قال رسول الله ﷺ: «من ضم يتيماً فكان في نفقته، وكفاه مؤونته، كان له

[٦٣٦٨] تقدم تخريجه.

[٦٣٦٩] حسن. أخرجه أحمد ٢/ ٢٦٣ و ٣٨٧ من حديث أبي هريرة، وصححه المنذري في الترغيب ٣/ ٣٤٩ بقوله: رجاله رجال الصحيح اهـ وله شواهد من حديث أبي الدرداء وغيره لكنها واهية، راجع «الترغيب والترهيب».

[٦٣٧٠] تقدم برقم: ٢/ ١٤.

[٦٣٧١] باطل. أخرجه الخطيب ١٣/ ٤٢ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩ من حديث أنس وقال الخطيب: موسىٰ بن عيسىٰ البغدادي هو المتهم به، وحكم ابن الجوزي بوضعه ووافقه الذهبي في الميزان ٤/ ٢١٦ فقال: خبر كذب. وقال السيوطي في اللآلىء ٢/ ٨٤ وأخرجه أبو نعيم من حديث ابن عمر اهـ وتعقبه ابن عراق في «تنزيه الشرعة» ٢/ ١٣٦ فقال: في سنده من لم أقف لهم علىٰ ترجمة، والله أعلم.

[٦٣٧٢] أخرجه ابن عدي في «الكامل» ٣/ ٢٤٦ من حديث أنس، وفيه سليمان بن عمرو النخعي متهم بالكذب، نقله ابن عدي عن غير واحد. لكن لصدره شاهد أخرجه الطبراني كما في المجمع ٨/ ١٦٠ من حديث عمرو بن مالك القشيري، وقال الهيثمي: فيه علي بن زيد، وهو حسن الحديث وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ وله شواهد أخرىٰ راجع المجمع وترغيب المنذري ٣/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨. والنكارة في عجزه فقط، والله أعلم.

حجاباً من النار يوم القيامة، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة». وقال أكثم بن صَيفِيّ: الأذلاّء أربعة: النمام، والكذاب، والمديون، واليتيم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ أي لا تزجره؛ فهو نهي عن إغلاظ القول. ولكن رُدَّه ببذل يسير، أو ردّ جميل، واذكر فقرك؛ قاله قتادة وغيره. وروي عن أبي هريرة:

[٦٣٧٣] أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعن أحدُكم السائلَ، وأن يعطِيه إذا سأل، ولو رأى في يده قُلبين[١] من ذهب». وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السُّؤّال: يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعي: السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء. وروي أن النبي ﷺ قال:

[٦٣٧٤] «رُدُّوا السائل ببذل يسير، أو ردّ جميل، فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن، ينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله». وقيل: المراد بالسائل هنا، الذي يسأل عن الدِّين؛ أي فلا تنهره بالغِلظة والجَفْوة، وأجبه برفق ولين؛ قاله سفيان. قال ابن العربيّ: وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على العالِم، على الكفاية؛ كإعطاء سائل البِرّ سواء. وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث، ويبسط رداءه لهم، ويقول: مرحباً بأحبة رسول الله ﷺ. وفي حديث أبي هارون العَبْديّ، عن أبي سعيد الخُدْرِي[٢]، قال:

[٦٣٧٥] كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول: مَرْحباً بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لكم تَبَع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً». وفي رواية «يأتيكم رجال مِن قِبل المشرق»... فذكره. و«اليتيم» و«السائل» منصوبان بالفعل الذي بعده؛ وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء، والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل. وروي أن النبيّ ﷺ قال:

[٦٣٧٣] ضعيف. أخرجه البزار ٩٥٢ وابن عدي ٢/ ٣٢١ من حديث أبي هريرة، وأعله الهيثمي بالحسن بن علي الهاشمي، وأنه ضعيف، ونقل عن ابن عدي قوله: هو أقرب إلى الضعيف منه إلى الصدق. ونقل الذهبي عن البخاري قوله: منكر الحديث.

[٦٣٧٤] لم أجده بعدُبحث، وأمارة الوضع لائحة عليه.

[٦٣٧٥] ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٦٥٢ و٢٦٥٣ وابن ماجة ٢٤٧ من حديث أبي سعيد، ومداره على عمارة بن جوين، وهو متروك، ولصدره شواهد والمرفوع اللفظي واهٍ، وانظر جامع الأصول ٨/ ٥٨٤٠.

---

(١) القُلْبُ: سوار المرأة.

(٢) أي أبو هارون العبدي.

[٦٣٧٦] «سألت ربي مسألة وددت أني لم أسألها: قلت: يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليما، وسخرت مع داود الجبال يسبحن، وأعطيت فلاناً كذا؛ فقال عز وجل: ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أوتِك ما لم أُوتِ أحداً قبلك: خواتيمَ سورة البقرة، ألم أتخذك خليلاً، كما اتخذت إبراهيم خليلاً؟ قلت: بلى يا رب».

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ أي انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد «وأما بنعمة ربك» قال بالقرآن. وعنه قال: بالنبوّة؛ أي بلغ ما أرسلت به. والخطاب للنبيّ ﷺ، والحكم عام له ولغيره. وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال: إذا أصبت خيراً، أو عملت خيراً، فحدّث به الثقة من إخوانك. وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقي الرجل من إخوانه من يثق به، يقول له: رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا. وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحة كذا، قرأت كذا، وصليت كذا، وذكرت الله كذا، وفعلت كذا. فقلنا له: يا أبا فراس، إن مثلك لا يقول هذا! قال يقول الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ وتقولون أنتم: لا تَحَدَّث بنعمة الله! ونحوه عن أيوب السختِيانيّ وأبي رجاء العُطارِديّ رضي الله عنهم. وقال بكر بن عبد الله المَزُنِيّ قال النبيّ ﷺ:

[٦٣٧٧] «من أُعطِي خيراً فلم يُرَ عليه، سمي بغيض الله، معادياً لنعم الله». وروى الشعبيّ عن النعمان بن بشير قال:

[٦٣٧٨] قال النبيّ ﷺ: «من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر

[٦٣٧٦] ضعيف أخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٦ برقم ٣٩٤٤ والبيهقي في الدلائل ٧/ ٦٣ والطبراني كما في المجمع من حديث ابن عباس، وصححه الحاكم، وسكت عنه الذهبي، وقال الهيثمي: فيه عطاء بن السائب وقد اختلط اهـ والخبر غريب جداً.

[٦٣٧٧] هذا مرسل. بكر بن عبد الله المزني تابعي ثقة روىٰ له الستة.

[٦٣٧٨] أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» ٤/ ٣٧٥ وأحمد ٤/ ٢٧٨ والبزار ١٦٣٧ من حديث النعمان بن بشير، وقال الهيثمي في المجمع ٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨: رواه البزار والطبراني وعبد الله بن أحمد، ورجالهم ثقات. وقال في ٨/ ١٨١: رواه عبد الله وأبو عبد الرحمن راويه عن الشعبي لم أعرفه اهـ قلت: مداره علىٰ الجراح بن مليح بن عدي، وهو وإن وثقه أبو داود وابن معين في رواية، فقد ضعفه في رواية أخرىٰ وقال الدارقطني: ليس بشيء اهـ وشيخه أبو عبد الرحمن مجهول ولذا ضعف ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥٥٩ هذا الحديث وكذا ضعفه السيوطي في الدر

الناس، لم يشكر الله، والتحدّث بالنعم شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب». وروى النسائي عن مالك بن نضلة الجُشَمِيّ قال:

[٦٣٧٩] كنت عند رسول الله ﷺ جالساً، فرآني رَثَّ الثياب فقال: «ألك مال»؟ قلت: نعم، يا رسول الله، من كل المال. قال: «إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثره عليك». وروى أبو سعيد الخدريّ:

[٦٣٨٠] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

فصل: يكبّر القارىء في رواية البزيّ عن ابن كثير ـ وقد رواه مجاهد عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب:

[٦٣٨١] عن النبيّ ﷺ ـ إذا بلغ آخر «والضحى» كَبَّر بين كل سورة تكبيرة، إلى أن يختم القرآن، ولا يصل آخر السورة بتكبيره؛ بل يفصل بينهما بسكتة، وكأنّ المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبيّ ﷺ أياماً، فقال ناس من المشركين: قد ودعه صاحبه وقلاه؛ فنزلت هذه السورة فقال: «الله أكبر»[1]. قال مجاهد: قرأت على ابن عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيّ عن النبيّ ﷺ. ولا يكبّر في قراءة الباقين؛ لأنها ذرِيعة إلى الزيادة في القرآن.

قلت: القرآن ثبت نقلاً متواتراً سوره وآياته وحروفه؛ لا زيادة فيه ولا نقصان؛

= ٦/ ٦١٢ ولكن لبعضه شواهد لذا لا يحكم عليه بالضعف والله أعلم، وقد تقدم تخريج بعض تلك الشواهد.

[٦٣٧٩] أخرجه النسائي ٨/ ١٩٦ وأحمد ٣/ ٣٧٣ من حديث مالك بن نضلة، وهو حديث صحيح وقد تقدم، وانظر جامع الأصول ١٠/ ٨٢٨٨.

[٦٣٨٠] حسن. أخرجه بهذا اللفظ أبو يعلىٰ ١٠٥٥ من حديث أبي سعيد الخدري، وفي إسناده عطية العوفي ضعيف.

لكن له شاهد لصدره أخرجه أبو داود ٤٠٩١ والترمذي ١٩٩٩ وكذا مسلم ٩١ من حديث ابن مسعود،

ويشهد لعجزه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، أخرجه الترمذي ٢٨٢٠ وللحديث شواهد أخرىٰ انظر المجمع ٥/ ١٧٤ ـ ١٧٦.

[٦٣٨١] غريب هكذا ويغني عنه الآتي.

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٦٨ بدون إسناد ومن غير عزو لقائل.

فالتكبير على هذا ليس بقرآن. فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب. أما أنه ثبت سنة بنقل الآحاد، فاستحبه ابن كثير[1]، لا أنه أوجبه فخطأ من تركه. ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب «المستدرك» له على البخاريّ ومسلم: حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد، المقرىء الإمام بمكة، في المسجد الحرام، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزة: سمعت عكرمة بن سليمان يقول:

[٦٣٨٢] قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلما بلغت «والضحى» قال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم، فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت «والضحى» قال: كبر حتى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك، وأخبره ابن عباس أن أُبيَّ بن كعب أمره بذلك، وأخبره أُبيّ بن كعب أن رسول الله ﷺ أمره بذلك. هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

[٦٣٨٢] أخرجه البغوي في تفسيره ٤/٤٦٨ والحاكم ٢/٢٣٠ برقم ٢٩٠٥ من حديث أبي بن كعب، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير ٤/٥٥٧: هذه سنة تفرد بها أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، وكان إماماً في القراءآت وأما في الحديث، فقد ضعفه أبو حاتم الرازي، وكذا العقيلي لكن احتج الشافعي بهذا، فهذا يقتضي صحة الحديث ا هـ ملخصاً.

---

(١) هو أحد القراء وسيأتي في الإسناد الآتي.

سورة ألم نشرح

مكية في قول الجميع. وهي ثماني آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

شرح الصدر: فتحه؛ أي ألم نفتح صدرك للإسلام. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ألم نُلين لك قلبك. وروى الضحاك عن ابن عباس قال:

[٦٣٨٣] قالوا يا رسول الله، أينشرح الصدر؟ قال: «نعم وينفسح». قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟ قال: «نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت، قبل نزول الموت». وقد مضى هذا المعنى في «الزمر» عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. وروي عن الحسن قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ قال: مُلِىء حكماً وعلماً. وفي الصحيح عن أنس بن مالك:

[٦٣٨٤] عن مالك بن صعصعة ـ رجلٍ من قومه ـ أن النبي ﷺ قال: «فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة فأُتيت بطَسْت من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا» قال قتادة قلت[1]: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني[2]، قال: «فاستخرج قلبي، فغُسِل قلبي بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشِي إيماناً وحِكمة». وفي الحديث قِصة. وروي عن النبيّ ﷺ قال:

[٦٣٨٥] «جاءني ملكان في صورة طائر، معهما ماء وثلج، فشرح أحدهما صدري،

[٦٣٨٣] تقدم تخريجه، وهو خبر ضعيف.

[٦٣٨٤] هو بعض حديث الإسراء وقد تقدم. وهذا لفظ الترمذي برقم ٣٣٤٦.

[٦٣٨٥] لم أجده بهذا اللفظ وحادثه شق الصدر بغير هذا السياق عند الحاكم ٢/٦١٦ برقم ٤٢٣٠ والبيهقي=

---

(١) أي لأنس بن مالك.

(٢) وقع في الأصل «بطلني» وهو تصحيف والمثبت هو الصواب.

وفتح الآخر بمنقاره فيه فغسله». وفي حديث آخر قال:

[٦٣٨٦] «جاءني مَلَك فشق عن قلبي، فاستخرج منه عذرة، وقال: قلبك وكيع، وعيناك بصيرتان، وأذناك سميعتان، أنت محمد رسول الله، لسانك صادق، ونفسك مطمئنة، وخلقك قُثَم، وأنت قيم». قال أهل اللغة: قوله: «وكيع أي يحفظ ما يوضع فيه. يقال: سِقاء وكيع؛ أي قوِي يحفظ ما يوضع فيه. واستوكعتْ معِدته، أي قويت. وقوله «قُثَم» أي جامع. يقال: رجل قَثوم للخير؛ أي جامع له. ومعنى «ألم نشرح» قد شرحنا؛ الدليل على ذلك قوله في النسْق عليه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾، فهذا عطف على التأويل، لا على التنزيل؛ لأنه لو كان على التنزيل لقال: ونضع عنك وِزرك. فدل هذا على أن معنى «ألم نشرح»: قد شرحنا. و«لم» جَحْد، وفي الاستفهام طرف من الجحد، وإذا وقع جحد، رجع إلى التحقيق[1]؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨] ومعناه: الله أحكم الحاكمين. وكذا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. ومثله قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

ألستمْ خيرَ من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطونَ راحِ

المعنى: أنتم كذا.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾، أي حططنا عنك ذنبك. وقرأ أنس «وحللنا، وحَطَطْنَا». وقرأ ابن مسعود: «وحللنا عنك وِقْرك». هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. قيل: الجميع كان قبل النبوّة. والوِزْر: الذنب؛ أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية؛ لأنه كان ﷺ في كثير من مذاهب قومه، وإن لم يكن عبد صنماً ولا وثناً. قال قتادة والحسن والضحاك: كانت للنبيّ ﷺ ذنوب أثقلته؛ فغفرها الله له. ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ أي أثقله حتى سمع نقيضه؛ أي صوته. وأهل اللغة يقولون: أنْقض الحِمل ظهر الناقة: إذا سمِعت له صريراً من شدة الحمل. وكذلك سمعت نقيضَ الرّحل؛ أي صريره. قال جميل:

= في الدلائل ١/ ١٣٥ وابن سعد ١/ ١١٢ ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ١١١ وسيرة ابن هشام ١/ ١٧٦ والخصائص الكبرىٰ للسيوطي ١/ ٥٤ وفي نسخة ١/ ١٥٨ ـ ١٦٢ ـ ١٦٣.

[٦٣٨٦] لم أجده. والظاهر أن المصنف أخذه عن تفسير الثعلبي، وهو حديث منكر.

---

(١) هو من باب «نفي النفي إثبات».

وحتى تداعتْ بالنقيض حِبالُه وهَمتْ بَوانِي زَوْرِه أن تَحَطَّمَا

«بَوانِي زورِه»: أي أصول صدره. فالوِزر: الحِمل الثقيل. قال المحاسبِيّ: يعني ثِقل الوِزر لو لم يعف الله عنه. ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ أي أثقله وأوهنه. قال: وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل، مع كونها مغفورة، لشدّة اهتمامهم بها، وندمهم منها، وتحسرهم عليها. وقال السُّدّي: «ووضعنا عنك وزرك» أي وحططنا عنك ثِقلك. وهي في قراءة عبد الله بن مسعود «وحططنا عنك وِقْرك». وقيل: أي حططنا عنك ثقل آثام الجاهلية. قال الحسين بن الفضل: يعني الخطأ والسهو. وقيل: ذنوب أمتك، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها. وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة: خففنا عنك أعباء النبوّة والقيام بها، حتى لا تثقل عليك. وقيل؛ كان في الابتداء يثقل عليه الوحي، حتى كاد يرمي نفسه من شاهق الجبل، إلى أن جاءه جبريل وأراه نفسه؛ وأزيل عنه ما كان يخاف من تغير العقل. وقيل: عصمناك عن احتمال الوِزر، وحفِظناك قبل النبوّة في الأربعين من الأدناس؛ حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس.

قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾.

قال مجاهد: يعني بالتأذين. وفيه يقول حسان بن ثابت:

أَغَرُّ عليه للنبوّة خاتَمٌ من الله مشهود يلوح ويُشْهدُ
وضمّ الإله اسم النبيّ إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذنُ أَشْهدُ

ورُوي عن الضحاك عن ابن عباس، قال: يقول له لا ذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معي في الأذان، والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحىٰ، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجِمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها. ولو أن رجلاً عبد الله جل ثناؤه، وصدّق بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن محمداً رسول الله، لم ينتفع بشيء وكان كافراً. وقيل: أي أعلينا ذكرك، فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، وأمرناهم بالبشارة بك، ولا دِين إلا ودِينك يظهر عليه. وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء، وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود، وكرائم الدرجات.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾.

أي إن مع الضِّيقة والشدّة يسراً، أي سعة وغِنى. ثم كرر فقال: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾، فقال قوم: هذا التكرير تأكيد للكلام؛ كما يقال: اِرم اِرم، اِعجَلْ اعجَلْ؛ قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [التكاثر: ٣ ـ ٤].

ونظيره في تكرار الجواب: بَلى بَلى، لا، لا. وذلك للإطناب والمبالغة؛ قاله الفرّاء. ومنه قول الشاعر[1]:

هَممـتُ بنفسِـيَ بعـضَ الهمـوم فـأولَـى لنفسـي أولَـى لهـا

وقال قوم: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسماً معرّفاً ثم كرّروه، فهو هو. وإذا نكّروه ثم كرّروه فهو غيره. وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر؛ قاله ثعلب. وقال ابن عباس: يقول الله تعالى خلقت عُسْراً واحداً، وخلقت يُسْرين، ولن يغلِب عسر يسرين. وجاء في الحديث عن النبيّ ﷺ في هذه السورة أنه قال:

[٦٣٨٧] «لن يغلِب عسر يسرين». وقال ابن مسعود[2]: والذي نفسي بيده، لو كان العسر في حَجَر، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه؛ ولن يغلب عسر يسرين. وكتب أبو عبيدة بن الجرّاح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم، وما يُتخوّف منهم؛ فكتب إليه عمر رضي الله عنهما: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من مَنزِل شِدّة، يجعل الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وقال قوم منهم الجُرْجانِيُّ: هذا قول مدخول؛ لأنه يجب على هذا التدريج إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفاً، إن مع الفارس سيفاً، أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنان. والصحيح أن يقال: إن الله بعث نبيه محمداً ﷺ مُقِلًّا مُخِفًّا، فعيره المشركون بفقره، حتى قالوا له: نجمع لك مالاً؛ فاغتم وظنّ أنهم كذبوه لفقره؛ فعزّاه الله، وعدد نِعمه عليه، ووعده الغنى بقوله: «فإنّ مع العسرِ يسرا» أي لا يحزنك ما

[٦٣٨٧] أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٣٦٤٧ والحاكم ٥٢٨/٢ برقم ٣٩٥٠ والطبري ٣٧٥٣٣ و ٣٧٥٣٤ و ٣٧٥٣٥ و ٣٧٥٣٦ كلهم عن الحسن مرسلاً، ومراسيل الحسن واهية، كما هو مقرر في كتب المصطلح، وكرره الطبري ٣٧٥٣٧ عن قتادة مرسلاً بصيغة التمريض حيث قال: ذُكر لنا. وقال الحافظ في الفتح ٧١٢/٨: وأخرجه ابن مردويه من حديث جابر بإسناد ضعيف. وأخرجه سعيد بن منصور وعبد الرزاق من حديث ابن مسعود، وإسناده ضعيف، وورد عن الحسن مرسلاً، وعن قتادة بسند جيد مرسلاً، وورد موقوفاً على عمر اهـ باختصار فالحديث غير قوي، لكن لا يحكم عليه بالضعف لتعدد طرقه، ومخارجه وورد بمعناه من حديث ابن مسعود أخرجه الطبراني ٩٩٧٧ وفيه أبو مالك النخعي ضعيف قاله في المجمع ١٣٩/٧/١١٥٠٠ ومن حديث أنس أخرجه البزار ٢٢٨٨ والطبراني ١٥٤٨ وأعله الهيثمي بعائذ بن شريح، وقال: ضعيف، اهـ والله أعلم.

---

(١) البيت للخنساء.

(٢) ورد مرفوعاً من حديث ابن مسعود كما تقدم لكنه ضعيف والموقوف أصح.

عيروك به من الفقر؛ فإن مع ذلك العسرِ يسرا عاجلاً؛ أي في الدنيا. فأنجز له ما وعده؛ فلم يمت حتى فَتَح عليه الحجاز واليمن، ووسَّع ذات يده، حتى كان يعطى الرجل المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنية، ويُعِدّ لأهله قوت سنة. فهذا الفضل كله من أمر الدنيا؛ وإن كان خاصاً بالنبيّ ﷺ، فقد يدخل فيه بعض أمته إن شاء الله تعالى. ثم ابتدأ فضلاً آخراً من الآخرة وفيه تأسِية وتعزِية له ﷺ، فقال مبتدئاً: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ فهو شيء آخر. والدليل على ابتدائه، تعرّيه من فاء أو واو أو غيرها من حروف النَّسْق التي تدل على العطف. فهذا وعد عام لجميع المؤمنين، لا يخرج أحد منه؛ أي إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسرا في الآخرة لا محالة. وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة. والذي في الخبر: «لن يغلب عسر يسرين»[1] يعني العسر الواحد لن يغلبهما، وإنما يغلب أحدهما إن غلب، وهو يسر الدنيا؛ فأما يسر الآخرة فكائن لا محالة، ولن يغلبه شيء. أو يقال: «إن مع العسر» وهو إخراج أهل مكة النبي ﷺ من مكة «يسرا»، وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل، مع عِز وشرف.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ قال ابن عباس وقتادة: فإذا فرغت من صلاتك ﴿فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي بالغ في الدعاء وسله حاجتك. وقال ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصَبْ في قيام الليل. وقال الكلبيّ: إذا فرغت من تبليغ الرسالة «فانصَب» أي استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات. وقال الحسن وقتادة أيضاً: إذا فرغت من جهاد عدوك، فانصب لعبادة ربك. وعن مجاهد: «فإذا فرغت» من دنياك، «فانصب» في صلاتك. ونحوه عن الحسن. وقال الجنيد: إذا فرغت من أمر الخلق، فاجتهد في عبادة الحق. قال ابن العربي: «ومن المبتدعة من قرأ هذه الآية «فَأَنْصِبْ» بكسر الصاد، والهمْز[2] من أوله، وقالوا: معناه: أَنْصِبْ الإمام الذي تستخلفه. وهذا باطل في القراءة، باطل في المعنى؛ لأن النبيّ ﷺ لم يستخلف أحداً. وقرأها بعض: الجهال «فانْصَبّ» بتشديد الباء، معناه: إذا فرغت من الجهاد، فجِدَّ في الرجوع إلى بلدك. وهذا باطل أيضاً قراءة، لمخالفة الإجماع، لكن معناه صحيح؛ لقوله ﷺ:

---

(١) تقدم مستوفياً في الذي قبله.

(٢) همز الوصل لا القطع. لأن ماضيه ثلاثي «نصب ينصب».

[٦٣٨٧ م] «السفر قطعة من العذابِ، يمنع أحدَكم نومَه وطَعامه وشرابه، فإذا قضى أحدَكم نَهْمَته، فليعجل الرجوع إلى أهله». وأشدّ الناس عذاباً وأسوأهم مباء ومآبا، من أخذ معنى صحيحاً، فركب عليه مِن قِبل نفسه قراءة أو حديثاً، فيكون كاذباً على الله، كاذباً على رسوله؛ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً».

قال المهدوِيّ: وروي عن أبي جعفر المنصور: أنه قرأ: «ألم نشرحَ لك صدرك» بفتح الحاء؛ وهو بعيد، وقد يؤوّل على تقدير النون الخفيفة، ثم أبدلت النون ألفاً في الوقف، ثم حُمِل الوصل على الوقف، ثم حذف الألف. وأنشد عليه:

اضْربَ عنك الهمومَ طارِقَها ضربك بالسوط قَوْنَس الفَرسِ[1]

أراد: اضرِبنْ. ورُوي عن أبي السَّمال «فإذا فرِغت» بكسر الراء، وهي لغة فيه. وقرىء «فرغِّب» أي فرغب الناس إلى ما عنده.

الثانية: قال ابن العربيّ: «روي عن شُريح أنه مر بقوم يلعبون يوم عِيد، فقال ما بهذا أمر الشارع. وفيه نظر، فإن الحَبَش كانوا يلعبون بالدّرق والحراب في المسجد يوم العيد، والنبيّ ﷺ ينظر. ودخل أبو بكر في بيت رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تغنيانِ؛ فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال: «دعهما يا أبابكر، فإنه يوم عيد»[2]. وليس يلزم الدُّءوب على العمل، بل هو مكروه للخلق».

[٦٣٨٧م] صحيح. أخرجه البخاري ١٨٠٤ ومسلم ١٩٢٧ وابن ماجة ٢٨٨٢ ومالك ٢/ ٩٨٠ وأحمد ٢/ ٢٣٦ و٤٤٥ من حديث أبي هريرة.

---

(١) قونس الفرس: ما بين أذنيه.
(٢) تقدم تخريجه.

تفسير سورة التين

مكية في قول الأكثر. وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية. وهي ثماني آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخَعِيّ وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصِرون منه الزيت؛ قال الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ۝٢٠﴾ [المؤمنون: ٢٠]. وقال أبو ذرّ:

[٦٣٨٨] أُهدِي للنبيّ ﷺ سَلٌّ تِين؛ فقال: «كلوا» وأكل منه. ثم قال: «لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة، لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عَجَم[1]، فكلوها فإنها تقطع البواسِير، وتنفع من النقْرِس». وعن معاذ:

[٦٣٨٩] أنه استاك بقضيب زيتون، وقال سمعت النبيّ ﷺ يقول: «نِعم السواك الزيتون! من الشجرة المباركة، يطيب الفم، ويذهب بالحَفَر[2]، وهي سِواكي وسواك الأنبياء مِن قبلي».

[٦٣٨٨] ضعيف جداً قال الحافظ في تخريج الكشاف ٤/ ٧٧٣: أخرجه أبو نعيم في «الطب» والثعلبي من حديث أبي ذر، وفيه من لا يعرف اهـ فالخبر واهٍ بمرة.

[٦٣٨٩] ضعيف جداً، أخرجه الطبراني في الأوسط كما في المجمع ٢/ ١٠٠ من حديث معاذ، وقال الهيثمي: فيه معلل بن محمد ولم أجد من ذكره اهـ وزاد الحافظ في تخريج الكشاف ٤/ ٧٧٣ نسبته للثعلبي وقال: إسناده واهٍ اهـ قلت: فيه محمد بن محصن، وهو متروك.

---

(١) أي بلا نوىً ـ بزر ـ.

(٢) هي الصفرة التي تعلو الأسنان.

وروي عن ابن عباس أيضاً[1]: التين: مسجِد نوح عليه السلام الذي بُني على الجوديّ، والزيتون: مسجد بيت المقدس. وقال الضحاك[2]: التين: المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى. ابن زيد: التين: مسجد دمشق، والزيتون: مسجد بيت المقدس. قتادة: التين: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون: الجبل الذي عليه بيت المقدس. وقال محمد بن كعب: التين: مسجد أصحاب الكهف، والزيتون: مسجد إيلياء. وقال كعبُ الأحبارِ وقتادة أيضاً وعكرمة وابن زيد: التين: دمشق، والزيتون: بيت المقدس. وهذا اختيار الطبريّ. وقال الفراء: سمعت رجلاً من أهل الشام يقول: التين: جبال ما بين حُلْوان إلى هَمَذان، والزيتون: جبال الشام. وقيل: هما جبلان بالشام، يقال لهما طور زيتا وطور تِينا (بالسريانية) سميا بذلك لأنهما ينبِتانِهما. وكذا روىٰ أبو مكين عن عكرمة، قال: التين والزيتون: جبلان بالشام. وقال النابغة:

... أَتَيْنَ التيْنَ عَنْ عُرُضٍ[3]

وهذا اسم موضع. ويجوز أن يكون ذلك على حذف مضاف؛ أي ومنابت التين والزيتون. ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوز خلافه؛ قاله النحاس.

الثانية: أصح هذه الأقوال الأوّل؛ لأنه الحقيقة، ولا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل. وإنما أقسم الله بالتين، لأنه كان سِتر آدم في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] وكان ورق التين. وقيل: أقسم به ليبين وجه المِنة العظمى فيه؛ فإنه جميل المنظر، طيب المخبَر، نَشِر الرائحة، سهل الجَنْى، على قدر المضغة. وقد أحسن القائل فيه:

انظر إلى التين في الغصون ضُحًى ممزق الجِلد مائل العُنُقِ
كأنه ربّ نِعمةٍ سُلِبت فعاد بعد الجديد في الخَلَق
أصغر ما في النهود أكبره لكِنْ يُنَادَى عليه في الطرقِ

وقال آخر:

التين يعدِل عندي كل فاكهة إذا انثنى مائلاً في غصنه الزاهي

(١) هو الأثر لا يصح عن ابن عباس، رواه عنه عطية العوفي، وهو واه بمرة، وقد صَحَّ عن ابن عباس القول الأول الذي ذكره عنه المصنف مع جمهور المفسرين. أخرجه الحاكم ٢/٢/٥٢٨ وصححه علىٰ شرطهما، ووافقه الذهبي، وهو الذي اختاره البخاري في صحيحه في تفسير سورة «والتين» فذكره عن مجاهد.

(٢) هذا وما بعده مردود لا حجة في هذه التأويلات كافة، والقول الأول وحده الصواب.

(٣) تمامه: صدر الظلال أتين التين من عرض يزجين غيماً قليلاً ماؤه شيما.

مُخَمَّش الوجه قد سالت حلاوته كـأنـه راكـع مِـن خشيـة اللّـهِ

وأقسم بالزيتون لأنه مَثَّل به إبراهيم[1] في قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥]. وهو أكثر أُدُم أهل الشام والمغرب؛ يصطبِغون[2] به، ويستعملونه في طبيخهم، ويستصبحون به، ويداوَى به أدواء الجوف والقروح والجراحات، وفيه منافع كثيرة. وقال عليه السلام:

[٦٣٩٠] «كلوا الزيت وادّهِنوا به فإنه من شجرة مباركة». وقد مضى في سورة «المؤمنون» القول فيه.

الثالثة: قال ابن العربيّ ولامتنان الباريء سبحانه، وتعظيم المِنة في التين، وأنه مُقْتات مدّخر فلذلك قلنا بوجوب الزكاة فيه. وإنما فرّ كثير من العلماء من التصريح بوجوب الزكاة فيه، تقِية جور الولاة؛ فإنهم يتحاملون في الأموال الزكاتية، فيأخذونها مغرماً، حَسْب ما أنذر به الصادق ﷺ. فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلاً إلى مال آخرَ يتشططون فيه، ولكن ينبغي للمرء أن يَخْرج عن نِعمة ربه، بأداء حقه. وقد قال الشافعي لهذه العِلة وغيرها: لا زكاة في الزيتون. والصحيح وجوب الزكاة فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾.

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد «وطور» قال: جبل. «سِينِين» قال: مبارك (بالسريانية). وعن عكرمة عن ابن عباس قال: «طور» جبل، و«سينين». حسن. وقال قتادة: سينين هو المبارك الحسن. وعن عكرمة قال: الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام. وقال مقاتل والكلبيّ: «سِينِين» كل جبل فيه شجر مثمِر، فهو سِينين وسِيناء؛ بلغة النَّبَط. وعن عمرو بن ميمون قال: صليت مع عمر بن الخطاب العشاء بمكة، فقرأ «والتِّين وَالزّيْتُونِ * وَطُورِ سِيناء * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ» قال[3]: وهكذا هي في قراءة عبد الله؛ ورفع صوته تعظيماً للبيت. وقرأ في الركعة الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ [الفيل: ١] و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ [قريش: ١] جمع بينهما. ذكره ابن الأنباريّ. النحاس: وفي قراءة عبد الله «سِيناء» (بكسر السين)، وفي حديث عمرو بن ميمون عن

[٦٣٩٠] تقدم تخريجه.

---

(١) ورد في ذلك حديث موضوع، ذكره السيوطي في «الدر» ٥/ ٨٩، وتقدم.

(٢) أي يأتدمون به.

(٣) أي عمرو بن ميمون.

عُمر (بفتح السين)(١). وقال الأخفش: «طُور» جبل. و«سِينِينَ» شجر، واحدته سِينِينِيَّة» وقال أبو عليّ: «سِنِين» فِعلِيل، فكررت اللام التي هي نون فيه، كما كررت في زِحلِيل: للمكان الزلِق، وكِردِيدة: للقطعة من التمر، وخِنذِيذ: للطويل. ولم ينصرف «سينين» كما لم ينصرف سِيناء؛ لأنه جعل اسماً لبقعة أو أرض، ولو جعِل اسماً للمكان أو للمنزل أو اسم مذكر لانصرف؛ لأنك سميت مذكراً بمذكر. وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام والأرض المقدّسة، وقد بارك الله فيهما؛ كما قال: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

قوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾.

يعني مكة. سماه أميناً لأنه آمن؛ كما قال: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] فالأمين: بمعنى الآمن؛ قاله الفرّاء وغيره. قال الشاعر:

أَلَـمْ تَعلَمِي يـا أَسْمُ ويْحَـكِ أَنَّنِي   حَلَفْـتُ يَمِينـاً لا أَخُـون أَمِينِـي

يعني: آمني. وبهذا احتج من قال: إنه أراد بالتين دمشق، وبالزيتون بيت المقدِس. فأقسم الله بجبل دِمَشْق، لأنه مأوى عيسى عليه السلام، وبجبل بيت المقدس، لأنه مَقام الأنبياء عليهم السلام، وبمكة لأنها أَثَر إبراهيم ودار محمد صلى الله عليهما وسلم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ هذا جواب القسم، وأراد بالإنسان: الكافر. قيل: هو الوليد بن المُغيرة. وقيل: كَلَدَة بن أسيد. فعلى هذا نزلت في مُنكري البعث. وقيل: المراد بالإنسان آدم وذريته. ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وهو اعتداله واستواء شبابه؛ كذا قال عامة المفسرين. وهو أحسن ما يكون؛ لأنه خلق كل شيء مُنكَباً على وجهه، وخلقه هو مستوياً، وله لسان ذَلِق، ويد وأصابع يقبض بها. وقال أبو بكر بن طاهر: مزينا بالعقل، مؤدِّيا للأمر، مَهْديًا بالتمييز، مديد القامة؛ يتناول مأكوله بيده. ابن العربيّ: «ليس لله تعالى خلق أحسنُ من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالِما، قادراً مريداً متكلماً، سميعاً بصيراً، مدبراً حكيما. وهذه صفات الرب سبحانه، وعنها عبَّر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله:

[٦٣٩١] «إن الله خلق آدم على صُورته» يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها. وفي

[٦٣٩١] صحيح. هو بعض حديث أخرجه البخاري ٣٣٢٦ ومسلم ٢٨٤١ وابن حبان ٦١٦٢ وغيرهم من حديث أبي هريرة، وانظر تعليق ابن حبان علىٰ معنىٰ هذا الحديث بإثر روايته إياه، وتقدم في سورة=

---

(١) أي «سَيْناء».

رواية «على صورة الرحمن»[1] ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة، فلم يبق إلا أن تكون معاني». وقد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزديّ قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم عليّ بن أبي علي القاضي المحسِّن عن أبيه قال: كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حباً شديداً فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر؛ فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقتني!. وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبر، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم. فقال جميع من حضر: قد طلقت؛ إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتاً. فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾. يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه. فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبلْ على زوجتك. وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل: أن أطيعي زوجك ولا تعصيه، فما طلقك.

فهذا يدلك على أنّ الإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً، جمال هيئة، وبديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه. ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالَم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ أي إلى أرذل العمر، وهو الهَرَم بعد الشباب، والضعف بعد القوّة، حتى يصير كالصبيّ في الحال الأوّل؛ قاله الضحاك والكلبيّ وغيرهما. وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ إلى النار، يعني الكافر، وقاله أبو العالية. وقيل: لما وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التي رُكِّب الإنسان عليها، طغى وعلا، حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤] وحين علم الله هذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، رَدَّه أسفل سافلين؛ بأن جعله مملوءاً قَذَراً، مشحوناً نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجاً منكرا، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغَلَبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رجع إلى قدره. وقرأ عبد الله «أسفلَ السَّافلِينَ». وقال: «أسفل سافِلين» على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى جمع، ولو قال: أسفل سافلٍ جاز؛ لأن لفظ الإنسان واحد. وتقول: هذا أفضل قائم. ولا تقول أفضل قائمين؛ لأنك تضمر لواحد، فإن كان الواحد غير مُضْمَر له، رجع اسمه بالتوحيد

= البقرة مستوفياً.

(١) جاء في رواية أخرىٰ للحديث المتقدم.

والجمع؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ [الشورى: ٤٨]. وقد قيل: إن معنىٰ ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ أي رددناه إلى الضلال؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إلا هؤلاء، فلا يردون إلى ذلك. والاستثناء على قول من قال «أسفلَ سافلينَ»: النار، متصل. ومن قال: إنه الهرَم فهو منقطع.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنَّه تكتب لهم حسناتهم، وتُمْحَى عنهم سيئاتهم؛ قاله ابن عباس. قال: وهم الذين أدركهم الكِبَر، لا يؤاخَذون بما عملوه في كِبرهم.

وروى الضحاك عنه قال: إذا كان العبد في شبابه كثير الصلاة كثير الصيام والصدقة، ثم ضعُف عما كان يعمل في شبابه؛ أجرى الله عز وجل له ما كان يعمل في شبابه. وفي حديث قال النبيّ ﷺ:

[٦٣٩٢] «إذا سافَرَ العبدُ أو مَرِض كتبَ اللَّهُ له مثل ما كان يَعمَلُ مُقِيماً صحيحاً». وقيل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنه لا يَخْرف ولا يَهْرَم، ولا يذهب عقل من كان عالماً عاملاً به. وعن عاصم الأحول عن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يرَدَّ إلى أرذل العمر[1]. وروي عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال:

[٦٣٩٣] «طُوبَى لمن طال عمره وحسن عمله». وروي[2]: إن العبد المؤمن إذا مات أمر الله مَلَكَيه أن يتعبدا على قبره إلى يوم القيامة، ويكتب له ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ قال الضحاك: أجر بغير عمل. وقيل مقطوع.

[٦٣٩٢] صحيح. أخرجه البخاري ٢٩٩٦ من حديث أبي موسىٰ.

[٦٣٩٣] أخرجه الترمذي ٦٣٢٩ وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١١١ وأحمد ٤/ ٨٨ و١٩٠ من حديث عبد الله بن بسر، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه اهـ.

ـ وله شاهد من حديث أبي بكرة أخرجه الترمذي ٢٣٣٠ وقال: حسن صحيح اهـ وله شواهد أخرىٰ، وهو حديث قوي.

---

(١) ليس بصحيح، فإن كثيراً ممن حفظوا القرآن والحديث اختلطوا في سنّ الكبر.

(٢) تقدم تخريجه، وقد جعله بعضهم مرفوعاً، ولا يصح.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾.

قيل: الخطاب للكافر؛ توبيخاً وإلزاماً للحجة. أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردّك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال؛ فما يحملك على أن تُكَذِّب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد ﷺ به؟ وقيل: الخطاب للنبيّ ﷺ أي اسْتيقِنْ مع ما جاءك من الله عز وجل، أنه أحكم الحاكمين. رُوِي معناه عن قتادة. وقال قتادة أيضاً والفرّاء: المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين. واختاره الطبريّ. كأنه قال: فمن يقدر على ذلك؛ أي على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدِّين والجزاء. قال الشاعر:

دِنّـا تميمـاً كمـا كـانـتْ أوائلُنـا   دانَتْ أوائلَهمْ في سالف الزمنِ

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

أي أتقن الحاكمين صنعاً في كل ما خلق. وقيل: ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ قضاء بالحق، وعدلاً بين الخلق. وفيه تقدير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم. وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي وفي الكلام معنى التوقيف صار إيجاباً؛ كما قال(1):

أَلَسْـتُـمْ خَـيْـرَ مَـنْ رَكِـبَ المَـطـايـا

وقيل: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾: منسوخة بآية السيف. وقيل: هي ثابتة؛ لأنه لا تنافي بينهما. وكان ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما إذا قرأا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ قالا: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين؛ فيختار ذلك. والله أعلم. ورواه الترمذي عن أبي هريرة قال:

[٦٣٩٤] من قرأ سورة «والتين والزيتون» فقرأ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. والله أعلم.

[٦٣٩٤] ساقه القرطبي رحمه الله علىٰ أنه موقوف، وليس كذلك، وإليك سياق الترمذي حيث أسنده ٣٣٤٧ عن إسماعيل بن أمية قال: سمعت رجلاً بدوياً أعرابياً يقول: «سمعت أبا هريرة ـ يرويه ـ يقول: من قرأ...» قلت: عبارة «يرويه» هي بمعنىٰ يرفعه كما هو مقرر في كتب المصطلح، وقد أفصح عن ذلك أبو داود حيث أخرجه ٨٨٧ عن إسماعيل بن أمية قال: سمعت أعرابياً يقول: سمعت أبا هريرة يقول: «قال رسول الله ﷺ ...» فذكره بأتم منه، لكن إسناده واهٍ لأن هذا الأعرابي لا يعرف، وانظر جامع الأصول ٩٢٦/٢. وأخرج الحاكم ٥١٠/٢ عن إسماعيل عن أبي اليسع عن أبي هريرة مرفوعاً، وصححه، وسكت الذهبي! في حين ذكره في الميزان ٥٨٩/٤ وقال: أبو اليسع لا يدرىٰ من هو، والسند بذلك مضطرب اهـ وأخرجه الطبري ٣٧٦٦٠ عن قتادة بقوله: ذُكر لنا، فذكره مرسلاً.

---

(١) هو جرير.

سورة العلق

وهي مكية بإجماع، وهي أوّل ما نزل من القرآن، في قول أبي موسى وعائشة رضي الله عنهما. وهي تسع عشرة آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن؛ في قول معظم المفسرين. نزل بها جبريل على النبيّ ﷺ وهو قائم على حِراء، فعلمه خمسَ آيات من هذه السورة. وقيل: إن أوّل ما نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، قاله جابر بن عبد الله؛ وقد تقدم. وقيل: فاتحة الكتاب أوّل ما نزل؛ قاله أبو مَيْسَرة الهَمْدانيّ. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أوّل ما نزل من القرآن ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] والصحيح الأوّل. قالت عائشة:

[٦٣٩٥] أوّل ما بُدِيء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة؛ فجاءه الملك فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾. خرجه البخارِيّ.

وفي الصحيحين عنها قالت:

[٦٣٩٦] أوّل ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوَحْي الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مِثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخَلاء، فكان يخلو بغار حِراءٍ، يتحنث فيه الليالِيَ ذواتِ العدد، قبلَ أَنْ يَرْجع إلى أَهْلِهِ ويتزوّد لذلك؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها؛ حتى فجِئه الحقّ وهو في غار حِراء، فجاءه الملك، فقال: «اقرأ»: فقال: ما أنا بقارىء ـ قال ـ فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهدُ ثم أرسلني»، فقال:

[٦٣٩٥] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٥٥ و ٤٩٥٦ من حديث عائشة هكذا باختصار، وانظر ما بعده.

[٦٣٩٦] صحيح. أخرجه البخاري (٣) و ٣٣٩٢ و ٤٩٥٣ و ٤٩٥٥ و ٤٩٥٦ و ٤٩٥٧ و ٦٩٨٢ ومسلم ١٦٠ من وجوه ما وعبد الرزاق ٩٧١٩ وأبو عوانة ١/ ١١٠ وابن حبان ٣٣ والطبري ٣٧٦٦٤ من حديث عائشة هكذا مطولاً، وأتم منه.

«اقرأ» فقلت: «ما أنا بقارىء». فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني»، فقال «اقرأ» فقلت: «ما أنا بقارىء» فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني» فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ الحديث بكماله. وقال أبو رجاء العُطارِدِيّ: وكان أبو موسى الأشعرِيّ يطوف علينا في هذا المسجد: مسجدِ البصرة، فيُقْعِدنا حِلَقاً، فيقرئنا القرآن؛ فكأني أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾. وكانت أوّل سورة أنزلها الله على محمد ﷺ. وروتْ عائشة رضي الله عنها أنها أوّل سورة أنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾ [القلم: ١]، ثم بعدها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ [المدثر: ١] ثم بعدها «والضحى» ذكره الماوردِيّ[1]. وعن الزُّهرِيُّ[2]: أول ما نزل سورة: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾، فحزن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهِق الجبال، فأتاه جبريل فقال له: «إنك نبيُّ الله» فرجع إلى خديجة وقال: «دَثِّروني وصُبُّوا عليّ ماء بارداً»، فنزل ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ [المدثر: ١].

ومعنى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ أي اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة. فمحل الباء من «باسم ربك» النصب على الحال. وقيل: الباء بمعنى على، أي اقرأ على اسم ربك. يقال: فعل كذا باسم الله، وعلى اسم الله. وعلى هذا فالمقروء محذوف، أي اقرأ القرآن، وافتتحه باسم الله. وقال قوم: اسم ربك هو القرآن، فهو يقول: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ أي اسمَ ربك، والباء زائدة؛ كقوله تعالى: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وكما قال:

سُودُ المَحاجِر لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ

أراد: لا يقرأن السور. وقيل: معنى «اقرأ باسم ربك» أي اذكر اسمه. أمره أن يبتدىء القراءة باسم الله.

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ يعني ابن آدم. ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾ أي من دم؛ جمع عَلَقة، والعلقة الدّم الجامد؛ وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: «مِنْ عَلَق» فذكره بلفظ الجمع؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهمْ خُلِقوا من عَلَق بعد النطفة. والعَلَقة: قطعة من دمٍ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٦٢٤ ونسبه لابن الأنباري في المصاحف.

(٢) هذا مرسل ومراسيل الزهري واهية كما هو مقرر في كتب المصطلح، لأنه حافظ ثبت لا يرسل إلا لعلة، والمتن غريب، ولم يرد في الحديث المتصل عن عائشة، والله أعلم.

رَطْب، سميت بذلك لأنها تعلَق لرطوبتها بما تَمُر عليه، فإذا جفت لم تكن عَلَقة. قال الشاعر:

تــركنـــاه يَخِـــر علـــى يـــديـــه ... يمـــج عليهمـــا عَلَـــق الـــوتِيـــنِ

وخَصّ الإنسانَ بالذكر تشريفاً له. وقيل: أراد أن يبين قدرَ نعمته عليه، بأن خلقه من علقة مَهينة، حتى صار بشراً سَوِيًا، وعاقلاً مميزاً.

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ أي الكريم. وقال الكلبيّ: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يُعَجِّل بعقوبتهم. والأوّل أشبه بالمعنى، لأنه لما ذكر ما تقدّم من نعمه، دلَّ بها على كرمه. وقيل: «اقرأ وربك» أي اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك، وإن كنت غير القارىء. و«الأكرم» بمعنى المتجاوز عن جهل العباد.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ يعني الخط والكتابة؛ أي علم الإنسان الخط بالقلم. ورَوى سعيد عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دِين، ولم يصلُح عيش. فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه عَلَّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو. وما دُوِّنت العلوم، ولا قُيِّدت الحِكم، ولا ضبطت أخبار الأوّلِين ومقالاتهم، ولا كتبُ الله المُنْزَلة إلا بالكتابة؛ ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا. وسُمِّي قلماً لأنه يُقْلَم؛ أي يقطع، ومنه تقليم الظفر. وقال بعض الشعراء المُحْدَثِين يصف القلم:

فكـــأنـــه والحِبْـــرُ يخضِـــبُ رأسَـــهُ ... شيـــخٌ لـــوصـــل خـــريـــدةٍ يَتَصَنَّـــعُ

لِـــمَ لا أُلاحظـــه بعيـــن جَـــلالـــة ... وبـــه إلـــى الله الصحـــائـــفُ تـــرفـــعُ

وعن عبد الله بن عمر قال:

[٦٣٩٧] يا رسول الله، أأكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال: «نعم فاكتب،

[٦٣٩٧] عزاه المصنف لابن عمر وبهذا اللفظ وهو غريب والمشهور في هذا الباب كونه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فقد أخرج الحاكم ١/ ١٠٥ و ١٠٦ من حديثه قال: يا رسول الله. أكتب ما أسمع منك؟ **قال:** نعم. قلت عند الغضب، وعند الرضا؟ قال نعم. وفي رواية: اكتب، فوالذي نفسي=

فإن الله عَلَّم بالقلم». وروى مجاهد عن ابن عمر[1] قال: خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده، ثم قال لسائر الحيوان: كن فكان: القلم، والعَرْش، وجنة عَدْن، وآدم عليه السلام. وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه آدم عليه السلام؛ لأنه أوّل من كتب، قاله كعب الأحبار. الثاني: أنه إدريس، وهو أول من كتب. قاله الضحاك. الثالث: أنه أدخل كل من كتب بالقلم؛ لأنه ما عَلِم إلا بتعليم الله سبحانه، وجمع بذلك نعمته عليه في خَلْقه، وبين نعمته عليه في تعليمه؛ استكمالاً للنعمة عليه.

الثانية: صح عن النبيّ ﷺ من حديث أبي هُريرة، قال:

[٦٣٩٨] لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ـ فهو عنده فوق العرش ـ: «إن رحمتي تغلِب غضبي». وثبت عنه عليه السلام أنه قال:

[٦٣٩٩] «أوّلُ ما خلق الله: القلم، فقال له اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذكر فوق عرشه». وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

[٦٤٠٠] «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها، ثم يقول، يا رب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب المَلَك ثم يقول: يا رب أَجَلَه، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول يا رب رزقَه، ليقضي ربك ما شاء، ويكتب المَلَك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أُمر ولا ينقص، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١]».

قال علماؤنا: فالأقلام في الأصل ثلاثة: القلم الأوّل: الذي خلقه الله بيده، وأمره أن يكتب. والقلم الثاني: أقلام الملائكة، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال. والقلم الثالث: أقلام الناس، جعلها الله بأيديهم، يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم. وفي الكتابة فضائل جمة. والكتابة من جملة البيان، والبيان مما اختص به الآدميّ.

= بيده، ما خرج منه إلا الحق. وأشار إلى فيه، وصححه، ووافقه الذهبي.

[٦٣٩٨] تقدم تخريجه.

[٦٣٩٩] مضىٰ تخريجه.

[٦٤٠٠] تقدم تخريجه.

---

(١) وقع في الأصل «أبي عمر» والتصويب عن تفسير الماوردي ٦/ ٣٠٥.

الثالثة: قال علماؤنا: كانت العرب أقل الخلق معرفة بالكتاب، وأقل العرب معرفة به المصطفى ﷺ؛ صُرِف عن علمه، ليكون ذلك أثبت لمعجزته، وأقوى في حجته، وقد مضى هذا مبيناً في سورة «العنكبوت». وروى حَمَّاد بن سَلَمة عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري، عن عبد الله بن مسعود، قال:

[٦٤٠١] قال رسول الله ﷺ: «لا تُسْكِنوا نساءكم الغُرف، ولا تعلموهن الكتابة». قال علماؤنا: وإنما حذرهم النبيّ ﷺ ذلك، لأن في إسكانهن الغُرَف تطلعاً إلى الرجل؛ وليس في ذلك تحصين لهنّ ولا تستر. وذلك أنهنّ لا يملكن أنفسهنّ حتى يشرفن على الرجل؛ فتَحدثَ الفتنة والبلاء؛ فحذرهم أن يجعلوا لهن غُرَفاً ذريعة إلى الفتنة. وهو كما قال رسول الله ﷺ:

[٦٤٠٢] «ليس للنساء خيرٌ لهنّ من ألا يراهنّ الرجال، ولا يرين الرجال». وذلك أنها خُلقت من الرجل، فنهْمتُها في الرجل، والرجل خلقت فيه الشهوة، وجُعلت سكناً له، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبه. وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سبباً للفتنة، وذلك إذا عُلِّمَتِ الكتابة كتبت إلى من تَهوَى. والكتابة عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب، والخط هو آثار يده. وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطلق به اللسان، فهو أبلغ من اللسان. فأحب رسول الله ﷺ أن ينقطع عنهنّ أسباب الفتنة؛ تحصيناً لهنّ، وطهارة لقلوبهنّ.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

قيل: «الإنسان»[1] هنا آدم عليه السلام. علمه أسماء كل شيء؛ حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. فلم يبق شيء إلا وعلَّم سبحانه آدمَ اسمَه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة كما عُلِّمه. وبذلك ظهر فضله، وتبيّن قدره، وثبتت نبوّته، وقامت حجة الله على الملائكة وحجتُه، وامتثلت الملائكة الأمر لِمَا رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر. ثم توارثت ذلك ذريته خلفاً بعد سلف، وتناقلوه قوماً عن قوم. وقد مضى هذا في سورة «البقرة» مستوفًى والحمد لله. وقيل: «الإنسان» هنا الرسول محمد ﷺ؛ دليله قوله تعالى:

[٦٤٠١] باطل، تقدم في سورة النور.
[٦٤٠٢] لم أجده.

---

(١) الصواب أن «أل» للجنس، تعم كل إنسان، ويدل على ذلك قوله بعد ذلك ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. وعلى هذا فالمراد بـ«علَّمك» المستقبل؛ فإن هذا من أوائل ما نزل. وقيل: هو عام لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ إلى آخر السورة. قيل: إنه نزل في أبي جهل. وقيل: نزلت السورة كلها في أبي جهل؛ نهى النبيَّ ﷺ عن الصلاة؛ فأمر الله نبيه ﷺ أن يصلي في المسجد ويقرأ باسم الرب. وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل. ويجوز أن يكون خمس آيات من أوّلها أوّل ما نزلت، ثم نزلت البقية في شأن أبي جهل، وأمر النبيّ ﷺ بضم ذلك إلى أوّل السورة؛ لأن تأليف السور جرى بأمر من الله. ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] آخرُ ما نزل، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل. و«كَلَّا» بمعنى حَقًّا؛ إذ ليس قبله شيء. والإنسان هنا أبو جهل. والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان. ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أي لأن رأى نفسه استغنى؛ أي صار ذا مال وثروة. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح[1] عنه، قال: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهل فقال: يا محمد تزعم أنه من استغنى طغى؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً، لعلنا نأخذ منها، فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك. قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد خيِّرهم في ذلك فإن شاؤوا فعلنا بهم ما أرادوه، فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة». فعلم رسول الله ﷺ أن القوم لا يقبلون ذلك؛ فكفَّ عنهم إبقاء عليهم. وقيل: «أَنْ رَآه اسْتَغْنَى» بالعشيرة والأنصار والأعوان. وحذف اللام من قوله «أن رآه» كما يقال: إنكم لَتَطْغَون إن رأيتم غِناكم. وقال الفراء: لم يقل رأى نفسه، كما قيل قتل نفسه؛ لأن رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً، نحو الظن والحِسبان، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد. والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتني وحسبتني، ومتى تراك خارجاً، ومتى تظنك خارجاً. وقرأ مجاهد وحميد وقنبل عن ابن كثير «أن رأهُ اسْتَغنَى» بقصر الهمزة. الباقون «رآه» بمدّها، وهو الاختيار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

---

(١) لا يصح هذا الأثر عن ابن عباس والحمل فيه علىٰ أبي صالح واسمه باذام ضعفه البخاري وغيره، واتهمه إسماعيل بن أبي خالد بالكذب. راجع الميزان الاعتدال ١/٢٩٦. وقد أقر بأنه روىٰ عن ابن عباس ما لم يحدث به.

أي مرجع مَن هذا وصْفُه، فنجازيه. والرجعى والمرجع والرجوع: مصادر؛ يقال: رجع إليه رجوعاً ومَرْجعاً، ورُجْعَى؛ على وزن فُعْلَىٰ.

قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ وهو أبو جهل[1] ﴿ عَبْدًا ﴾ وهو محمد ﷺ. فإن أبا جهل قال:

[٦٤٠٣] إنْ رأيت محمداً يصلِّي لأطأَنّ على عنقه؛ قاله أبو هُريرة. فأنزل الله هذه الآيات تعجباً منه. وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى: أَمِنَ هذا الناهي عن الصلاة من العقوبة.

قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي أريت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكاً؟!

قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾.

يعني أبا جهل كذّب بكتاب الله عز وجل، وأعْرض عن الإيمان. وقال الفرّاء: المعنى ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾ وهو على الهدى، وآمر بالتقوى، والناهي مكذِّب متولّ عن الذكر؛ أي فما أعجب هذا! ثم يقول: وَيْلَه! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى؛ أي يراه ويعلم فعله؛ فهو تقرير وتوبيخ. وقيل: كل واحد من «أرأيت» بدل من الأوّل. و﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ الخبر.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أي أبو جهل عن أذاك يا محمد. ﴿ لَنَسْفَعًۢا ﴾ أي لنأخذن ﴿ بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾ فلنذلنه. وقيل: لنأخذن بناصيته يوم القيامة، وتُطْوَى مع قدميه، ويطرح في النار، كما قال تعالى: ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرحمن: ٤١]. فالآية ـ وإن

[٦٤٠٣] صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٩٧ والنسائي في «الكبرىٰ» ١١٦٨٣ والطبري ٣٧٦٨٧ من حديث أبي هريرة بأتم منه.

---

(١) وبهذا يعلم أن كل إنسان يمنع مسلماً من أداء فريضة الصلاة، سواء في المتجر أو المصنع أو غير ذلك، فإنما هو أبو جهل، فليحذر المنافقون الذين يدعون الإسلام، ثم هم يمنعون بعض الناس في ظروف خاصة من تأدية فريضة الصلاة، فليحذر هؤلاء عذاب الله عز وجل، فإنه سيقع بهم لا محالة، وإن لم يكن في الدنيا، فسوف يلقونه في نار جهنم، نسأل الله السلامة، وحسن الختام.

كانت في أبي جهل ـ فهي عِظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة. وأهل اللغة يقولون: سفَعْتَ بالشيء: إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً. ويقال: سَفَعَ بناصية فرسه. قال[1]:

قَــومٌ إذا كَثُــر الصيــاح رأيتهــمْ ... مِـنْ بيـنِ مُلْجِـم مُهْـرِهِ أو سـافِـعِ

وقيل: هو مأخوذ من سَفَعتْه النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد؛ كما قال:

أثـافِـيَّ سُفعـاً فـي مُعَـرَّسِ مِـرْجَـلٍ ... ونَؤْيٌ كجِذم الحوض أَثْلَمَ خاشِع[2]

والناصية: شعر مقدّم الرأس. وقد يعبر بها عن جملة الإنسان؛ كما يقال: هذه ناصية مباركة؛ إشارة إلى جميع الإنسان. وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته. وقال المبرّد: السَّفْع: الجذب بشدّة؛ أي لَنَجُرَّن بناصيته إلى النار. وقيل: السَّفْع الضرب؛ أي لنلطُمَنّ وجهه. وكله متقارب المعنى. أي يجمع عليه الضرب عند الأخذ؛ ثم يجرّ إلى جهنم. ثم قال على البدل: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي ناصية أبي جهل كاذبة في قولها، خاطئةٍ في فعلها. والخاطىء معاقب مأخوذ. والمخطىء غير مأخوذ. ووصف الناصيةِ بالكاذبة الخاطئة، كوصفِ الوجوه بالنظر في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣]. وقيل: أي صاحبها كاذب خاطىء؛ كما يقال: نهاره صائم، وليله قائم؛ أي هو صائم في نهاره، ثم قائم في ليله.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي أهل مجلسه وعشيرته، فليستنصر بهم. ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ أي الملائكة الغِلاظ الشداد ـ عن ابن عباس وغيره ـ واحدهم زِبْنِيّ؛ قاله الكسائي. وقال الأخفش: زابن. أبو عبيدة: زِبْنِية. وقيل: زَبَانِيّ. وقيل: هو اسم للجمع؛ كالأبابيل والعباديد. وقال قتادة: هم الشُّرَط في كلام العرب. وهو مأخوذ من الزَّبْن وهو الدفع؛ ومنه المُزابنة[3] في البيع. وقيل: إنما سموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم، كما يعملون بأيديهم؛ حكاه أبو الليث السَّمَرْقندِيّ ـ رحمه الله ـ قال:

[٦٤٠٤] ورُوِي في الخبر أن النبيّ ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ إلى قوله تعالى:

[٦٤٠٤] ذكره أبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٩٥ هكذا بدون إسناد، ومن غير عزو لأحد، ولم أجده عند غيره، =

(١) هو حميد بن نور الهلالي الصحابي.
(٢) الخاشع: اللاصق بالأرض. والأثافي: حجارة يوضع عليها القدر. والسفع: السود.
(٣) هي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر.

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربّك. فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾. فلما سمع ذِكر الزبانية رجع فزِعاً؛ فقيل له: خَشِيت منه! قال لا! ولكن رأيت عنده فارساً يُهدّدني بالزَّبانية، فما أدري ما الزبانية، ومال إليّ الفارس، فخشِيت منه أن يأكلني. وفي الأخبار أن الزبانية رؤوسهم في السماء وأرجلهم في الأرض، فهم يدفعون الكفار في جهنم. وقيل: إنهم أعظم الملائكة خَلْقاً، وأشدّهم بطشاً. والعرب تطلِق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه. قال الشاعر:

مَطاعيمُ في القُصْوَى مطاعينَ في الوَغَى ... زَبانيةٌ غُلْب عِظامٌ حلُومُها[1]

وعن عكرمة عن ابن عباس:

[٦٤٠٥] ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأنّ على عنقه. فقال النبيّ ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عِياناً». قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح غريب. ورَوَى عِكرمة عن ابن عباس قال:

[٦٤٠٦] مر أبو جهل على النبيّ ﷺ وهو يصلّي عند المقام، فقال: ألم أنهك عن هذا يا محمد! فأغلظ له رسول الله ﷺ؛ فقال أبو جهل: بأيّ شيء تهدّدني يا محمد! والله إني لأكثر أهل الوادي هذا نادياً؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾. قال ابن عباس: والله لو دعا نادِيَه لأخذته زبانية العذاب من ساعته. أخرجه الترمذي بمعناه، وقال: حسن غريب صحيح. والنادي في كلام العرب: المجلس الذي ينتدِي فيه القوم؛ أي يجتمعون، والمراد أهل النادي؛ كما قال جرير[2]:

لهم مَجلِسٌ صُهْبُ السِّبالِ أذِلةٌ

وقال زهير:

وفيهمْ مَقاماتٌ حِسان وُجُوهُهم

= وهو غريب، والصحيح ما سيأتي.

[٦٤٠٥] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٥٨ والنسائي في الكبرىٰ ١١٦٨٥ والترمذي ٣٣٤٨ والطبري ٣٧٦٨٩ من حديث ابن عباس بهذا اللفظ.

[٦٤٠٦] صحيح. أخرجه الترمذي ٣٣٤٩ والنسائي ١١٦٨٤ والطبري ٣٧٦٨٥ و ٣٧٦٨٦ وأحمد ١/ ٢٥٦ من طرق عن عكرمة عن ابن عباس به وإسناده صحيح علىٰ شرطهما. وقال الترمذي حسن غريب صحيح.

---

(١) الغُلْبُ: جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة. والحلوم: جمع حلم وهو العقل.

(٢) تمامه: سواسية أمراؤها وعبيدها. والبيت لذي الرمة لا لجرير.

وقال آخر[1]:

واسْتَبَّ بعدَك يا كُلَيبُ المجلِسُ

وقال ناديت الرجل أنادِيه إذا جالسته. قال زهير:

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادِي أمامَ الحي عَقْدُهما سَواءُ

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل. ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ أي فيما دعاك إليه من ترك الصلاة. ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ أي صل لِلَّه ﴿ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ أي تقرّب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة. وقيل: المعنى: إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء. روى عطاء عن أبي هريرة قال:

[٦٤٠٧] قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وأحبه إليه، جَبْهَتُه في الأرض ساجداً لله».

قال علماؤنا: وإنما كان ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة؛ ولله غاية العِزة، وله العزة التي لا مقدار لها؛ فكلما بَعُدْت من صفته، قربت مِن جنته، ودنوت من جواره في داره. وفي الحديث الصحيح:

[٦٤٠٨] أن النبيّ ﷺ قال: «أمّا الركوع فعظموا فيه الرب. وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قَمِنٌ[2] أن يُسْتجاب لكُم». ولقد أحسن من قال:

وإذا تذللتِ الرقاب تواضُعاً منا إليكَ فعِزُّها في ذُلّها

وقال زيد بن أسلم: اسجد أنت يا محمد مصلياً، واقترب أنت يا أبا جهل من النار.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ هذا من السجود. يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة. قال ابن العربيّ: «والظاهر أنه سجود الصلاة» لقوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ كَلَّا لَا

[٦٤٠٧] مضىٰ تخريجه.

[٦٤٠٨] مضىٰ تخريجه.

---

(١) هو المهلهل ـ الزير سالم ـ.

(٢) أي خليق وجدير.

﴿نُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ (١٩)﴾، لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال:

[٦٤٠٩] سجدت مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١)﴾ [الإنشقاق: ١]، وفي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١)﴾ [العلق: ١] سجدتين، فكان هذا نصاً على أن المراد سجود التلاوة. وقد رَوى ابن وهب، عن حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدلة، عن زِرّ بن حُبَيش، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال:

[٦٤١٠] عزائم السجود أربع: «ألم» و«حَم. تنزيل من الرحمن الرحيم» و«النجم» و«اقرأ باسم ربك». وقال ابن العربيّ: «وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة «الحج»، وإن كان مقترناً بالركوع؛ لأنه يكون معناه اركعوا في موضع الركوع، واسجدوا في موضع السجود». وقد قال ابن نافع ومطَرِّف: وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من «اقرأ باسم ربك» وابن وهب يراها من العزائم.

قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن ابن عمر قال:

[٦٤١١] لما أنزل الله تعالى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١)﴾ قال رسول الله ﷺ لمُعاذ: «اكتبها يا معاذ» فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون ـ وهي الدواة ـ فكتبها معاذ؛ فلما بلغ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ (١٩)﴾ سجد اللوح، وسجد القلم، وسجدت النون، وهم يقولون: اللهم ارفع به ذِكراً، اللهم احْطُطْ به وِزراً، اللهم اغفر به ذنباً. قال معاذ: سجدت، وأخبرت رسول الله ﷺ، فسجد.

ختمت السورة. والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى. وله الحمد والمِنة.

[٦٤٠٩] صحيح. أخرجه مسلم ٥٧٨ وأبو داود ١٤٠٧ والترمذي ٥٧٣ والنسائي ٢/ ١٦٢ والدارمي ١/ ٣٤٣ وابن ماجة ١٠٥٨ وابن خزيمة ٥٥٤ وابن حبان ٢٧٦٧ والبغوي ٧٦٤ من حديث أبي هريرة.

[٦٤١٠] موقوف حسن. أخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٩ برقم ٣٩٥٧ من حديث عاصم عن زرّ عن علي موقوفاً، وصححه الذهبي، وهو حسن لأجل عاصم بن بهدلة.

[٦٤١١] موضوع لم أجده وهو ظاهر البطلان فإن السورة مكية بل هي أول ما نزل في قول الجمهور، ومعاذ بن جبل أنصاري مدني، أسلم بعد نزول السورة بزمن، فتنبه، والله أعلم.

سورة القدر

وهي مَدَنية في قول أكثر المفسرين؛ ذكره الثعلبيّ. وحكى الماوردِيّ عكسه.

قلت: وهي مدنية في قول الضحاك، وأحد قولي ابن عباس. وذكر الواقِدِيّ أنها أوّل سورة نزلت بالمدينة. وهي خمس آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن وإن لم يجرِ له ذِكر في هذه السورة؛ لأن المعنى معلوم، والقرآن كله كالسورة الواحدة. وقد قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ١ ـ ٣]، يريد: في ليلة القدر. وقال الشعبِي: المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. وقيل: بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلة القدر، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السَّفَرة[1]، ثم كان جبريل ينزله على النبيّ ﷺ نُجوماً[2] نجوماً. وكان بين أوّله وآخره ثلاث وعشرون سنة؛ قاله ابن عباس، وقد تقدّم في سورة «البقرة». وحكى الماوَرْدِيّ عن ابن عباس قال: نزل القرآن في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، في ليلة مباركة، جملة واحدة من عند الله، من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا؛ فنجّمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجمه جبريل على النبيّ ﷺ عشرين سنة. قال ابن العَرَبيّ: «وهذا باطل؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة».

قوله تعالى: ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ قال مجاهد: في ليلة الحكم. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ②﴾ قال: ليلة الحكم. والمعنى ليلة التقدير؛ سميت بذلك لأن الله تعالى يقدّر

---

(١) هم الملائكة. والسافر في الأصل: الكاتب.
(٢) أي مفرقاً.

فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره. ويسلمه إلى مدبِّرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل؛ عليهم السلام. وعن ابن عباس قال: يُكْتَب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حَتَّى الحاجّ. قال عكرمة: يُكتب حاجّ بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يُغادَر منهم أحد، ولا يُزاد فيهم. وقاله سعيد بن جبير. وقد مضى في أوّل سورة «الدخان» هذا المعنى. وعن ابن عباس أيضاً: أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان، ويُسْلمها إلى أربابها في ليلة القدر. وقيل: إنما سميت بذلك لعِظمِها وقَدْرها وشرفها؛ من قولهم: لفلان قَدْر؛ أي شرف ومنزلة. قاله الزُّهْرِيّ وغيره. وقيل: سُمِّيت بذلك لأن للطاعات فيها قَدْراً عظيماً، وثواباً جزيلاً. وقال أبو بكر الوراق: سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها. وقيل: سميت بذلك لأنه أَنزل فيها كتاباً ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر. وقيل: لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخَطَر. وقيل: لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة. وقال سهل: سميت بذلك لأن الله تعالى قدّر فيها الرحمة على المؤمنين. وقال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضُيِّق.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾.

قال الفراء: كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه. وما كان من قوله: «وما يُدْرِيكَ» فلم يُدْرِه. وقاله سفيان، وقد تقدم. ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ بيَّن فضلها وعظمها. وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل. وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر. والله أعلم. وقال كثير من المفسرين: أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. وقال أبو العالية: ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر. وقيل: عَنى بألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [البقرة: ٩٦] يعني جميع الدهر. وقيل: إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر؛ فجعل الله تعالى لأمة محمد ﷺ عبادة ليلة خيراً من ألف شهر كانوا يعبدونها. وقال أبو بكر الوراق: كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر؛ فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما. وقال ابن مسعود:

[٦٤١٢] إن النبيّ ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبِس السلاح في سبيل الله ألف شهر؛ فعجب المسلمون من ذلك؛ فنزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الآية. ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾، التي لبِس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله. ونحوه عن ابن عباس. وهب بن منبه: إن ذلك الرجل كان مسلماً، وإن أمّه جعلته نذراً لله، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام، وكان سكن قريباً منها؛ فجعل يغزوهم وحده، ويقتل ويسبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلا بِلَحيَيْ بعير، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وعطِش، انفرج له من اللَّحيين[1] ماء عذب، فيشرب منه، وكان قد أُعطِي قوّة في البطش، لا يوجعه حديد ولا غيره، وكان اسمه شَمْسُون. وقال كعب الأحبار: كان رجلاً مِلكاً في بني إسرائيل، فعل خَصْلة واحدة، فأوحى الله إلى نَبِيّ زمانهم: قل لفلان يتمنى. فقال: يا رب أتمنى أن أجاهد بمالي وولدي ونفسي؛ فرزقه الله ألف ولد، فكان يجهز الولد بماله في عسكر، ويخرجه مجاهداً في سبيل الله، فيقوم شهراً ويقتل ذلك الولد، ثم يجهز آخر في عسكر، فكان كل ولد يقتل في الشهر، والمِلك مع ذلك قائم الليلِ، صائم النهار؛ فقتِل الألْف وَلد في ألف شهر، ثم تقدم فقاتل فقتِل. فقال الناس: لا أحد يدرك منزلة هذا الملك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ من شهور ذلك الملك، في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفسِ والأولاد في سبيل الله. وقال عليّ بن[2] عروة:

[٦٤١٣] ذكر النبي ﷺ أربعة من بني إسرائيل، فقال: «عَبَدوا الله ثمانينَ سنة، لم يَعصُوه طرفة عين»؛ فذكر أيوب وزكريا، وحِزقيل بن العجوز ويُوشَع بن نون؛ فعجِب أصحاب النبيّ ﷺ من ذلك. فأتاه جبريل فقال: يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين، فقد أنزل الله عليك خيراً من ذلك؛ ثم قرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾. فسُرّ بذلك رسول الله ﷺ. وقال مالك في الموطّأ من رواية ابن القاسم وغيره:

[٦٤١٢] تفرد المصنف بذكر ابن مسعود وقد أخرجه الطبري ٣٧٧١٣ عن مجاهد موقوفاً عليه.
ـ وأخرجه الواحدي ٨٦٤ عن مجاهد عن النبي ﷺ، فالخبر واهٍ وانظر الدر ٦/٦٢٨ ـ ٦٢٩ وابن كثير ٤/٥٦٧.

[٦٤١٣] ضعيف جداً. أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٤/٥٦٧ والدر ٦/٦٢٩ عن مسلمة بن علي عن علي بن عروة مرسلاً، ومع إرساله مسلمة بن علي متروك، وهو الخشني، وشيخه أيضاً متروك، فالخبر واهٍ جداً لاحجة فيه، والأشبه أنه من الإسرائيليات.

---

(١) هو عظم الحنك، وهو الذي عليه الأسنان.

(٢) وقع في الأصل «علي وعروة» والتصويب عن تفسير ابن كثير والدر المنثور.

[٦٤١٤] سمعت من أثق به يقول: إن رسول الله ﷺ أُرِي أعمار الأمم قبله، فكأنه تقاصر أعمار أمّته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيراً من ألف شهر. وفي الترمذيّ عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما:

[٦٤١٥] أن رسول الله ﷺ أُرِي بني أمية على منبره، فساءه ذلك؛ فنزلت ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، يعني نهراً في الجنة. ونزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ يملكها بعدك بنو أمية. قال القاسم بن الفضل الحُدَّاني: فعدَدْناها، فإذا هي ألف شهر، لا تزيد يوماً، ولا تنقص يوماً[١]. قال: حديث غريب.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تهبط من كل سماء، ومن سِدرة المنتهى؛ ومسكن جبريل على وسطها. فينزلون إلى الأرض ويؤمِّنون على دعاء الناس، إلى وقت طلوع الفجر؛ فذلك قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. ﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي جبريل عليه السلام. وحكى القُشَيريّ: أن الرُّوح[٢] صِنف من الملائكة، جُعِلوا حفظَة على

[٦٤١٤] مرسل. أخرجه مالك ١/٣٢١ عمن يثق به مرسلاً. فهو ضعيف.

[٦٤١٥] منكر. أخرجه الترمذي ٣٣٥٠ والطبري ٣٧٧١٤ من حديث الحسن وضعفه الترمذي بقوله: غريب، ويوسف بن سعد رجل مجهول. ويقال يوسف بن مازن اهـ ووقع عند الطبري «عيسىٰ بن مازن» وهو تصحيف. والحديث أعله الحافظ ابن كثير بالاضطراب، وقال: علىٰ كل تقدير، هو حديث منكر جداً. وقال شيخنا أبو الحجاج المزي: هو حديث منكر اهـ ثم ذكر كلاما مطولاً وختمه بقوله: مما يدل علىٰ، وهن الحديث ونكارته، والله أعلم اهـ كلام ابن كثير رحمه الله ٤/٥٦٦ ـ ٥٦٧.

---

(١) قال ابن كثير ٤/٥٦٧ ما ملخصه: إن أسقط من مدة خلافة بني أمية أيام ابن الزبير، فما ذكره قريب، وإلاّ فبعيد، فإن مدة خلافتهم (٩٢ سنة) والألف شهر يساوي فقط (٨٣ سنة) والله أعلم.

(٢) الصواب أنه جبريل عليه السلام وخير ما يفسر القرآن بالقرآن قال الله تعالىٰ ﴿نزل به الروح الأمين...﴾ الآية. وقال الله تعالىٰ ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ وقد أجمعوا علىٰ أن الروح في الآيتين، إنما هو جبريل عليه السلام. وفي الآية وجه بلاغي وهو أنها من عطف الخاص علىٰ العام، وذلك تشريفاً للخاص. كما يقال: جاء الأمير والناس، أو جاء الناس والأمير. فإن الأمير إنما هو من الناس، ويذكر تشريفاً وتعظيماً له، فتنبه والله أعلم.

سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم، كما لا نرى نحن الملائكة. وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله تعالى. وقيل: إنهم جند من جند الله عز وجل من غير الملائكة. رواه مجاهد عن ابن عباس[1] مرفوعاً؛ ذكره الماوَرْدِيّ وحكىٰ القشيريّ: قيل هم صِنف من خلق الله يأكلون الطعام، ولهم أيدٍ وأرجل؛ وليسوا ملائكة. وقيل: «الرُّوح» خلق عظيم يقوم صفاً، والملائكة كلهم صفاً. وقيل: «الرُّوح» الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها؛ دليله ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، أي بالرحمة. ﴿فِيهَا﴾ أي في ليلة القدر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي بأمره. ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾: أُمِرَ بكل أمرٍ قدّرَه الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي بأمر الله. وقراءة العامة «تَنَزَّلُ» بفتح التاء؛ إلاّ أن البزي شدّد التاء. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وابن السَّميفع، بضم التاء على الفعل المجهول. وقرأ عليّ وابن عباس وعِكرمة والكلبِي «مِنْ كُلِّ امْرِىء». وروي عن ابن عباس أن معناه: من كل مَلَك؛ وتأوّلها الكلبيّ على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة، فيسلمون على كل امرىء مسلم. فـ«من» بمعنى على. وعن أنس قال: قال النبيّ ﷺ:

[٦٤١٦] «إذا كانَ ليلةَ القَدرِ نزلَ جبريلُ في كَبْكبة[2] من الملائكة، يُصلُّون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى».

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

قيل: إن تمام الكلام ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ ثم قال ﴿سَلَٰمٌ﴾. روي ذلك عن نافع وغيره؛ أي ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ أي إلى طلوع الفجر. قال الضحاك: لا يقدّر الله في تلك الليلة إلا السلامة، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة. وقيل: أي هي سلام؛ أي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة. وكذا قال مجاهد: هي ليلة سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى[3]. وروي مرفوعاً. وقال الشعبيّ: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد، من حين

[٦٤١٦] أخرجه البيهقي في الشعب ٣٧١٧ من حديث أنس بأتم منه وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أيضاً البيهقي ٣٦٩٥ مطوّلاً.

(١) لا أصل له في المرفوع، والماوردي يورد الموضوعات.
(٢) الكبكبة: الجماعة المتضامة من الناس وغيرهم.
(٣) لا أصل له في المرفوع، وإنما هو كلام مجاهد.

تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر؛ يمرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام عليك أيها المؤمن. وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها. وقال قتادة: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾: خير هي. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝﴾ أي إلى مطلع الفجر. وقرأ الكسائي وابن مُحَيصِن «مَطلِع» بكسر اللام، الباقون بالفتح. والفتح والكسر: لغتان في المصدر. والفتح الأصل في فَعَلَ يَفْعُل؛ نحو المقتل والمخرج. والكسر على أنه مما شذ عن قياسه؛ نحو المشرِق والمغرِب والمنبِت والمسكِن والمنسِك والمحشِر والمسقِط والمجزِر. حكى في ذلك كله الفتح والكسر؛ على أن يُراد به المصدر لا الاسم.

وهنا ثلاث مسائل:

الأولى: في تعيين ليلة القدر؛ وقد اختلف العلماء في ذلك. والذي عليه المُعْظَم أنها ليلة سبع وعشرين؛ لحديث زِرّ بن حُبَيْش قال:

[٦٤١٧] قلت لأبيّ بن كعب: إن أخاك عبد الله بن مسعود يقول: من يَقُمِ الحَول يصِب ليلة القدر. فقال: يغفِر الله لأبي عبد الرحمن! لقد عَلِم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس؛ ثم حلف لا يستثني[1]: أنها ليلة سبع وعشرين. قال قلت: بأيّ شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، أو بالعلامة أن الشمس تطلع يومئذٍ لا شعاع لها. قال الترمذيّ: حديث حسن صحيح. وخرجه مسلم. وقيل: هي في شهر رمضان دون سائر العام؛ قاله أبو هريرة وغيره. وقيل: هي في ليالي السنة كلها. فمن علق طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر، لم يقع العِتق والطلاق إلا بعد مضِي سنة من يوم حلف. لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك، ولم يثبت اختصاصها بوقت؛ فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا بمضي حول، وكذلك العِتق؛ وما كان مِثله من يمين أو غيره. وقال ابن مسعود: من يَقُمِ الحول يصِبها؛ فبلغ ذلك ابن عمر، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن! أما إنه عَلِم أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان، ولكنه أراد ألا يتكل الناس. وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة أنها في جميع السنة. وقيل عنه: إنها رُفِعَتْ ـ يعني ليلة القدر ـ وأنها إنما كانت مرة واحدة؛ والصحيح أنها باقية. وروي عن ابن مسعود أيضاً: أنها إذا كانت في يوم من هذه السنة، كانت في العام المقبل في يوم آخر. والجمهور على أنها في كل عام من رمضان. ثم قيل:

[٦٤١٧] صحيح. أخرجه مسلم ٧٦٢ وأبو داود ١٣٧٨ والترمذي ٧٩٣ والحميدي ٣٧٥ وعبد الرزاق ٧٧٠٠ وابن خزيمة ٢١٩٣ وابن حبان ٣٦٨٩ و ٣٦٩٠ و ٣٦٩١ كلهم من حديث أبي بن كعب.

---

(١) انظر لفظه برقم ٦٤٢٠.

إنها الليلة الأولى من الشهر؛ قاله أبو رَزِين العُقَيلي. وقال الحسن وابن إسحاق وعبد الله بن الزُّبير: هي ليلة سبع عشرة من رمضان، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدْر. كأنهم نزعوا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وكان ذلك ليلة سبع عشرة، وقيل هي ليلة التاسع عشر. والصحيح المشهور: أنها في العشر الأواخر من رمضان؛ وهو قول مالك والشافعيّ والأوزاعيّ وأبي ثور وأحمد. ثم قال قوم: هي ليلة الحادي والعشرين. ومال إليه الشافعيّ رضي الله عنه، لحديث الماء والطين ورواه أبو سعيد الخُدْرِيّ، خرجه مالك وغيره. وقيل: ليلة الثالث والعشرين؛ لما رواه ابن عمر:

[٦٤١٨] أن رجلاً قال: يا رسول الله إني رأيت ليلة القدر في سابعة تبقى. فقال النبيّ ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين، فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقم ليلة ثلاث وعشرين». قال معمر: فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طِيباً. وفي صحيح مسلم:

[٦٤١٩] أن النبيّ ﷺ قال: «إني رأيت أني أسجد في صبيحتها في ماء وطين». قال عبد الله بن أنيس: فرأيته في صبيحة ليلة ثلاث وعشرين في الماء والطين، كما أخبر رسول الله ﷺ. وقيل: ليلة خمس وعشرين؛ لحديث أبي سعيد الخدرِيّ:

[٦٤٢٠] أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى، في

[٦٤١٨] صحيح. أخرجه مالك ١/٣٢١ والبخاري ٢٠١٥ ومسلم ١١٦٥ وأحمد ٢/٨ ـ ٣٦ وعبد الرزاق ٧٦٨١ و ٧٦٨٨ والدارمي ٢/٢٨ وابن خزيمة ٢١٨٢ وابن حبان ٣٦٧٥ كلهم من حديث ابن عمر.

[٦٤١٩] صحيح. أخرجه مالك ١/ ٣٢٠ ومسلم ١١٦٨ من حديث عبد الله بن أنس الجهني.

[٦٤٢٠] صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٢١ من حديث ابن عباس ولم أره بهذا اللفظ لا في الموطأ ولا في مسلم. وحديث أبي سعيد مشهور أخرجه مالك ١/٣١٩ والبخاري ٢٠١٨ و٢٠٢٧ و ٢٠٤٠ و ٦٩٩١ ومسلم ١١٦٥ من وجوه، وأبو داود ١٣٨٢ وأحمد ٣/٧ ـ ٢٤ والحميدي ٧٥٦ وعبد الرزاق ٧٦٨٨ والدارمي ٢/٢٨ والنسائي ٣/٧٩ ـ ٨٠ والطيالسي ٢١٧٨ وابن أبي شيبة ٣/٧٦ ـ ٧٧ وأبو يعلىٰ ١١٥٨ وابن خزيمة ٢٢٤٣ وابن حبان ٣٦٧٣ و ٣٦٧٤ كلهم من حديث أبي سعيد، بألفاظ متقاربة ولفظ مالك، ورواية للبخاري، ومسلم «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الوسط من رمضان، فاعتكف عاماً حتى إذا كان ليلة إحدىٰ وعشرين، وهي الليلة التي يخرج فيها من صبحها بن اعتكافه قال: من اعتكف معي، فليعتكف العشر الأواخر، وقد رأيت هذه الليلة، ثم أُنسيتها، وقد رأيتني أسجد من صبحها في ماء وطين، فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كل وتر. قال أبو سعيد: فأمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد علىٰ عريش، =

سابعة تبقى، في خامسة تبقىٰ». رواه مسلم، قال مالك: يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين، والخامسة ليلة خمس وعشرين. وقيل: ليلة سبع وعشرين. وقد مضى دليله، وهو قول عليّ رضي الله عنه وعائشة ومعاوية وأبيّ بن كعب. وروى ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

[٦٤٢١] «من كان متحرياً ليلة القدر، فليتحرّها ليلة سبع وعشرين». وقال أبيّ بن كعب:

[٦٤٢٢] سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليلة القدر ليلة سبع وعشرين». وقال أبو بكر الوراق: إن الله تعالى قسم ليالي هذا الشهر ـ شهر رمضان ـ على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال: هي. وأيضاً فإن ليلة القدر كُرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فتجيء سبعاً وعشرين. وقيل؛ هي ليلة تسع وعشرين؛ لما روِي:

[٦٤٢٣] أن النبيّ ﷺ قال: «ليلة القدر التاسعة والعشرون ـ أو السابعة والعشرون ـ وأن الملائكة في تلك الليلة بعدد الحصى». وقد قيل: إنها في الأشفاع[1]. قال الحسن: ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين عشرين سنة، فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها. يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة. وقيل إنها مستورة في جميع السنة؛ ليجتهد المرء في إحياء جميع الليالي. وقيل: أخفاها في جميع شهر رمضان، ليجتهدوا في العمل والعبادة ليالي شهر رمضان، طمعاً في إدراكها؛ كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات، واسمه الأعظم في أسمائه الحسنى، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة وساعات الليل، وغضبه

= فوكف المسجد قال أبو سعيد: فأبصرت عيناي رسول الله ﷺ انصرف، وعلىٰ جبهته، وأنفه أثر الماء، والطين من صبح ليلة إحدىٰ وعشرين». هذا لفظ مالك بحرفيته، ورواه عنه البخاري ومسلم، وورد بألفاظ مختلفة بنحوه، والله الموفق.

[٦٤٢١] صحيح. أخرجه مسلم ١١٦٥ ح ٢٠٧ وأحمد ٢/ ٢٧ من حديث ابن عمر، وانظر فتح الباري ٤/ ٢٦٤.

[٦٤٢٢] صحيح. أخرجه مسلم ٧٦٢ من حديث أبي بن كعب بأتم منه وقد تقدم برقم: ٦٤١٧ وهو عند أحمد ٥/ ٣٢ بمثل سياق المصنف.

[٦٤٢٣] أخرجه أحمد ٢/ ٥١٩ من حديث أبي هريرة ورجاله رجال البخاري ومسلم سوىٰ أبي ميمونة، وهو ثقة، وانظر المجمع ٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦

---

(١) الجمهور علىٰ أنها في الوتر.

في المعاصي، ورضاه في الطاعات، وقيام الساعة في الأوقات، والعبد الصالح بين العباد؛ رحمة منه وحكمة.

الثانية: في علاماتها: منها أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. وقال الحسن:

[٦٤٢٤] قال النبيّ ﷺ في ليلة القدر: «إن من أماراتها: أنها ليلة سَمْحَة بَلْجَة، لا حارّة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع». وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر، فأخذت من مائه، فوجدته عذباً سلِساً.

الثالثة: في فضائلها. وحسبك بقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾. وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾. وفي الصحيحين:

[٦٤٢٥] «مَنْ قام ليلةَ القَدْر إيماناً واحتساباً غَفَر اللَّهُ له ما تَقَدَّم من ذَنْبه» رواه أبو هريرة. وقال ابن عباس:

[٦٤٢٦] قال النبيّ ﷺ: «إذا كان ليلةَ القدْرِ، تَنَزَّلَ الملائكةُ الَّذينَ هم سُكان سِدرة المُنْتَهى، منهمْ جبريلُ، ومعهم أَلْوِيةٌ يُنْصَبُ منها لواءٌ على قبري، ولواء على بيت المقدس، ولواء على المسجد الحرام، ولواء على طُور سَيْناء، ولا تَدَعُ فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلاّ تُسَلِّم عليه، إلا مُدْمِن الخمر، وآكِلَ الخِنزيرِ، والمتَضَمِّخ بالزعفران»: وفي الحديث:

[٦٤٢٧] «إن الشيطانَ لا يخرجُ في هذه الليلة حتّى يُضيءَ فجرها، ولا يستطيعُ أن

[٦٤٢٤] أخرجه ابن أبي شيبة كما في الدر ٦/ ٦٣٣ عن الحسن مرسلاً، وعجزه صحيح جاء في حديث أبي بن كعب أخرجه مسلم ٧٦٢ وقد تقدم.
وصدره أخرجه ابن خزيمة ٢١٩٢ والبزار ١٠٣٤ من حديث ابن عباس، وفيه سلمة بن وهرام فيه كلام، وقد وثقه ابن حبان وغيره، وحديثه حسن في الشواهد. والخبر صحيح.

[٦٤٢٥] صحيح. أخرجه البخاري ١٩٠١ و ٢٠١٤ ومسلم ٧٦٠ ح ١٧٥ من حديث أبي هريرة وفي الباب عن عائشة.

[٦٤٢٦] لم أجده وأمارة الوضع لائحة عليه والظاهر أن المصنف أخذه عن الثعلبي، فإنه يتفرد برواية الأحاديث الموضوعة.

[٦٤٢٧] لم أره بهذا التمام. وصدره أخرجه ابن خزيمة ٢١٩٠ من حديث جابر، وإسناده ضعيف، لكن ورد من حديث عبادة بن الصامت أخرجه أحمد ٣/ ٣٤٢ في حديث مطول وآخره «ولا يحل لكوكب أن يرمىٰ به فيها، وإن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع، لا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ» وقال الهيثمي: رجال أحمد ثقات، ولوسطه شاهد ذكره الحافظ في=

يصيب فيها أحداً بخَبْل ولا شيء من الفساد، ولا ينفذ فيها سحر ساحر». وقال الشعبيّ: وليلُها كيومها، ويومها كليلها. وقال الفراء: لا يقدّر اللَّهُ في ليلة القَدْر إلا السعادة والنعم، ويقدِّر في غيرها البلايا والنقم؛ وقد تقدّم عن الضحاك. ومثله لا يقال من جهة الرأي، فهو مرفوع[1]. والله أعلم. وقال سعيد بن المسيب في الموطأ: مَنْ شهِد العشاءَ من ليلة القدْر، فقد أخذ بحظّه منها، ومثله لا يُدْرك بالرأي. وقد رَوَى عُبَيد الله بن عامر بن ربيعة:

[٦٤٢٨] أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر في جماعة فقد أخذ بحظه من ليلة القدر» ذكره الثعلبي في تفسيره. وقالت عائشة رضي الله عنها:

[٦٤٢٩] قلت: يا رسول الله إن وافقتُ ليلةَ القدْرِ فما أقول؟ قال: «قُولي اللهم إنك عفُوٌّ تُحِبّ العفوَ فاعفُ عنِّي».

تفسير سورة لم يكن

وهي مكية في قول يحيى بن سلاّم. ومدنِية؛ في قول ابن عباس والجمهور. وهي تسع آيات.

وقد جاء في فضلها حديث لا يصحّ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرمِيّ قال: قال لي أبو عبد الرحمن بن نُمَير: اذهب إلى أبي الهيثم الخشاب، فاكتب عنه فإنه قد

= الفتح ٤/ ٢٦٠ فقال: وروىٰ ابن أبي حاتم من طريق مجاهد «لا يرسل فيها شيطان، ولا يحدث فيها داء» اهـ وأما عجزه فلم أره بعد والله أعلم.

[٦٤٢٨] ضعيف عزاه المصنف بهذا اللفظ للثعلبي، وقد أخرجه ابن خزيمة ٢١٩٥ والبيهقي في «الشعب» ٣٧٠٦ من حديث أبي هريرة بلفظ «من صلىٰ العشاء الآخرة في جماعة في رمضان، فقد أدرك ليلة القدر» وإسناده ضعيف لجهالة عقبة بن أبي الحسناء.
وكرره البيهقي ٣٧٠٧ من حديث أنس وزاد فيه «من صلىٰ المغرب، والعشاء...» وفي إسناده يحيىٰ بن عقبة، وهو متروك.

[٦٤٢٩] صحيح. أخرجه الترمذي ٣٥٠٨ والنسائي في «اليوم والليلة» ٨٧٢ وابن ماجة ٣٨٠٥ وأحمد ٦/ ١٧١ ـ ١٨٢ ـ ٢٥٨ والحاكم ١/ ٥٣٠ كلهم من حديث عائشة، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وكذا صححه النووي في الأذكار ٤٨٧ وقال الترمذي: حسن صحيح.

---

(١) لكن الضحاك وغيره كثير الأخذ عن الإسرائيليات.

كتب؛ فذهب إليه، فقال: حدّثنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي الدرداء، قال:

[٦٤٣٠] قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في لَمْ يَكُنِ الذين كفروا مِن أهل الكِتابِ، لعطَّلوا الأهل والمال، فتعلموها» فقال رجل من خزاعة: وما فيها من الأجر يا رسول الله؟ قال: «لا يقرؤها منافق أبداً، ولا عبد في قلبه شك في الله. والله إن الملائكة المقربين يقرؤونها مُنذُ خَلَقَ الله السموات والأرضَ ما يَفْتُرُون من قراءتها. وما من عبدٍ يقرؤها إلا بعث الله ملائكة يحفظونه في دينه ودنياه، ويدعون له بالمغفرة والرحمة». قال الحَضرميّ: فجئت إلى أبي عبد الرحمن بن نُمير، فألقيت هذا الحديث عليه، فقال: هذا قد، كفانا مؤونته، فلا تعد إليه. قال ابن العربيّ: «روى إسحاق بن بشر الكاهلي عن مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيّب: عن أبي الدرداء، عن النبيّ ﷺ:

[٦٤٣١] «لو يعلم الناس ما في «لم يكن الذين كفروا» لعطلوا الأهل والمال ولتعلموها». حديث باطل؛ وإنما الحديث الصحيح ما روي عن أنس:

[٦٤٣٢] أن النبيّ ﷺ قال لأبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾» قال: وسماني لك!؟ قال: «نعم» فبكى.

قلت: خرّجه البخاري ومسلم. وفيه من الفقه قراءة العالِم على المتعلم. قال بعضهم: إنما قرأ النبيّ ﷺ على أُبيّ، ليعلم الناس التواضع؛ لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة. وقيل: لأن أبياً كان أسرع أخذاً لألفاظ رسول الله ﷺ؛ فأراد بقراءته عليه، أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه، ويعلم غيره. وفيه فضيلة عظيمة

[٦٤٣٠] باطل. إسناده ساقط فيه الهيثم بن خالد الخشاب متهم بالكذب، وذكره الذهبي في ميزانه ٤/ ٣٢٢ بهذا الحديث، وقال: قال ابن نمير: هذا رجل قد كفانا مؤنته. قال الذهبي: لأنه روىٰ الباطل اهـ أي أن بطلانه، واضح لا يخفىٰ، وحكم ابن عراق في التنزيه ١/ ٢٩٥ بوضعه.

[٦٤٣١] باطل. ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٩٥ فقال: أخرجه أبو الشيخ من حديث أبي الدرداء، وفيه إسحق بن بشر الكاهلي، اهـ وعبارة ابن عراق كما هو مصطلحه، تدل علىٰ أن الحديث موضوع، وهو كما قال، فإن إسحق بن بشر كذبه جماعة راجع الميزان ١/ ١٨٤ـ ١٨٥ وحكم ابن العربي ببطلانه.

[٦٤٣٢] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٥٩ و ٤٩٦٠ ومسلم ٧٩٩ وأحمد ٣/ ١٨٥ وابن سعد ٢/ ٣٤٠ وعبد الرزاق ٢٠٤١١ والترمذي ٣٧٩٢ وأبو يعلىٰ ٢٩٩٥ وابن حبان ٧١٤٤ من طرق كلهم من حديث أنس به.

لأبيّ؛ إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه. قال أبو بكر الأنباري: وحدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد، قال حدّثنا علي بن الجعد، قال حدثنا عكرمة عن عاصم عن زرّ بن حبيش قال: في قراءة أبيّ بن كعب: ابن آدم لو أعطِي وادياً من مال لالتمس ثانياً ولو أعطي واديين من مال لالتمس ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب. قال عكرمة: قرأ عليَّ عاصم «لم يَكُنْ» ثلاثين آية، هذا فيها. قال أبو بكر[1]: هذا باطل عند أهل العلم؛ لأن قراءتي ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبيّ بن كعب، لا يُقْرأ فيهما هذا المذكور في «لم يكن» مما هو معروف في حديث رسول الله ﷺ، على أنه من كلام الرسول عليه السلام، لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن. وما رواه اثنان معهما الإجماع، أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كذا قراءة العامة، وخَطُّ المصحف. وقرأ ابن مسعود «لَمْ يَكُنِ المُشْرِكونَ وأهْلُ الكِتابِ مُنْفَكِّينَ» وهذه قراءة على التفسير. قال ابن العربيّ: «وهي جائزة في مَعرِض البيان، لا في مَعْرِض التلاوة؛ فقد قرأ النبيّ ﷺ في رواية الصحيح «فَطَلِّقُوهنّ لِقبُل عِدّتهِن»[2] وهو تفسير؛ فإنّ التلاوة: هو ما كان في خطّ المصحف».

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني اليهود والنصارى. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في موضع جر عطفاً على «أهل الكتاب». قال ابن عباس: «أهل الكتابِ»: اليهود الذين كانوا بيثرِب، وهم قُرَيظة والنَّضِير وبنو قَيْنُقاع. والمشركون: الذين كانوا بمكة وحولها، والمدينة والذين حولها؛ وهم مشركو قريش. ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي منتهين عن كفرهم، مائلين عنه. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ أي أتتهم البينة؛ أي محمد ﷺ. وقيل: الانتهاء بلوغ الغاية؛ أي لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا، حتى تأتيهم البينة. فالانفكاك على هذا بمعنى الانتهاء. وقيل: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ زائلين؛ أي لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول. والعرب تقول: ما انفككتُ أفعل كذا: أي ما زلت. وما انفك فلان قائماً: أي ما زال

---

(١) أي ابن العربي. لأن هذه السورة تسع آيات فقط.

(٢) تقدم تخريجه.

قائماً. وأصل الفَكّ: الفتح؛ ومنه فك الكتاب، وفَكُّ الخَلخال، وفك السالم[1]. قال طَرَفة:

فـآلَيـتُ لا ينفَـكُّ كَشْحِـي بطـانـةً لِعَضْـبٍ رقيـق الشَّفْـرَتَيْـنِ مُهَنَّـدِ[2]

وقال ذو الرمة:

حَـرَاجِيـجُ مـا تَنْفـكُّ إلاَّ مُنـاخـةً على الخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بهَا بَلداً قفرا[3]

يريد: ما تنفك مناخة؛ فزاد «إلاَّ». وقيل: «مُنفَكِّين»: بارحين؛ أي لم يكونوا ليبرحوا ويفارقوا الدنيا، حتى تأتيهُمُ البينةُ. وقال ابن كيسان: أي لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ في كتابهم، حتى بُعِث؛ فلما بُعث حسدوه وجحدوه. وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]. ولهذا قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾... الآية. وعلى هذا فقوله: ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ما كانوا يسيئون القول في محمد ﷺ، حتى بُعِث؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين، حتى أتتهم البينة على لسانه، وبُعث إليهم، فحينئذٍ عادَوْه. وقال بعض اللغويين: ﴿مُنفَكِّينَ﴾: هالكين؛ من قولهم: ٱنْفَكَّ صَلاَ[4] المرأةِ عند الولادة؛ وهو أن ينفصل، فلا يلتئم فتهلك. المعنى: لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب. وقال قوم في المشركين: إنهم من أهل الكتاب؛ فمن اليهود من قال: عُزيرٌ ابن الله. ومن النصارى من قال: عيسى هو الله. ومنهم من قال: هو ابنه. ومنهم من قال: ثالث ثلاثة. وقيل: أهل الكتاب كانوا مؤمنين، ثم كفروا بعد أنبيائهم. والمشركون وُلِدوا على الفِطرة، فكفروا حين بلغوا. فلهذا قال: ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وقيل: المشركون وصف أهل الكتاب أيضاً، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم، وتركوا التوحيد. فالنصارى مُثَلِّثة، وعامة اليهود مُشَبِّهة؛ والكُل شِركٌ. وهو كقولك: جاءني العقلاء والظرفاء؛ وأنت تريد أقواماً بأعيانهم، تصفهم بالأمرين. فالمعنى: من أهل الكتاب المشركين. وقيل: إن الكفر هنا هو الكفر بالنبيّ ﷺ؛ أي لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى، الذين هم أهل الكتاب، ولم يكن المشركون الذين هم عَبَدَةُ الأوثان من العرب وغيرهم ـ وهم الذين ليس لهم كتاب ـ مُنْفَكِّين. قال القشيريّ: وفيه بعد؛ لأن الظاهر من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ

---

(١) وفي تفسير الثعلبي: «وفك السالم، وهي حروف الفطن قال طرفة..» وفي العبارة غموض.

(٢) العضب: السيف القاطع. وسيف مهند: صنع في بلاد الهند.

(٣) الحراجيج: الناقة الطويلة الضامرة.

(٤) الصَّلا: وسط الظهر من الإنسان.

﴿ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أن هذا الرسول هو محمد ﷺ. فيبعد أن يُقال: لم يكن الذين كفروا بمحمد ﷺ منفكين حتى يأتيهم محمد؛ إلا أن يقال: أراد: لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد ـ وإن كانوا من قبل مُعَظِّمين له، بمنتهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث الله محمداً إليهم، ويبيّن لهم الآيات؛ فحينئذٍ يؤمن قوم. وقرأ الأعمش وإبراهيم «والمشركُونَ» رفعاً، عطفاً على «الذين. والقراءة الأولى أبين؛ لأن الرفع يصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب. وفي حرف أبيّ: «فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكين». وفي مصحف ابن مسعود: «لم يكنِ المشركون وأهلُ الكتابِ منفكِّين». وقد تقدم. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ قيل حتى أتتهم. والبَيِّنة: محمد ﷺ. ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بعيث من الله جل ثناؤه. قال الزَّجَّاج: «رسول» رفع على البدل من «البينة». وقال الفراء: أي هي رسول من الله، أو هو رسول من الله؛ لأن البينة قد تذكر فيقال: بينتي فلان. وفي حرف أُبيّ وابن مسعود «رَسُولاً» بالنصب على القطع. ﴿يَتْلُواْ﴾ أي يقرأ. يقال: تلا يتلو تلاوة. ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب. ﴿مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ قال ابن عباس: من الزور، والشك، والنفاق، والضلالة. وقال قتادة: من الباطل. وقيل: من الكذب، والشُّبُهات، والكفر؛ والمعنى واحد. أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب؛ ويدل عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب؛ لأنه كان أمّيا، لا يكتب ولا يقرأ. و﴿مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾: من نعت الصحف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٤]، فالمطهرة نعت للصحف في الظاهر، وهي نعت لما في الصحف من القرآن. وقيل: «مطهرة» أي ينبغي ألا يَمَسَّها إلا المطهرون؛ كما قال في سورة «الواقعة» حسب ما تقدّم بيانه. وقيل: الصحف المطهرة: هي التي عند الله في أمّ الكتاب، الذي منه نُسِخ ما أنزل على الأنبياء من الكتب؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]. قال الحسن: يعني الصحف المطهرة في السماء. ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ أي مستقيمة مستوية محكمة؛ من قول العرب: قام يقوم: إذا استوى وصح. وقال بعض أهل العلم: الصحف هي الكتب؛ فكيف قال في صحف فيها كُتب؟ فالجواب: أن الكتب هنا: بمعنى الأحكام؛ قال الله عز وجل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١] بمعنى حكم. وقال ﷺ:

[٦٤٣٣] «والله لأقضِين بينكما بكتاب الله» ثم قضى بالرجم، وليس ذِكر الرجم

[٦٤٣٣] متفق عليه، وتقدم.

مسطوراً في الكتاب؛ فالمعنى لأقضين بينكما بحكم الله تعالى. وقال الشاعر:

وما الولاءُ بالبلاءِ فمِلْتُمُ   وما ذاكَ قال اللَّهُ إذ هو يَكْتُبُ

وقيل: الكتب القيمة: هي القرآن؛ فجعله كتباً لأنه يشتمل على أنواع من البيان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي من اليهود والنصارى. خصّ أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهمْ مظنون بهم عِلم؛ فإذا تفرّقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف. ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ أي أتتهم البينة الواضحة. والمعنِيّ به محمد ﷺ؛ أي القرآن موافقاً لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته. وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوّته؛ فلما بعِث جحدوا نبوّته وتفرّقوا، فمنهم من كفر بغياً وحسداً، ومنهم من آمن؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]. وقيل: «البينة»: البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل. قال العلماء: مِن أوّل السورة إلى قوله «قَيِّمَةٌ»: حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين. وقوله: «وما تفرق»: حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي وما أمِر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي ليوحدوه. واللام في «لِيعبدوا» بمعنى «أن»؛ كقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي أن يبين. و﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]. و﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١]. وفي حرف عبد الله: «وما أُمِروا إلاَّ أنْ يَعبدوا الله». ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي العبادة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ١١]. وفي هذا دليل على وجُوب النية في العبادات؛ فإن الإخلاص مِن عمل القلب، وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره.

الثانية: قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها، إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: حُنفاء: على دِين إبراهيم عليه السلام. وقيل: الحَنِيف: من اختتن وحج؛ قاله سعيد بن جبير. قال أهل اللغة: وأصله أنه تَحَنَّفَ إلى الإسلام؛ أي مال إليه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي بحدودها في أوقاتها. ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي يُعطوها عند محلها. ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝﴾ أي ذلك الدين الذي أُمِروا به دين القَيِّمة؛ أي الدين المستقيم. وقال الزجاج: أي ذلك دِين المِلَّة المستقيمة. و«القَيِّمة»: نعت لموصوف محذوف. أو يقال: دِين الأمة القَيِّمة بالحق؛ أي القائمة بالحقّ. وفي حرف عبد الله «وذلك الدين القَيِّم». قال الخليل: «القَيِّمة» جمع القيم، والقيم والقائم واحد. وقال الفراء: أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته، لاختلاف اللفظين. وعنه أيضاً: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة. وقيل: الهاء راجعة إلى الملة أو الشريعة. وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: «القَيِّمة» هاهنا: الكتب التي جرى ذكرها، والدين مضاف إليها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ «المشركين»: معطوف على «الَّذين»، أو يكون مجروراً معطوفاً على «أهل». ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ قرأ نافع وابن ذَكوان بالهمز على الأصل في الموضعين؛ من قولهم: بَرأ الله الخلق، وهو البارىء الخالق، وقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]. الباقون بغير همز. وشدّ الياء عِوضاً منه. قال الفَرّاء: إن أُخذت البَرِيَّة من البَرَى، وهو التراب، فأصله غير الهمز؛ تقول منه: بَرَاه اللَّهُ يبرُوه بَرْواً؛ أي خلقه. قال القُشَيْرِيّ: ومن قال البَرِية من البَرَى، وهو التراب، قال: لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل: البَرِيَّة: مِن بَرَيْت القلمَ، أي قَدَّرته؛ فتدخل فيه الملائكة. ولكنه قول ضعيف؛ لأنه يجب منه تخطئة من هَمَز. وقوله: «شَرُّ البَرِيّة» أي شر الخليقة. فقيل يحتمل أن يكون على التعميم. وقال قوم: أي هم شر البرية الذين كانوا في عصر النبيّ ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾ [البقرة: ٤٧] أي على عالَمِي زمانكم. ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل هذا من هُو شر منهم؛ مثل فرعون وعاقر ناقة صالح. وكذا «خَيْرُ البَرِيّة»: إمّا على التعميم، أو خير بَرِيّةِ عصرهم. وقد استدل بقراءة الهمز من فضّل بني آدم على الملائكة، وقد مضى في سورة «البقرة» القول فيه. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: المؤمنُ أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة الذين عنده.

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ أي ثوابهم. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي خالقهم ومالكهم. ﴿جَنَّٰتُ﴾ أي بساتين. ﴿عَدْنٍ﴾ أي إقامة. والمفسرون يقولون: «جَناتُ عَدْنٍ» بُطْنانُ الجَنَّةِ، أي وَسَطُها؛ تقول: عَدَن بالمكان يَعْدِن عَدْنا وعُدُونا: أقام. ومعدِن الشيء: مَرْكزه ومستقرُّه. قال الأعشى:

وإنْ يُسْتضافوا إلى حُكْمِهِ ... يُضافُوا إلى رَاجِح قَدْ عَدَنْ

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يَظْعَنون ولا يموتون. ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي رضِي أعمالهم؛ كذا قال ابن عباس. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي رَضُوا هم بثواب الله عز وجل. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الجنة. ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ أي خاف ربّه، فتناهى عن المعاصي.

سورة الزلزلة

مدنية، في قول ابن عباس وقتادة. ومكية؛ في قول ابن مسعود وعطاء وجابر. وهي تسع آيات.

قال العلماء: وهذه السورة فضلها كثير، وتحتوي على عظيم، رَوَى الترمذيّ عن أنس بن مالك قال:

[٦٤٣٤] قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، عدلت له بنصف القرآن. ومن قرأ «قل يَأَيُّها الكافِرونَ» عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ «قُلْ هو الله أحد» عدلت له بثُلُث القُرْآن». قال: حديث غريب، وفي الباب عن ابن عباس. ورُوِي عن عليّ رضي الله عنه قال:

[٦٤٣٥] قال رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت أربع مرات، كان كمن قرأ القرآن

[٦٤٣٤] أخرجه الترمذي ٢٨٩٣ من حديث أنس وإسناده ضعيف فيه الحسن بن سالم مجهول. وكرره الترمذي ٢٨٩٤ من حديث ابن عباس، واستغربه، وفيه يمان بن المغيرة منكر الحديث قاله البخاري، وقال يحيىٰ: ليس بشيء. وكرره ٢٨٩٥ من حديث أنس، وفيه سلمة بن وردان قال عنه أبو حاتم: عامة حديثه عن أنس منكر، ووجدت له شاهداً آخر أخرجه ابن السني في «اليوم والليلة» ٦٨٦ وإسناده ضعيف، فالحديث ضعيف من كافة طرقه، وبعضها أشد ضعفاً من بعض والمنكر فيه ذكر «إذا زلزلت» أما بقية السور فقد ورد فيها أحاديث أخرىٰ، وبخاصة سورة الإخلاص، فقد ورد فيها أحاديث متفق عليها، وستأتي إن شاء الله.

[٦٤٣٥] ضعيف جداً، أخرجه الثعلبي كما في «تخريج الكشاف» ٤/ ٧٨٥ من حديث علي، وقال ابن حجر: فيه أبو القاسم الطائي، وهو ساقط.

كله». وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال:

[٦٤٣٦] لما نزلت «إِذَا زُلْزِلَت» بكى أبو بكر؛ فقال النبيّ ﷺ: «لَوْلاَ أَنَّكُمْ تُخْطِئُون وتُذْنبون ويغفِر اللَّهُ لَكُم، لَخَلَق أمة يُخْطئون ويذنبون ويغفر لهم، إنه هو الغفورُ الرَّحيم».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)﴾.

أي حرّكت من أصلها. كذا رَوى عِكْرِمة عن ابن عباس، وكان يقول: في النفخة الأولى يزلزلها ـ وقاله مجاهد ـ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧)﴾ [النازعات: ٦ ـ ٧] ثم تزلزل ثانية، فتُخرج موتاها وهي الأثقال. وذُكِر المصدر للتأكيد، ثم أضيف إلى الأرض؛ كقولك: لأُعطينَّك عطِيتك؛ أي عطيتي لك. وحسن ذلك لموافقة رؤوس الآي بعدها. وقراءة العامة بكسر الزاي من الزلزال. وقرأ الجحدرِيّ وعيسى بن عمر بفتحها، وهو مصدر أيضاً، كالوَسواس والقلقال والجَرْجار[١]. وقيل: الكسر المصدر. والفتح الاسم.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾.

قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثِقل لها. وإذا كان فوقها ، فهو ثِقل عليها. وقال ابن عباس ومجاهد: «أثقالها»: موتاها، تُخرجهم في النفخة الثانية، ومنه قيل للجن والإنس: الثَّقَلان. وقالت الخنساء:

أبعد ابنِ عمرٍو من آلِ الشَّرِ ... يدِ حَلَّتْ به الأرضُ أثقالها

تقول: لما دفن عمرو صار حِلية لأهل القبور، من شرفه وسؤدده. وذكر بعض أهل العلم قال: كانت العرب تقول: إذا كان الرجل سفاكاً للدماء: كان ثِقلاً على ظهر الأرض؛ فلما مات حَطّت الأرض عن ظهرها ثِقْلها. وقيل: ﴿أَثْقَالَهَا (٢)﴾ كنوزها؛ ومنه الحديث: «تقيء الأرض أفلاذَ كبِدِها أمثال الأسطوان[٢] من الذهب والفضة...».

[٦٤٣٦] أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٧/ ١٤١ برقم ١١٥١٢ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال الهيثمي: فيه حُييّ بن عبد الله المعافري، وثقه يحيىٰ وغيره، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ ولعجزه شواهد تقويه.

---

(١) الجرجار: من جرجر البعير إذا ردد صوته في حنجرته.

(٢) جمع أسطوانة: وهي السارية، أو العمود.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي ابن آدم الكافر. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هو الأسود بن عبد الأسد. وقيل: أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة في النفخة الأولى: من مؤمن وكافر. وهذا قول من جعلها في الدنيا من أشراط الساعة؛ لأنهم لا يعلمون جميعاً مِن أشراط الساعة في ابتداء أمرها، حتى يتحققوا عمومها؛ فلذلك سأل بعضهم بعضاً عنها. وعلى قول من قال: إن المراد بالإنسان الكفار خاصة؛ جعلها زلزلة القيامة؛ لأن المؤمن معترف بها، فهو لا يَسأل عنها، والكافر جاحد لها، فلذلك يَسأل عنها. ومعنىٰ ﴿مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ أي مالها زُلْزلت. وقيل: ما لها أَخْرَجَتْ أثقالها، وهي كلمة تعجيب؛ أي لأيّ شيء زلزلت. ويجوز أن يحيي الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى، ثم تتحرّك الأرض فتخرج المَوْتَى وقد رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء، فيقولون من الهول: مالَهَا.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ «يومئِذٍ» منصوب بقوله «إذا زلزِلت». وقيل: بقوله: «تُحَدِّثُ أَخْبارها»؛ أي تخبر الأرضُ بما عُمِل عليها من خير أو شر يومئذٍ. ثم قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: مِن قول الإنسان؛ أي يقول الإنسان مالها تحدّث أخبارها؛ متعجباً. وفي الترمذيّ عن أبي هريرة قال:

[٦٤٣٧] قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ قال: «أتدرُون ما أخبارُها ـ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أَمَة بما عَمِل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا» قال: «فَهَذِهِ أَخْبارُها». قال: هذا حديث حسن صحيح. قال الماورديّ، قوله ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾: فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ بأعمال العباد على ظهرها؛ قاله أبو هريرة، ورواه

[٦٤٣٧] أخرجه الترمذي ٣٣٥٣ والنسائي في «الكبرىٰ» ١١٦٩٣ والبغوي ٤/٤٨٣ والحاكم ٢/٥٣٢ من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: يحيىٰ هذا ـ هو ابن أبي سليمان ـ قال البخاري: منكر الحديث ا هـ. قلت: وإن قال عنه البخاري منكر الحديث، فقد خالفه أبو حاتم، فقال: يكتب حديثه ليس هو بالقوي. ووثقه ابن حبان، كما في الميزان ٤/٣٨٣ وقال الحافظ في التقريب: لين الحديث. وعلىٰ هذا، فالحديث ضعفه محتمل، والله أعلم.

مرفوعاً[1]. وهو قول من زعم أنها زَلْزلة القيامة.

الثاني: تُحَدّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها؛ قاله يحيى بن سلام. وهو قول من زعم أنها زَلزلة أشراط الساعة.

قلت: وفي هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[٦٤٣٨] «إذا كان أجلُ العبد بأرض أَوثَبَتْه الحاجة إليها، حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله، فتقول الأرض يوم القيامة: رَبِّ هذا ما استودعتني». أخرجه ابن ماجه في سُنَنه. وقد تقدم.

الثالث: أنها تُحَدّث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لَها؟ قاله ابن مسعود. فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى. فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم، ووعيداً للكافر، وإنذاراً للمؤمن. وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الله تعالى يَقْلِبها حيواناً ناطقاً؛ فتتكلم بذلك.

الثاني: أن الله تعالى يُحْدِث فيها الكلام.

الثالث: أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام. قال الطبريّ: تُبين أخبارها بالرجَّة والزلزلة وإخراج الموتى. ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ أي إنها تحدّث أخبارها بوحي الله «لها»، أي إليها. والعربُ تضع لام الصفة موضع «إلى». قال العجّاج يصف الأرض:

وَحَى لَها القَرَار فاستَقَرّتِ وشَدَّها بالرّاسيات الثبَّتِ

وهذا قول أبي عبيدة: «أوحىٰ[2] لها» أي إليها. وقيل: «أوْحَىٰ لها» أي أمرها؛ قاله مجاهد. وقال السدّي: «أَوْحَى لها» أي قال لها. وقيل: سخرها. وقيل: المعنى يوم تكون الزلزلة، وإخراج الأرض أثقالها، تحدث الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عمل على ظهرها من خير وشر. ورُوي ذلك عن الثوريّ وغيره. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي فِرقاً؛ جمع شَتّ. قيل: عن موقف الحساب؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم: ٤٣]. وقيل: يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب. ﴿أَشْتَاتًا﴾ يعني فِرقاً فِرقاً.

[٦٤٣٨] تقدم تخريجه.

---

(١) هو المتقدم.

(٢) في الأصل «أحىٰ» وهو تصحيف.

﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾ يعني ثواب أعمالهم. وهذا كما رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦٤٣٩] «ما من أحدٍ يوم القيامة إلاّ وَيَلُومُ نفسه، فإن كان محسِناً فيقول: لم لا ازددت إحساناً؟ وإن كان غير ذلك يقول: لم لا نَزَعت عن المعاصي»؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب. وكان ابن عباس يقول: «أَشْتاتاً» متفرقين على قدر أعمالهم أهل الإيمان على حِدة، وأهل كل دين على حدة. وقيل: هذا الصدور، إنما هو عند النشور؛ يَصْدُرون أشتاتاً من القبور، فيصار بهم إلى موقف الحساب، ليروا أعمالَهم في كتبهم، أو ليروا جزاء أعمالهم؛ فكأنهم وردوا القبور فدفِنوا فيها، ثم صدروا عنها. والوارد: الجائي. والصادر: المنصرف. ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي يبعثون من أقطار الأرض. وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير؛ مجازه: تحدّث أخبارها، بأن ربك أوحى لها، ليروا أعمالهم. واعترض قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين عن موقف الحساب. وقراءة العامة «لِيُرَوا» بضم الياء؛ أي لِيريَهُم الله أعمالهم. وقرأ الحسن والزهريّ وقتادة والأعرج ونصر بن عاصم وطلحة بفتحها؛ وروي ذلك عن النبيّ ﷺ[1].

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ كان ابن عباس يقول: مَن يعمل من الكفار مثقال ذرّة خيراً يَرَهُ في الدنيا، ولا يُثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرّة من شر عُوقب عليه في الآخرة، مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يَرَهُ في الدنيا، ولا يعاقَبْ عليه في الآخرة إذا مات، ويُتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرّة من خير يُقْبلْ منه، ويضاعفْ له في الآخرة. وفي بعض الحديث: «الذرّة لا زِنة لها»[2] وهذا مَثَلٌ ضَرَبه الله تعالى: أنه لا يُغْفِل من عمل ابن آدم صغيرةً ولا كبيرة. وهو مِثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. وقد

[٦٤٣٩] أخرجه الترمذي ٢٤٠٣ وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٧٨ من حديث أبي هريرة مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه، وإسناده ضعيف، فيه يحيىٰ بن عبيد الله متروك.
قال الترمذي: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، ويحيىٰ بن عبيد الله قد تكلم فيه شعبة اهـ وقال أبو نعيم: غريب لم نكتبه إلا من حديث شعبة اهـ وكذا ضعفه المنذري، انظر الترغيب ٤/ ٣٥٣.

---

(١) لم أره مسنداً، والله أعلم.

(٢) ورد ذلك عن بعض التابعين، راجع الطبري ٣٧٧٦٢. والله أعلم.

تقدم الكلام هناك في الذرّ، وأنه لا وزن له. وذكر بعض أهل اللغة أن الذرّ: أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علِق بها من التراب فهو الذَّرّ، وكذا قال ابن عباس: إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها، فكل واحد مما لزق به من التراب ذَرَّة. وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ: فمنْ يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرّة منْ خَيْر من كافر، يرى ثوابه في الدنيا، في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير. ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مُؤْمن، يرى عُقوبته في الدنيا، في نفسه وماله وولده وأهله، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شرّ. دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس:

[٦٤٤٠] أن هذه الآية نزلت على النبيّ ﷺ وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، وإنا لنُرَى ما عَمِلْنا من خير وشرّ؟ قال: «ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذرّ الشرّ، ويُدَّخَر لكم مثاقيلُ ذَرّ الخير، حتى تُعْطَوْه يومَ القِيامة». قال أبو إدريس: إن مِصْداقه في كتاب الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطِيه التمرة والكِسرة والجوزة. وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكَذبة والغِيبة والنظْرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر؛ فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يُعْطُوه؛ فإنه يوشِك أن يكثُر، ويُحَذِّرهُمْ اليسيرَ من الذنب، فإنه يوشِك أن يكثُر؛ وقاله سعيد بن جبير. والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء.

الثانية: قراءة العامة «يَرَهُ» بفتح الياء فيهما. وقرأ الجَحْدَرِيّ والسُّلَمِيّ وعيسى بن عمر وأبان عن عاصم: «يُرَهُ» بضم الياء؛ أي يُريه اللَّهُ إياه. والأُولىٰ الاختيار؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] الآية. وسكن الهاء في قوله «يَرَه» في الموضعين هشام. وكذلك رواه الكسائي عن أبي بكر وأبي حَيْوة

[٦٤٤٠] أخرجه الطبري ٣٧٧٤٧ والطبراني كما في المجمع ٧/١٤٢ من حديث أنس، وقال الهيثمي: رواه الطبراني عن شيخه موسىٰ بن سهل والظاهر أنه الوشاء وهو ضعيف اهـ قلت: توبع عند الطبري، لكن الوهم فيه من الهيثم بن الربيع ذكره الذهبي في الميزان ٤/٣٢٢ وقال: له حديث قد وهم فيه، ذكره العقيلي في الضعفاء، وساق له حديثاً واحداً أرسله غيره. وقال أبو حاتم: ليس بالمعروف اهـ والحديث الذي ساقه العقيلي له هو هذا، وقد أسنده العقيلي ٤/٣٥٣ ـ ٣٥٤ عن أبي قلابة عن أبي أسماء، وهذا مرسل وكذا أخرجه الطبري ٣٧٧٤٨ عن أبي قلابة عن أبي إدريس مرسلاً. والله أعلم.

والمغيرة. واختلس يعقوب والزهري والجحدري وشيبة. وأشبع الباقون. وقيل «يَرَه» أي يرى جزاءه؛ لأن ما عمله قد مضى وعُدم فلا يُرَى. وأنشدوا:

إنّ مـن يَعْتـدِي ويَكْسِـبُ إثْمـا ... وَزْنَ مِثْقـالِ ذرّة سَيَـرَاهُ
ويُجَـازَى بفعلـه الشـرَّ شـرا ... وبفعـل الجميـلِ أيضـاً جَـزَاهُ
هكـذا قـولـه تبـارك ربِّـي ... فـي إذا زُلـزلـت وجَـل ثَنـاه

الثالثة: قال ابن مسعود: هذه أحكم آية في القرآن؛ وصَدق. وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية؛ القائلون بالعموم ومن لَمْ يقل به. وروى كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحْصَتَا ما في التوراة والإنجيل والزّبور والصُّحُف: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾. قال الشيخ أبو مَدْين في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾ قال: في الحال قبل المآل.

[٦٤٤١] وكان النبيّ ﷺ يسمي هذه الآية الآية الجامعة الفاذة؛ كما في الصحيح لما سئل عن الحُمُر وسكت عن البغال، والجواب فيهما واحد؛ لأن البغل والحمار لا كَرّ فيهما ولا فرّ؛ فلما ذكر النبيّ ﷺ ما في الخيل من الأجر الدائم، والثواب المستمر، سأل السائل عن الحُمُر، لأنهم لم يكن عندهم يومئذٍ بَغْل، ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبيّ ﷺ «الدُّلْدُل»، التي أهداها له المقوقِس، فأفتاه في الحَمِير بعموم الآية، وإن في الحمار مثاقيل ذرّ كثيرة؛ قاله ابن العربيّ. وفي الموطأ: أن مِسْكيناً استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عِنَب؛ فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها. فجعل ينظر إليها ويعجب؛ فقالت: أتعجب! كم ترى في هذه الحبَة من مثقال ذرّة. وروي عن سعد بن أبي وَقَّاص: أنه تصدق بتمرتين، فقبض السائل يده، فقال للسائل: ويقبل الله منا مثاقيل الذرّ، وفي التمرتين مثاقيل ذرّ كثيرة. وروى المُطَّلب بن حَنْطَب:

[٦٤٤٢] أن أعرابياً سمع النبيّ ﷺ يَقرؤُها فقال: يا رسول الله، أمثقالُ ذرّة! قال:

[٦٤٤١] صحيح. مراده ما أخرجه مالك ٢/ ٤٤٤ والبخاري ٢٣٧١ و ٢٨٦٠ و ٣٦٤٦ ومسلم ٩٨٧ وابن حبان ٤٦٧٢ من حديث أبي هريرة في حديث مطول وعجزه «وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: ما أنزل علي فيها شيء، إلا بهذه الآية الجامعة الفاذَّة (فمن يعمل..) ».

[٦٤٤٢] ذكره السيوطي في الدر ٦/ ٦٤٧ فنسبه لسعيد بن منصور عن المطلب بن حنطب به وهذا مرسل، وانظر ما بعده.

«نعم» فقال الأعرابيّ: واسَوْأَتاه! مِراراً، ثم قام وهو يقولها؛ فقال النبيّ ﷺ: «لقد دَخَلَ قلبَ الأَعْرابيّ الإيمانُ». وقال الحسن:

[٦٤٤٣] قَدِم صعصعة عَمّ الفرزدق[1] على النبيّ ﷺ، فلما سمع ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآيات؛ قال: لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها، حَسْبي، فقد انتهت الموعظة؛ ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردِيّ: ورُوي أن صعصعة بن ناجية جدّ الفرزدق أتى النبيّ ﷺ يستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية؛ فقال صعصعة: حسبي حسبي؛ إن عَمِلتُ مِثقالَ ذرَّةٍ شَرًّا رأيتُه[1]. ورَوى مَعمر عن زيد بن أسلم:

[٦٤٤٤] أن رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: عَلِّمني مما علمك الله. فدفعه إلى رجل يعلمه؛ فعلمه ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾ ـ حتى إذا بلغ ـ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ قال: حسبي. فأخبر النبيّ ﷺ فقال: «دَعُوهُ فإنَّهُ قد فَقُه». ويحكى أن أعرابياً أخَّر «خَيْراً يَرَهُ» فقيل: قدمت وأخرت. فقال:

خذا بطنَ هَرشَى أو قَفاها فإنهُ ... كِلا جانِبي هَرْشَى لهنّ طريق[2].

[٦٤٤٣] أخرجه النسائي في الكبرىٰ ١١٦٩٤ وأحمد ٥/٥٩ كلاهما من حديث الحسن عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني مرسلاً ومتصلاً، ورجال الجميع رجال الصحيح اهـ وهو عند الطبراني في الكبير ٧٤١١ عن عم الأحنف بن قيس.
تنبيه: وليس فيه «فقد انتهت الموعظة» وإنما هي. للثعلبي فحسب.

[٦٤٤٤] مرسل. أخرجه ابن المبارك ٨١ عن زيد بن أسلم مرسلاً، إلا أن هذه المراسيل مع الحديث المتصل المتقدم، تتقوىٰ بمجموعها.

---

(١) رواية ابن المبارك علىٰ الشك حيث قال في حديثه: قدم صعصعة يعني عم الفرزدق أو جده. راجع الزهد (٨٠) ص ٢٧.
وقال العسكري ليس للفرزدق عم يسمىٰ صعصعة، وإنما هو جده، راجع الإصابة وأسد الغابة.

(٢) هرشىٰ: ثنية في طريق مكة قرب الجحفة.

سورة العاديات

وهي مكية؛ في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء. ومدنية في قول ابن عباس وأنس(١) بن مالك وقتادة. وهي إحدىٰ عشرة آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ أي الأفراس تعدو. كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة؛ أي تعدو في سبيل الله فتضبح. قال قتادة: تضبح إذا عدت؛ أي تحمحِم. وقال الفراء: الضَّبْح: صوت أنفاس الخيل إذا عَدَوْن. ابن عباس: ليس شيء من الدواب يضْبَح غير الفرس والكلب والثعلب. وقيل: كانت تُكْعَم(٢) لئلا تصهَل، فيعلم العدوّ بهم؛ فكانت تتنفس في هذه الحال بقوّة. قال ابن العربي: أقسم الله بمحمد ﷺ فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١ ـ ٢]، وأقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر: ٧٢]، وأقسم بخيله وصهيلها وغُبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: «والعادِيات ضَبْحا»... الآيات الخمس. وقال أهل اللغة:

وَطَعْنَةٍ ذاتِ رَشاشٍ واهِيَهْ ... طَعَنْتَها عندَ صُدُورِ العَادِيَهْ

يعني الخيل. وقال آخر(٣):

والعادياتُ أَسابِيُّ الدماءِ بها ... كأنّ أعناقَها أنصاب ترجِيبِ(٤)

يعني الخيل. وقال عنترة:

والخيل تعلم حين تَضْـ ... ـبَحُ فِي حِياضِ المَوْتِ ضَبْحَا

وقال آخر:

لَسْتُ بالتُّبَّعِ اليمانِيِّ إنْ لَمْ ... تَضْبَحِ الخيلُ في سَوادِ العِرَاقِ

وقال أهل اللغة: وأصل الضَّبْح والضُّباح للثعالب؛ فاستعير للخيل. وهو من قول

---

(١) في الأصل «و» بدل «بن» والتصويب عن تفسير الماوردي.

(٢) الكعام: شيء يجعل علىٰ فم البعير.

(٣) هو سلامة بن جندل.

(٤) الأسابي: الطرق. والترجيب: أن تدعم الشجرة إذا كثر حملها لئلا تتكسر أغصانها.

العرب: ضَبَحَتْه النار: إذا غيرت لونه ولم تبالغ فيه. وقال الشاعر[1]:

فَلَمَّا أَنْ تَلهوجْنَا شِواءً ... بِه اللَّهَبانُ مَقهوراً ضَبِيحاً[2]

وانضبح لونه: إذا تغير إلى السواد قليلاً. وقال:

عَلِقْتُها قَبل انْضِباحِ لَوْنِي

وإنما تَضْبَح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فَزَع وتعب أو طمع. ونصب «ضَبْحا» على المصدر؛ أي والعاديات تضبحُ ضَبْحاً. والضَّبح أيضاً الرّماد. وقال البصريون: ﴿ضَبْحًا ۝١﴾ نصب على الحال. وقيل: مصدر في موضع الحال. قال أبو عبيدة: ضَبَحَتِ الخيل ضَبْحاً مثل ضَبَعَتْ؛ وهو السير. وقال أبو عبيدة: الضَّبْح والضَّبْع: بمعنى العدو والسير. وكذا قال المبرد: الضبح مدّ أضباعها في السير. وروي أن رسول الله ﷺ بعث سَرِيّة إلى أناس من بني كِنانة، فأبطأ عليه خبرها، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النقباء؛ فقال المنافقون: إنهم قُتلوا؛ فنزلت هذه السورة إخباراً للنبيّ ﷺ بسلامتها، وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم. وممن قال: إن المراد بالعاديات الخيل، ابنُ عباس وأنس والحسن ومجاهد. والمراد الخيل التي يغزو عليها المؤمنون. وفي الخبر:

[٦٤٤٥] «من لم يعرف حُرْمة فرس الغازي، ففيه شُعبة من النفاق». وقول ثان: أنها الإبل؛ قال أبو صالح[3]: نازعتُ فيها عكرمة فقال عكرمة: قال ابن عباس هي الخيل. وقلت: قال عليّ هي الإبل في الحج، ومولاي أعلم من مولاك. وقال الشعبيّ: تمارى عليّ وابن عباس في «العاديات»، فقال عليّ: هي الإبل تعدو في الحج. وقال ابن عباس: هي الخيل؛ ألا تراه يقول ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ فهل تثير إلا بحوافرها! وهل تَضْبَحُ الإبل! فقال علي: ليس كما قلت، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد، وفرس لمرَثد بن أبي مَرْثَد؛ ثم قال له عليّ: أتفتِي الناس بما لا تعلم! والله إن كانت لأوّل غزوة في الإسلام وما معنا إلا فرسان: فرس للمقداد، وفرس للزُّبير؛ فكيف تكون العادياتِ ضبحا! إنما العادياتُ الإبل من عَرَفَة إلى المزدلِفة، ومن المزدلِفة إلى عرفة. قال ابن عباس: فرجعت إلى قول عليّ، وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب

[٦٤٤٥] لم أره بعد بحث، وهو غريب ولعله موضوع.

---

(١) هو مضرس الأسدي.

(٢) الملهوج من الشواء: الذي لم يتم نضجه. واللبهان: اشتعال النار.

(٣) في النسخ «مسلم» والتصويب عن «الدر» ٦/ ٦٥١.

والسدّي. ومنه قول صفية بنت عبد المطلب:

فــلا والعــاديــاتِ غَــداة جَمْــع ... بــأيــديهــا إذا سَطَــع الغُبــار

يعني الإبل. وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي. وقال آخر:

رأى صاحبي في العادياتِ نَجيبةً ... وأمثالَها في الواضعاتِ القوامِسِ

ومن قال هي الإبل فقوله «ضبحا» بمعنى ضبعاً؛ فالحاء عنده مبدلة من العين؛ لأنه يقال: ضبعت الإبل وهو أن تمد أعناقها في السير. وقال المبرد: الضبع مدّ أضباعها في السير. والضبح أكثر ما يستعمل في الخيل. والضبع في الإبل. وقد تبدل الحاء من العين. أبو صالح: الضبح من الخيل: الحمحمة، ومن الإبل التنفس. وقال عطاء: ليس شيء من الدواب يَضْبَحُ إلا الفرس والثعلب والكلب؛ وروي عن ابن عباس. وقد تقدّم عن أهل اللغة أن العرب تقول: ضَبَح الثعلب؛ وضبح في غير ذلك أيضاً. قال تَوْبة:

ولــو أَنَّ ليلَــى الأخيليــة سَلَّمَــتْ ... عَلــيَّ ودونِــي تُــرْبــة وصفــائِــح

لَسَلَّمْــتُ تسليــمَ البشــاشــةِ أو زَقَــا ... إليها صَدًى من جانب القبرِ ضابحُ

زقا الصدى يزقو زُقاء: أي صاح. وكل زاقٍ صائح. والزَّقْية: الصيحة. ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك: هي الخيل حين تُورِي النار بحوافرها، وهي سنابكها؛ وروي عن ابن عباس. وعنه أيضاً: أورت بحوافرها غُباراً. وهذا يخالف سائر ما روي عنه في قدح النار؛ وإنما هذا في الإبل. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ قال: قال ابن عباس: هو في القتال وهو في الحج. ابن مسعود: هي الإبل تطأ الحصى، فتخرج منها النار. وأصل القدْح الاستخراج؛ ومنه قَدَحْت العين: إذا أخرجت منها الماء الفاسد. واقتدحْت بالزند. واقْتَدَحْتُ المرق: غَرفته. ورَكِيٌّ قَدُوح: تغترف باليد. والقَديح: ما يبقى في أسفل القِدر، فيغرف بَجهد. والمِقدحة: ما تُقْدَح به النار. والقدّاحة والقدّاح: الحجر الذي يُورِي النار. يقال: وَرَى الزند (بالفتح) يَرِي وَرْياً: إذا خرجت ناره. وفيه لغة أخرى: وَرِي الزند (بالكسر) يَرِي فيهما. وقد مضى هذا في سورة «الواقعة». و«قَدْحاً» انتصب بما انتصب به «ضَبْحاً». وقيل: هذه الآيات في الخيل؛ ولكن إيراءها: أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوّهم. ومنه يقال للحرب إذا التحمت: حَمِيَ الوَطِيسُ. ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]. وروي معناه عن ابن عباس أيضاً، وقاله قتادة. وعن ابن عباس أيضاً: أن المراد بالمُوريات قَدْحاً: مَكْرُ الرجال في الحرب؛ وقاله مجاهد

وزيد بن أسلم. والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: والله لأمكُرنَّ بك، ثم لأُورِيَنَّ لك. وعن ابن عباس أيضاً: هم الذين يغزُون فيُورون نيرانهم بالليل، لحاجتهم وطعامهم. وعنه أيضاً: أنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارها إرهاباً. وكل من قرب من العدوّ يُوقد نيراناً كثيرة ليظنهم العدوّ كثيراً. فهذا إقسام بذلك. قال محمد بن كعب: هي النار تجمع. وقيل: هي أفكار الرجال تُورِي نار المكر والخديعة. وقال عكرمة: هي أَلْسنة الرجال تُورِي النار من عظيم ما تتكلم به، ويَظْهر بها، من إقامة الحُجج، وإقامة الدلائل، وإيضاح الحق، وإبطَال الباطل. وروى ابن جُريج عن بعضهم قال: فالمُنجِحات أَمْرا وعملاً، كنجاح الزند إذا أوري.

قلت: هذه الأقوال مجاز؛ ومنه قولهم: فلان يُورِي زِناد الضلالة. والأوّل: الحقيقة، وأن الخيل من شِدّة عدوِها تقدح النار بحوافرها. قال مقاتل: العرب تسمي تلك النار نار أبي حُباحِب، وكان أبو حُباحِب شيخاً من مُضَر في الجاهلية، من أبخل الناس، وكان لا يُوقد ناراًلخبز ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقِد نُويرةً تقِد مرّة وتخمد أخرى؛ فإن استيقظ لها أحد أطفأها، كراهية أن ينتفع بها أحد. فشبهت العرب هذه النار بناره؛ لأنه لا يُنتفع بها. وكذلك إذا وقع السيف على البيضة فاقتدحت ناراً، فكذلك يسمونها. قال النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيوفهم ... بهنّ فَلولٌ مِن قِراع الكتائبِ
تَقُدّ السَّلُوقِيَّ المضاعَف نَسْجُه ... وتُوقِد بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ

قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾.

الخيل تغِير على العدو عند الصبح؛ عن ابن عباس وأكثرِ المفسرين. وكانوا إذا أرادوا الغارة سَرَوْا ليلاً، ويأتون العدوّ صبحاً؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾ [الصافات: ١٧٧]. وقيل: لعِزهم أغاروا نهاراً، و«صُبْحاً» على هذا، أي علانية، تشبيهاً بظهور الصبح. وقال ابن مسعود وعليّ رضي الله عنهما: هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من مِنى إلى جَمْع. والسنة ألا تَدْفع حتى تصبح؛ وقاله القُرَظِيّ. والإغارة: سرعة السير؛ ومنه قولهم: أشرِقْ ثَبِير[1]، كيما نُغِير.

قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾.

أي غباراً؛ يعني الخيل تثير الغبار بشدّة العدو في المكان الذي أغارت به. قال عبد الله بن رواحة:

---

(١) جبل قرب مكة علىٰ يمين الذاهب إلى عرفة.

عــدِمْــتُ بُنَيَّتِــي إن لــم تَــرَوْهــا ... تُثِيــر النَّقْــعَ مــن كَنَفَــيْ كَــداءِ[1]

والكناية في «به» ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة. وإذا عُلِم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجر له ذكر بالتصريح؛ كما قال؛ ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [صۤ: ٣٢]. وقيل: ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ﴾، أي بالعَدْو ﴿نَقۡعٗا ﴿٤﴾﴾. وقد تقدّم ذكر العَدْو. وقيل: النقع: ما بين مزدلِفة إلى مِنى؛ قاله محمد بن كعب القُرَظِيّ. وقيل: إنه طريق الوادي؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع. وفي الصحاح: النقع: الغبار، والجمع: نِقاع. والنقع: محبِس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه. وفي الحديث:

[٦٤٤٦] أنه نهى أن يمنع نقع البئر. والنقع الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء؛ والجمع: نِقاع وأنقع؛ مثل بحر وبِحار وأبحر.

قلت: وقد يكون النقع رفع الصوت، ومنه حديث عمر حين قيل له: إن النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد؛ فقال: وما على نساء بني المغِيرة أن يسفِكن من دموعهنّ وهنّ جلوس على أبي سليمان، ما لَمْ يكن نقْع ولا لَقْلَقَة. قال أبو عبيد: يعني بالنقع رفع الصوت؛ على هذا رأيت قول الأكثرين من أهل العلم؛ ومنه قول لبيد:

فمتــى ينقَــعْ صُــراخٌ صــادِق ... يُحْلِبــوهــا ذاتَ جَــرْس وزَجَــل

ويروى «يَحْلِبوها» أيضاً. يقول: متى سمعوا صراخاً أحلبوا الحرب، أي جمعوا لها. وقوله: «يَنْقع صُراخ»: يعني رفع الصوت. وقال الكسائي: قوله «نقع ولا لقلقة» النقع: صنعة الطعام؛ يعني في المَأْتم. يقال منه: نقعْت أنقَع نَقْعاً. قال أبو عبيد: ذهب بالنقع إلى النَّقيعة؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء: صنعة الطعام عند القدوم من سفر، لا في المأتم. وقال بعضهم: يريد عمر بالنقع: وضع التراب على الرأس؛ يذهب إلى أن النقع هو الغبار. ولا أحسب عمر ذهب إلى هذا، ولا خافه منهنّ، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهنّ القيام. فقال: يَسْفِكْنَ من دموعهنّ وهُنّ جلوس. قال بعضهم: النقع: شق

[٦٤٤٦] حسن. أخرجه أحمد ٦/ ١١٢ ـ ٢٥٢ وصححه ابن حبان ٤٩٥٥ والحاكم ٢/ ٦١ من حديث عائشة وقال الحاكم: صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي وأخرجه ابن ماجة ٢٤٧٩ والبيهقي ٦/ ١٥٢ من طريق حارثة عن عائشة مرفوعاً به، وحارثة بن أبي الرجال واهٍ، لكن توبع في رواية المتقدمين، وأخرجه مالك ٢/ ٧٤٥ والبيهقي ٦/ ١٥٢ عن عمرة بنت عبد الرحمن مرسلاً وقال البيهقي: هذا هو المحفوظ مرسل اهـ ومع ذلك لا ينزل الحديث عن درجة الحسن، والله أعلم.

---

(١) كَداء ـ بفتح الدال ـ جبل بمكة.

الجيوب؛ وهو الذي لا أدري ما هو من الحديث ولا أعرفه، وليس النقع عندي في هذا الحديث إلا الصوت الشديد، وأمّا اللقلقة: فشِدّة الصوت، ولم أسمع فيه اختلافاً. وقرأ أبو حَيْوة «فأَثَّرْنَ» بالتشديد؛ أي أرت آثار ذلك. ومن خفف فهو من أثار: إذا حرّك؛ ومنه ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ [الروم: ٩].

قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾.

«جَمْعاً» مفعول بـ«وَسَطْن»؛ أي فوسطْن بركبانهن العدوّ؛ أي الجمع الذي أغاروا عليهم. وقال ابن مسعود: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾: يعني مُزْدلِفة؛ وسميت جمعاً لاجتماع الناس. ويقال: وسَطْتُ القوم أَسِطُهم وَسْطاً وسِطَةً؛ أي صِرت وَسْطَهم. وقرأ علي رضي الله عنه «فَوَسَّطْن» بالتشديد، وهي قراءة قتادة وابن مسعود وأبي رجاء؛ لغتان بمعنى، يقال: وسَّطْتُ القوم (بالتشديد والتخفيف) وتَوَسَّطتُهُمْ: بمعنى واحد. وقيل: معنى التشديد: جعلها الجمع قسمين. والتخفيف: صِرْن في وسط الجمع؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾.

هذا جواب القسم؛ أي طبع الإنسان على كفران النعمة. قال ابن عباس: ﴿لَكَنُودٌ ۝٦﴾ لكفور جَحُود لنعم الله. وكذلك قال الحسن. وقال: يذكر المصائب وينسى النعم. أخذه الشاعر فنظمه:

يـا أيُّهـا الظـالـمُ فـي فِعْلِـهِ والظُّلْـم مـردود علـى مَـنْ ظَلَـمْ
إلـى متـى أنْـتَ وحَتَّـى متـى تشكـو المُصيبـاتِ وتنسى النعـم!

وروى أبو أُمامة الباهِلِيّ:

[٦٤٤٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَنُود، هو الذي يأكل وَحْدَه، ويمنع رِفْده[1]، ويضرب عَبْدَه». وروى ابن عباس قال:

[٦٤٤٨] قال رسول الله ﷺ: «ألاَ أُنبِّئُكُمْ بشرارِكُمْ»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال:

[٦٤٤٧] ضعيف جداً أخرجه الطبري ٣٧٨٤٠ وكذا الطبراني ٧٧٧٨ و٧٩٥٨ من حديث أبي أمامة، وإسناده ضعيف، لضعف جعفر بن الزبير، بل هو متروك، وكذبه شعبة.

[٦٤٤٨] ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ص ٢٦٧ من حديث ابن عباس، ولم أقف على إسناده، والحكيم يروي الموضوعات، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٦٤٩.

---

(١) الرِّفد: العطاء والصلة.

«من نَزَل وحدَه، ومنع رِفْدَه، وجَلَد عبدَه». خرجهما الترمذي الحكيم في نوادر الأصول. وقد روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: الكَنود بلسان كِندة وحضرموت: العاصي، وبلسان ربيعة ومضر: الكفور. وبلسان كِنانة: البخيل السَّيّء المَلَكة؛ وقاله مقاتل. وقال الشاعر:

كَنود لِنَعماء الرجالِ ومَنْ يكن ... كَنوداً لنعماء الرجال يُبَعَّدِ

أي كفور. ثم قيل: هو الذي يكفر اليسير، ولا يشكر الكثير. وقيل: الجاحد للحق. وقيل: إنما سميت كِنْدَة كِندة، لأنها جحدتْ أباها. وقال إبراهيم بن هَرْمَة الشاعر:

دعِ البخلاءَ إن شمخُوا وصَدُّوا ... وذِكَرى بُخْلِ غانيةٍ كَنودِ

وقيل: الكَنود: من كَند إذا قطع؛ كأنه يقطع ما ينبغي أنّ يواصله من الشكر. ويقال: كَنَد الحبلَ: إذا قطعه. قال الأعشى:

أمِيطِي تُميطي بصُلْبِ الفؤادِ ... وَصُولِ حِبالٍ وكَنَّادِها

فهذا يدل على القطع. ويقال: كَنَدَ يكْنِد كُنوداً: أي كفر النعمة وجحدها، فهو كنود. وامرأة كنود أيضاً، وكُنُدٌ مِثله. قال الأعشى:

أحدِث لها تحدِث لوصلك إنها ... كُنُد لوصلِ الزائر المعتادِ[1]

أي كفور للمواصلة. وقال ابن عباس: الإنسان هنا الكافر؛ يقول إنه لكفور؛ ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً. وقال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة. قال المبرد: الكنود: المانع لما عليه. وأنشد لكثير:

أحدِثْ لها تُحْدِثْ لوصلك إنها ... كُنُدٌ لِوَصلِ الزائر المعتاد

وقال أبو بكر الواسطي: الكنود: الذي ينفق نِعم الله في معاصي الله. وقال أبو بكر الوراق: الكنود: الذي يرى النعمة من نفسه وأعوانه. وقال الترمذي: الذي يرى النعمة ولا يرى المنعِم. وقال ذو النون المصري: الهلوع. والكنود: هو الذي إذا مسه الشر جزوع، وإذا مسه الخير منوع. وقيل: هو الحقود الحسود. وقيل: هو الجهول لقدره. وفي الحكمة: من جهِل قدره. هتك سِتره.

قلت: هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود. وقد فسر النبيّ ﷺ معنى الكنود بخصال مذمومة، وأحوال غير محمودة؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحد معه مقال.

---

(١) المعتاد: الذي يعود مرة بعد أخرىٰ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾.

أي وإن الله عز وجل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد. كذا روى منصور عن مجاهد؛ وهو قول أكثر المفسرين، وهو قول ابن عباس. وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب: «وإنه» أي وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع؛ ورُوِي عن مجاهد أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الإنسان من غير خلاف. ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي المال؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقال عديّ:

ماذَا تُرَجِّي النفوسُ من طلبِ الـ ـخَيْـر وحُـبُّ الحيـاةِ كـارِبُهـا[1]

﴿لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ أي لقويّ في حبه للمال. وقيل: «لشديد» لبخيل. ويقال للبخيل: شديد ومتشدّد. قال طَرفة:

أَرَى الموتَ يعتامُ الكِرامَ ويَصْطَفِي عَقِيلَـةَ مـالِ الفـاحِـشِ المُتَشَـدِّدِ

يقال: اعتامه واعتماه؛ أي اختاره. والفاحِشُ: البخيل أيضاً. ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أي البخل. قال ابن زيد: سمى الله المال خيراً؛ وعسى أن يكون شراً وحراماً؛ ولكن الناس يَعُدّونه خيراً، فسمَّاه الله خيراً لذلك. وسمى الجهاد سُوءاً، فقال: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] على ما يسميه الناس. قال الفرّاء: نظم الآية أن يقال: وإنه لشديد الحبّ للخير؛ فلما تقدّم الحب قال: شديد، وحذف من آخره ذكر الحب؛ لأنه قد جرى ذكره، ولرؤوس الآي؛ كقوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، والعُصُوف: للريح لا الأيام، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم، طرح من آخره ذكر الريح؛ كأنه قال: في يوم عاصِف الريح.

قوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي ابن آدم ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي أثير وقُلِب وبُحِث، فأُخرج ما فيها. قال أبو عبيدة: بَعْثَرْتُ المتاع: جعلت أسفلهُ أعلاه. وعن محمد بن كعب قال: ذلك حين يُبْعَثون. الفرّاء: سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ: «بُحْثِر» بالحاء مكان العين؛ وحكاه الماورديّ عن ابن مسعود، وهما بمعنى. ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ أي

(١) كربه الأمر: اشتد عليه وغمّه.

مُيز ما فيها من خير وشر؛ كذا قال المفسرون. وقال ابن عباس: أُبرِز. وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جُبير ويحيى بن يعمُر ونصر بن عاصم «وحَصَل» بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها؛ أي ظهر. ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ أي عالم لا يخفى عليه منهم خافية. وهو عالم بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم. وقوله: ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ العامل في «إذا»: «بُعْثِر»، ولا يعمل فيه ﴿يَعْلَمُ﴾؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت، إنما يراد في الدنيا. ولا يعمل فيه «خَبِيرٌ»؛ لأن ما بعد «إنّ» لا يعمل فيما قبلها. والعامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: «خَبِيرٌ»، وإن فصلت اللام بينهما؛ لأن موضع اللام الابتداء. وإنما دخلت في الخبر لدخول «إِنَّ» على المبتدأ. ويروى أن الحجاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضهم على الغزو، فجرى على لسانه: «أَنَّ ربهم» بفتح الألف، ثم استدركها فقال: «خَبير» بغير لام. ولولا اللام لكانت مفتوحة، لوقوع العلم عليها. وقرأ أبو السَّمَّال «أَنَّ رَبَّهمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ». والله سبحانه وتعالى أعلم.

تفسير سورة القارعة

وهي مكية بإجماع. وهي عشر آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ أي القيامة والساعة؛ كذا قال عامة المفسرين. وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها. وأهل اللغة يقولون: تقول العرب قَرَعَتْهُمُ القارعة، وفَقَرَتْهُمُ الفاقِرة؛ إذا وقع بهم أمر فظيع. قال ابن أحمر:

وقارعةٍ مِن الأيام لَوْلاَ ... سبيلهم لزاحت عنك حِينا

وقال آخر:

مَتَى تَقْرَعْ بمَرْوتِكُم[1] نَسُؤْكُمْ ... ولم تُوقَدْ لَنَا في القِدْرِ نَارُ

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١] وهي الشديدة من شدائد الدهر.

قوله تعالى: ﴿مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ استفهام؛ أي أيّ شيء هي القارعة؟ وكذا ﴿وَمَا

(١) المروَة: حجر يقدح منه النار.

أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها؛ كما قال: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣] على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾.

«يوم» منصوب على الظرف، تقديره: تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. قال قتادة: الفراش الطير الذي يتساقط في النار والسراج. الواحدة فراشة، وقاله أبو عبيدة. وقال الفراء: إنه الهَمَج الطائر، من بَعوض وغيره؛ ومنه الجراد. ويقال: هو أطيش من فراشة. وقال:

طُويِّشٌ مِنْ نفرٍ أطْياشِ ... أطيشُ من طائرة الفَراشِ

وقال آخر:

وقدْ كانَ أقوامٌ رددتَ قُلُوبَهُمْ ... إليهم وكانوا كالفراشِ من الجَهْلِ

وفي صحيح مسلم عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦٤٤٩] «مثلي ومثَلُكُمْ كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادِبُ والفَراشُ يَقَعْن فيها، وهو يذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتمْ تُفْلِتونَ مِنْ يدي». وفي الباب عن أبي هريرة. والمبثوث المتفرق. وقال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر: ٧]. فأوّل حالهم كالفَراش لا وجه له، يَتَحيَّرُ في كل وجه، ثم يكونون كالجراد، لأن لها وجهاً تقصده. والمبثوث: المتفرق المنتشر. وإنما ذكر على اللفظ: كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ٢٠]ولو قال المبثوثة فهو كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٥]. وقال ابن عباس والفراء: «كالفراشِ المبثوثِ» كغوغاء الجراد، يركب بعضها بعضاً. كذلك الناس، يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا.

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾.

أي الصوف الذي يُنْفش باليد، أي تصير هباء وتزول؛ كما قال جل ثناؤه في موضع آخر: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٦]. وأهل اللغة يقولون: العِهن الصوف المصبوغ. وقد مضى في سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ [المعارج: ١].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

[٦٤٤٩] تقدم تخريجه.

قد تقدم القول في المِيزان في «الأعراف والكهف والأنبياء». وأن له كِفَّةً ولساناً توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات. ثم قيل: إنه ميزان واحد بيد جبريل يزِن أعمال بني آدم، فعبَّر عنه بلفظ الجمع. وقيل: موازين، كما قال:

فلِكـلِّ حـادِثـةٍ لَـهَـا مِـيـزانُ

وقد ذكرناه فيما تقدم. وذكرناه أيضاً في كتاب «التذكِرة» وقيل: إن الموازين الحُجَج والدلائل، قاله عبد العزيز بن يحيى، واستشهد بقول الشاعر:

قَـد كُنـتُ قبـلَ لقـائكـم ذا مِـرَّةٍ   عِنـدِي لكُـلِّ مخـاصِـمٍ مِيـزانُـهُ

ومعنى ﴿ عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ ﴾ أي عيش مَرْضيّ، يرضاه صاحبه. وقيل: ﴿ عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ ﴾ أي فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها. فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد. فالعيشة كلمة تجمع النِّعَم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا، كالفُرُش المرفوعة، وارتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها ولِي الله اتضعت حتى يستوي عليها، ثم ترتفع كهيئتها، ومثل الشجرة فرعها، كذلك أيضاً من الارتفاع، فإذا اشتهى ولِيُّ الله ثمرتها تدلت إليه، حتى يتناولها ولِيّ الله قاعداً وقائماً، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣ ﴾ [الحاقة: ٢٣]. وحيثما مشى أو ينتقل من مكان إلى مكان، جرى معه نهر حيث شاء، عُلُوًّا وسُفْلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦ ﴾ [الإنسان: ٦]. فيروى في الخبر انه يشير بقضيبه فيجري من غير أخدود حيث شاء من قصوره وفي مجالسه. فهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها، فهي فاعلة للرضا، وهي انذلت وانقادت بذْلاً وسماحة. ومعنى ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ ﴾ يعني جَهَنَّم. وسماها أُمًّا، لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه، قاله ابن زيد. ومنه قول أمية بن أبي الصَّلْت:

فـالأرضُ مَعْقِلنـا وكـانـتْ أُمَّنـا   فيهـا مَقـابـرُنـا وفيهـا نُـولَـدُ

وسميت النار هاوية، لأنه يهوِي فيها مع بعدِ قعرها. ويروى أن الهاوية اسم الباب الأسفل من النار. وقال قتادة: معنى «فأمه هاوِية» فمصيره إلى النار. عكرمة: لأنه يهوي فيها على أم رأسه. الأخفش: «أمه»: مستقرّه، والمعنى متقارب. وقال الشاعر:

يـا عمـرُو لـو نـالتـك أرمـاحُنـا   كنـتَ كمـن تهـوِي بـه الهـاوِيَـهْ

والهاوية: المَهْوَاة. وتقول: هَوَتْ أمّه، فهي هاوية، أي ثاكلة، قال كعب بن سعد الغَنَوِيّ:

هَوَتْ أُمُّه ما يبعثُ الصبحُ غاديا   ومـاذا يـؤدِّي الليـلُ حيـن يَـؤُوبُ

والمَهْوَى والْمَهْواة: ما بين الجبلين، ونحو ذلك. وتهاوى القوم في المَهْواة: إذا سقط بعضهم في إثر بعض. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ الأصل «ماهي» فدخلت الهاء للسكت. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وابن مُحيصِن «ماهِيَ نارٌ» بغير هاء في الوصل، ووقفوا بها. وقد مضى في سورة «الحاقة» بيانه. ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ أي شديدة الحرارة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة:

[٦٤٥٠] أن النبيّ ﷺ قال: «نارُكم هذه التي يُوقِد ابنُ آدم جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله. قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرّها». وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه، لأنه وضع فيه الحق، وحُقَّ لميزان فيه الحق أن يكون ثقيلاً. وإنما خف ميزان من خف ميزانه، لأنَّه وضع فيه الباطل، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفاً. وفي الخبر عن أبي هريرة:

[٦٤٥١] عن النبي ﷺ: «أن الموتى يَسألون الرجل يأتيهم عن رجل مات قبله، فيقول ذلك مات قبلي، أما مرَّ بكم؟ فيقولون لا والله، فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون! ذُهِب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأمّ، وبئست المُرَبية». وقد ذكرناه بكماله في كتاب «التذكرة»، والحمد لله.

[٦٤٥٠] صحيح. أخرجه مالك ٢/ ٩٩٤ والبخاري ٣٢٦٥ ومسلم ٢٨٤٣ وعبد الرزاق ٢٠٨٩٧ وأحمد ٢/ ٣١٣ والترمذي ٢٥٨٩ والدارمي ٢/ ٣٤٠ كلهم من حديث أبي هريرة.

[٦٤٥١] ضعيف جداً، أخرجه الحاكم ٢/ ٥٣٣ برقم ٣٩٦٨ عن الحسن مرسلاً، وعزاه السيوطي في الدر ٦/ ٦٥٦ لابن مردويه عن أنس مرفوعاً، وعن أبي أيوب مرفوعاً أيضاً، ولا يصح، فإن الحاكم قال عقب روايته الحديث المرسل: هذا حديث مرسل صحيح فإني لم أجد لهذه السورة تفسيراً علىٰ شرط الكتاب، وأخرجته إذ لم أستجز إخلاءه من حديث اهـ. وقد أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٦٨٩ عن أشعث بن عبد الله الأعمىٰ موقوفاً عليه، وهو تابعي. فالمرفوع ضعيف جداً، مراسيل الحسن واهية.

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية، في قول جميع المفسرين. وروى البخارِي أنها[1] مدنية وهي ثماني آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ «ألهاكم» شغلكم. قال:

فَأَلْهَيْتُها عن ذِي تَمائم مُغْيل

أي شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى مِتم ودفنتم في المقابر. وقيل ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: أنساكم. ﴿ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ أي من الأموال والأولاد، قاله ابن عباس والحسن. وقال قتادة: أي التفاخر بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: أي ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة. يقال: لَهِيت عن كذا (بالكسر) أَلْهى لَهِيًّا ولِهْيَاناً: إذا سلوت عنه، وتركت ذكره، وأضربت عنه. وألهاه: أي شغله. ولهَّاه به تلهية أي عَلَّله. والتكاثر: المكاثرة. قال مقاتل وقتادة وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلّالاً. وقال ابن زيد: نزلت في فخِذ من الأنصار. وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي: نزلت في حَيَّيْن من قريش: بني عبد مَناف، وبني سَهْم، تعادُّوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حيّ منهم نحن أكثر سيداً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر عائذاً، فكَثَرَ بنو عبد مناف سهماً. ثم تكاثروا بالأموات، فكَثَرَتْهُمْ سَهْم، فنزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ بأحيائكم فلم ترضَوا ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ مفتخرين بالأموات. وروى سعيد عن قتادة قال: كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدّ من بني فلان؛ وهم كلَّ يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كُلُّهم. وعن عمرو بن دينار:

---

(١) انظر الحديث ٦٤٥٣.

حلف أن هذه السورة نزلت في التجار. وعن شيبان عن قتادة قال: نزلتْ في أهل الكتاب.

قلت: الآية تَعُمّ جميع ما ذكر وغيره. وفي صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال:

[٦٤٥٢] أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: «يقولُ ابنُ آدم: مالي مالي! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ، أو لبستَ فأبلَيتَ، أو تصدّقْتَ فأمضيت [وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناس][١]. وروى البخاريّ عن ابن شهاب: أخبرني أنَس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال:

[٦٤٥٣] «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب، لأحب أن يكون له واديان، ولَنْ يَمْلأ فاه إلاّ الترابُ، ويتوبُ اللّهُ على من تابَ». قال ثابت عن أنس عن أبيّ: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾. قال ابن العربيّ[٢]: وهذا نصّ صحيح مليح، غاب عن أهل التفسير فجهِلوا وجَهَّلوا، والحمد لله على المعرفة. وقال ابن عباس:

[٦٤٥٤] قرأ النبي ﷺ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: «تَكاثُرُ الأموال: جمعها من غير حقها، ومنعها من حقها، وشدّها في الأوعية».

الثانية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أي حتى أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زوّاراً، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار. يقال لمن مات: قد زار قبره. وقيل: أي ألهاكم التكاثر حتى عددتم الأموات؛ على ما تقدّم. وقيل: هذا وعيد. أي اشتغلتم بمفاخرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فتَرَوْا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة - بفتح الباء وضمها -. والقبور: جمع القبر؛ قال:

[٦٤٥٢] صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٨ وابن المبارك في «الزهد» ٤٩٧ وأحمد ٤/ ٢٤ والطيالسي ١١٤٨ والترمذي ٢٣٤٢ والنسائي ٦/٢٣٨ وابن حبان ٧٠١ واستدركه الحاكم ٢/ ٥٣٤ كلهم من حديث عبد الله بن الشخير.

[٦٤٥٣] صحيح. تقدم مراراً.

[٦٤٥٤] لم أجد له إسناداً، وإمارة الوضع لائحة عليه.

---

(١) ما بين المعقوفتين ورد في حديث آخر أخرجه مسلم ٢٩٥٩ من حديث أبي هريرة بإثر الحديث المتقدم.

(٢) مراد ابن العربي رحمه الله أن الحديث المتقدم جعله بعض المفسرين من الآيات التي نسخت بين أنه لم يكن قرآناً أصلاً، وإنما كانوا يظنون ذلك، فلما نزلت هذه السورة علموا أنه ليس من القرآن، والله أعلم.

أَرَى أَهْلَ القُصُورِ إذا أُمِيتُوا ... بَنَوْا فوقَ المقابرِ بالصُّخُورِ
أَبَوْا إلا مُباهاةً وفَخْرًا ... على الفقراءِ حتّى في القُبُورِ

وقد جاء في الشعر (المَقْبَر)؛ قال:

لكلِّ أناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنائِهِم ... فَهُمْ يَنقُصُونَ والقُبُورُ تَزِيدُ

وهو المقْبُرِيّ والمقْبَرِيّ: لأبي سعيد المقبُرِيّ[1]؛ وكان يسكن المقابر. وقَبَرت المَيتَ أَقْبِرهُ وَأَقْبُرُهُ قبراً، أي دفنته. وأقبرته أي أمرت بأن يقبر. وقد مضى في سورة «عبَس» القول فيه. والحمد لله.

الرابعة: لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة. وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة. وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها. قال النبيّ ﷺ:

[٦٤٥٥] «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكِّر الآخرة» رواه ابن مسعود؛ أخرجه ابن ماجه. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة:

[٦٤٥٦] «فإنها تذكر الموت». وفي الترمذيّ عن بُرَيْدة:

[٦٤٥٧] «فإنها تذكِّر الآخرة» قال: هذا حديث حسن صحيح. وفيه عن أبي هريرة.

[٦٤٥٨] أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور. قال: وفي الباب عن ابن عباس

[٦٤٥٥] حسن. أخرجه ابن ماجة ١٥٧١ من حديث ابن مسعود وقال البوصيري في الزوائد: إسناده حسن وأيوب بن هانىء ضعفه ابن معين، وقال أبو حاتم صالح، ووثقه ابن حبان اهـ والحديث له شواهد كثيرة تقويه، وانظر ما بعده.

[٦٤٥٦] صحيح. أخرجه مسلم ٩٧٦ وابن أبي شيبة ٣/٣٤٣ وأحمد ٢/٤٤١ وأبو داود ٣٢٣٤ والنسائي ٤/٩٠ وابن ماجة ١٥٧٢ وابن حبان ٣١٦٩ واستدركه الحاكم ١/٣٧٥ كلهم من حديث أبي هريرة، وهذا عجزه.

[٦٤٥٧] صحيح. أخرجه مسلم ١٩٧٧ والطيالسي ٨٠٧ وابن أبي شيبة ٣/٣٤٢ وأحمد ٥/٣٥٠ وعبد الرزاق ٦٧٠٨ وابن حبان ٣١٦٨ واستدركه الحاكم ١/٣٧٦ كلهم من حديث بريدة في حديث مطول، وهذا بعضه.

[٦٤٥٨] حسن. أخرجه أبو داود ٣٢٣٦ والترمذي ٣٢٠ والنسائي ٤/٩٤ من حديث ابن عباس وحسنه الترمذي، وفيه باذام، وهو ضعيف وأخرجه ١٠٥٦ من حديث أبي هريرة، وقال حسن صحيح، وهو كما قال، وانظر جامع الأصول ٨٦٦٣ و ٨٦٦٤.

---

(١) هو كيسان المدني مولىٰ أم شريك ثقة ثبت.

وحسان بن ثابت. قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح. وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبيّ ﷺ في زيارة القبور؛ فلما رَخَّص دخل في رخصته الرجال والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صَبْرهن، وكثرة جَزَعِهِنّ.

قلت: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء. أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهنّ ذلك. وجائز لجميعهن. ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال؛ ولا يختلف في هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قوله: «زوروا القبور»[1] عاماً. وأمّا مَوْضعٌ أو وقتٌ يُخْشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحل ولا يجوز. فبينا الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتتن، وبالعكس؛ فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزوراً غير مأجور. والله أعلم.

الخامسة: قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، ومُوتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضَرِين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من احتُضِر، وزيارة قبر من مات من المسلمين مُعايَنةٌ ومشاهدة؛ فلذلك كان أبلغ من الأوّل؛ قال ﷺ:

[٦٤٥٩] «ليس الخبر كالمعاينة». رواه ابن عباس. فأما الاعتبار بحال المحتَضَرِين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات. وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر. فينبغي لمن عزم على

[٦٤٥٩] جيد. أخرجه أحمد ١/٢٧١ وابن عدي ٧/٢٥٩٦ وأبو الشيخ في «الأمثال» (٥) وصححه ابن حبان ٦٢١٣ و ٦٢١٤ والحاكم ٢/٣١٠ و ٢/٣٢١ والبزار ٢٠٠ من طرق عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً به، وأتم منه، وقال الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وورد من حديث أنس أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٩٣٩) وقال الهيثمي ١/ ١٥٣: رجاله ثقات اهـ.

---

(١) هو بعض حديث مسلم المتقدم برقم ٦٤٥٦.

الزيارة، أن يتأدّب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها ويُسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضاً، وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه في زيارته كمخاطبته حياً، ولو خاطبه حياً لكان الأدب استقباله بوجهه؛ فكذلك هاهنا. ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه. فليتأمّل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودَرَجَ من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال؛ كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمّل من بعدهم نساؤهم، وشَمل ذل اليتيم أولادهم، واقتسم غيرهم طريفهم وتِلادهم. وليتذكر تردّدهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب. وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بدّ صائر إلى مصيرهم، وليُحضر بقلبه ذِكر من كان متردّداً في أغراضه، وكيف تهدّمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خُوِّلَه وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله. وعند هذا التذكُّر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾ قال الفرّاء: أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر والتمام على هذا ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا. ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾: وعِيد بعد وعيد؛ قاله مجاهد. ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قول الفرّاء. وقال ابن عباس: «كلا سوف تعلمون» ما ينزل بكم من العذاب في القبر. «ثم كلا سوف تعلمون» في الآخرة إذا حل بكم العذاب. فالأوّل في القبر، والثاني في الآخرة؛ فالتكرار للحالتين. وقيل: «كلا سوف تعلمون» عند المعاينة، أن ما دعوتكم إليه حق. «ثم كلا سوف تعلمون»: عند البعث، أن ما وعدتكم به صدق. وروى زِرُّ بنُ حُبَيْشٍ عن عليّ رضي الله عنه، قال: كنا نشك في عذاب القبر،

حتى نزلت هذه السورة، فأشار إلى أن قوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ يعني في القبور[1]. وقيل: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾: إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رُسُلٌ لِتَنْزِع أرواحكم. ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾: إذا دخلتم قبوركم، وجاءكم مُنْكر ونكِير، وحاط بكم هول السؤال، وانقطع منكم الجواب.

قلت: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة» أن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم؛ حَسْبَمَا أخبَر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلّف في قبره، بردّ الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يُسأَل عنه، وما يُجيب به، ويفهَم ما أتاه من ربه، وما أُعدّ له في قبره، من كرامة وهوانٍ. وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة. وقد ذكرناه هناك مستوفى، والحمد لله. وقيل: «كَلَّا سوف تعلمون» عند النشور أنكم مبعوثون «ثمّ كلا سوف تعلمون» في القيامة أنكم معذبون. وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحَشْر، وسؤال وعَرْض، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها؛ حسب ما ذكرناه في كتاب «التذكرة، بأحوال الموتى وأمور الآخرة». وقال الضحاك: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ يعني الكفار، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾: قال المؤمنون. وكذلك كان يقرؤها، الأولى بالتاء والثانية بالياء.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾ أعاد «كَلَّا» وهو زجر وتنبيه، لأنه عَقَّب كل واحد بشيء آخر؛ كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب. وإضافة العلم إلى اليقين، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٩٥]. وقيل: اليقين هاهنا: الموت؛ قاله قتادة. وعنه أيضاً: البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك، أي لو تعلمون علم البعث. وجواب «لو» محذوف؛ أي لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور، وانشقت اللُّحود عن جُثَثكم، كيف يكون حَشْركم؟ لشغلَكُم ذلك عن التكاثر بالدنيا. وقيل: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾ أي لو قد تطايرتِ الصحف، فشقِيٌّ وسعيدٌ. وقيل: إن «كَلَّا» في هذه المواضع الثلاثة بمعنى «أَلاَ» قاله ابن أبي حاتم، وقال الفرّاء: هي بمعنى «حَقًّا» وقد تقدّم الكلام فيها مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾.

---

(١) أسنده الطبري ٣٧٨٧٣ و ٣٧٨٧٥ عن علي، وإسناده واه، مداره على حجاج بن أرطأة وأخرجه الطبري ٣٧٨٧٤ عن علي من طريق آخر، وليس فيه «كنّا نشك».

قوله تعالى: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾ هذا وعيد آخر. وهو على إضمار القسم؛ أي لترون الجحيم في الآخرة. والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار. وقيل: هو عام؛ كما قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، فَهُيَّيءَ للكفار دار، وللمؤمنين ممر. وفي الصحيح: «فيمرّ أوّلهم كالبرق، ثم كالريح، ثم كالطير...»[1] الحديث. وقد مضى في سورة «مريم». وقرأ الكسائيّ وابن عامر «لَتُرَوُنَّ» بضم التاء، من أريته الشيء؛ أي تحشرون إليها فترونها. وعلى فتح التاء، هي قراءة الجماعة؛ أي لتَرون الجحيم بأبصاركم على البعد. ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾ أي مشاهدة. وقيل: هو إخبار عن دوام مُقامهم في النار؛ أي هي رؤية دائمة متصلة. والخطاب على هذا للكفار. وقيل: معنى ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾ أي لو تعلمون اليوم في الدنيا، علم اليقين فيما أمامكم، مما وصفت: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾ بعيون قلوبكم؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك؛ وهو أن تَتَصَوَّر لك تارات القيامة، وقطع مسافاتها. ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾: أي عند المعاينة بعين الرأس، فتراها يقيناً، لا تغيب عن عينك. ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾: في موقف السؤال والعرض.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال:

[٦٤٦٠] خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر؛ فقال: «ما أَخرجَكما من بُيوتِكمَا هَذِه الساعة»؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما؛ قُوما» فقاما معه؛ فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مَرْحباً وأهْلاً. فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان»؟ قالت: يستعذِب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاريّ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحِبيهِ، ثم قال: الحمد لله! ما أحدٌ اليومَ أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق، فجاءهم بِعِذْق فيه بُسْر وتمر ورُطَب، فقال: كلوا من هذه. وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياكَ

[٦٤٦٠] صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٣٨ والترمذي ٢٣٦٩ والنسائي في «الكبرى» كما في التحفة ١/٤٦٧ من حديث أبي هريرة وفي الباب من حديث ابن عباس، صححه ابن حبان ٥٢١٦، وإسناده غير قوي، والصحيح رواية مسلم.

---

(١) تقدم في سورة مريم، وغيرها.

والحَلُوبَ» فذبح لهم؛ فأكَلُوا من الشَّاة» ومن ذلك العِذق، وشرِبوا؛ فلما أن شبِعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لَتُسْأَلُنَّ عن نعيم هذا اليوم، يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم». خرجه الترمذيّ، وقال فيه: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة: ظِلٌّ بارد، ورُطب طَيِّب، وماء بارد» وكنَّى الرجل الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بن التَّيهان. وذكر قصته.

قلت: اسم هذا الرجل الأنصاريّ مالك بن التيهان، ويكنى أبا الهيثم. وفي هذه القصة يقول عبد الله بن رواحة، يمدح بها أبا الهيثم بن التَّيهان:

فَلَمْ أرَ كالإسلامِ عِزاً لأمّةٍ ... ولا مِثلَ أضيافِ الإراشيّ مَعْشَرَا
نبيّ وصِدِّيقٌ وفاروق أمّةٍ ... وخير بني حوّاء فرعا وعُنْصُرا
فوافَوْا لِميقاتٍ وقَدْرِ قَضيةٍ ... وكان قضاء الله قَدْرا مُقَدَّرَا
إلى رجلٍ نَجْدٍ يُباري بجودِهِ ... شُموسَ الضُّحَى جودا ومجداً ومَفخرا
وفارِسِ خلقِ الله في كل غارةٍ ... إذا لبِس القومُ الحديدَ المُسَمَّرَا
فَفَدَّى وحَيّا ثم أدْنَى قِراهُمُ ... فلَمْ يَقْرِهِمْ إلاَّ سَميناً مُتَمَّرَا

وقد ذكر أبو نَعيم الحافظ، عن أبي عسِيب مولى رسولِ الله ﷺ، قال:

[٦٤٦١] خرج علينا رسول الله ﷺ ليلاً، فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه، فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه، فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أطعمنا بُسْراً» فجاء بِعذْق، فوضعه فأكلوا، ثم دعا بماء فشرب، فقال: «لَتُسْأَلُنّ عن هذا يومَ القيامة» قال: وأخذ عمر العِذْق، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر نحو وجه رسول الله ﷺ؛ قال: يا رسول الله، إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: «نعم إلا من ثلاث: كِسرة يسُدّ بها جَوْعَته، أو ثوب يستر به عَوْرته، أو جُحْرٍ يأوي فيه من الحرّ والقُرّ».

واختلف أهل التأويل في النعيم المسؤول عنه على عشرة أقوال:

أحدها: الأمن والصحة؛ قاله ابن مسعود. الثاني: الصحة والفراغ؛ قاله سعيد بن جبير. وفي البخاريّ عنه عليه السلام:

[٦٤٦١] أخرجه أبو نعيم ٢/٢٧ من حديث أبي عسيب مولىٰ رسول الله ﷺ، وفيه حشرج بن نباته، غير قوي، وللحديث شواهد ستأتي بعد قليل بعون الله تعالىٰ.

[٦٤٦٢] «نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». الثالث: الإدراك بحواس السمع والبصر؛ قاله ابن عباس. وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]. وفي الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا؛ قال رسول الله ﷺ:

[٦٤٦٣] «يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً، ومالاً وولداً...»، الحديث. خرجه الترمذيّ وقال فيه: حديث حسن صحيح. الرابع: ملاذ المأكول والمشروب؛ قاله جابر بن عبد الله الأنصاري. وحديث أبي هريرة يدل عليه. الخامس: أنه الغداء والعشاء؛ قاله الحسن. السادس: قول مكحول الشامي ـ: أنه شِبَعُ البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخُلق، ولذة النوم. ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال:

[٦٤٦٤] قال رسول الله ﷺ: «﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾: يعني عن شبع البطون...». فذكره. ذكره الماوردي، وقال: وهذا السؤال يعمّ الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة. وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية. وقال قوم: هذا السؤال عن كل نعمة، إنما يكون في حق الكفار، فقد رُوي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال:

[٦٤٦٥] يا رسول الله، أرأيتَ أكلةً أكلتُها معك في بيت أبي الهيثم بن التَّيِّهان، من خبز شعير ولحم وبُسْر قد ذَنَّبَ[1]، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نُسأل عنه؟ فقال عليه السلام: «ذلك للكُفار، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧]». ذكره القشيريّ أبو نصر. وقال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلاّ أهل النار. وقال القشيري: والجمع بين الأخبار: أن الكل يُسْألون، ولكن سؤال الكفار توبيخ، لأنه قد ترك الشكر. وسؤال المؤمن سؤال تَشْريف، لأنه شَكَر. وهذا النعيم في كل نعمة.

[٦٤٦٢] صحيح. أخرجه البخاري ٦٤١٢ من حديث ابن عباس، وتقدم.

[٦٤٦٣] صحيح. لشواهده. أخرجه الترمذي ٢٤٣٠ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد، وإسناده حسن وهو عند مسلم ٢٩٦٨ من حديث أبي هريرة مطول.

[٦٤٦٤] هذا مرسل. ذكره الماوردي ٦/ ٣٣٢ هكذا بدون إسناد، فهو واهٍ وانظر ما بعده.

[٦٤٦٥] عزاه المصنف للقشيري وهو غريب بهذا السياق وبنحوه أخرجه الطبراني ١٠٤٩٦ من حديث ابن مسعود، بسند ساقط لأجل الكلبي، فإنه متروك، ويغني عنه ما تقدم وما يأتي، وله شواهد راجع الدر ٦/ ٦٦٣ ـ ٦٦٤.

---

(١) أي بدأ فيه الإرطاب.

قلت: هذا القول حسن، لأن اللفظ يعم. وقد ذكر الفِرْيابي قال: حدّثنا ورقاء عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ قال: كل شيء من لذة الدنيا. وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال:

[٦٤٦٦] «إن الله تعالى لَيُعَدِّد نِعمه على العبد يوم القيامة، حتى يَعُدَّ عليه: سألتني فلانة أن أزوّجكها، فيسميها باسمها، فزوجتكها». وفي الترمذي عن أبي هريرة قال:

[٦٤٦٧] لما نزلت هذه الآية: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ قال الناس: يا رسول الله، عن أي النعيم نُسْأَل؟ فإنما هما الأسودان[1] والعدوّ حاضر، وسيوفنا على عواتقنا. قال: «إن ذلك سيكون». وعنه قال:

[٦٤٦٨] قال رسول الله ﷺ: «إن أوّل ما يسأل عنه يوم القيامة ـ يعني العبد ـ أن يقال له: ألم نُصِحَّ لك جسمك، ونُروِيَك من الماء البارد» قال[2]: حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٦٤٦٩] «إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده، فيوقفه بين يديه، فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله». والجاه من نعيم الدنيا لا محالة. وقال مالك رحمه الله: إنه صحة البدن، وطيب النفس. وهو القول السابع. وقيل: النوم مع الأمن والعافية. وقال سفيان بن عيينة: إن ما سَدَّ الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس، لا يُسأل عنه المرء يوم القيامة، وإنما يُسأل عن النَّعيم. قال: والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة. فقال له: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩]. فكانت هذه الأشياء الأربعة ـ ما يُسدّ به الجوع، وما يُدفع به العطش،

[٦٤٦٦] لم أجده مسنداً، وذكره السيوطي في الدر ٦/ ٦٦٠ بنحوه من حديث عياض بن غنم وعزاه لابن مردويه، فالله أعلم.

[٦٤٦٧] حسن. أخرجه الترمذي ٣٣٥٧ من حديث أبي هريرة، وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو وكرره الترمذي ٣٣٥٦ من حديث الزبير بن العوام، وإسناده حسن في الشواهد.

[٦٤٦٨] أخرجه الترمذي ٣٣٥٨ والطبري ٣٧٨٩٩ من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي: حديث غريب اهـ رجاله كلهم ثقات، فالحديث حسن الإسناد، مع غرابة متنه، والله أعلم.

[٦٤٦٩] ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٤٥١ و«الصغير» ١٨ من حديث ابن عمر، وقال الهيثمي ١٣٨٧٤: فيه يوسف بن يونس، وهو ضعيف جداً.

---

(١) التمر والماء.

(٢) في العبارة غموض ولعل هناك سقطاً.

وما يَسْتَكِنُّ فيه من الحر، ويَسْتُر به عَورته ـ لآدم عليه السلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها، لأنه لا بدّ له منها.

قلت: ونحو هذا ذكره القشيري أبو نصر، قال: إن مما لا يسأل عنه العبد لباساً يواري سوأته، وطعاماً يقيم صُلْبه، ومكاناً يُكِنه من الحرّ والبرد.

قلت: وهذا منتزع من قوله عليه السلام:

[٦٤٧٠] «ليسَ لابن آدمَ حَقٌّ في سِوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجِلْف الخبز والمَاء» خرجه الترمذيّ. وقال النضر بن شُميل: جِلف الخبز: ليس معه إدام. وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ. وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال الحسن أيضاً والمفضَّل: هو تخفيف الشرائع، وتيسير القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

قلت: وكل هذه نِعم، فيسأل العبد عنها: هل شكر ذلك أم كفر. والأقوال المتقدمة أظهر. والله أعلم.

تفسير سورة والعصر

وهي مكية. وقال قتادة مدنِية؛ وروي عن ابن عباس. وهي ثلاث آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ أي الدهر؛ قاله ابن عباس وغيره. فالعصر مِثل الدهر؛ ومنه قول الشاعر:

سَبيلُ الهَوَى وَعْرٌ وبحرُ الهَوَى غَمْرُ ... ويَوْمُ الهَوَى شَهْر وشهْرُ الهَوى دَهْرُ

أيّ عصرٍ أقسم الله به عز وجلّ؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدّلها، وما

[٦٤٧٠] تقدم مراراً.

فيها من الدلالة على الصانع. وقيل: العصر: الليل والنهار. قال حُميد بن ثور:

وَلَنْ يَلْبَثَ العَصْرانِ: يَومٌ وَليلةٌ ... إذا طَلَبا أَنْ يُدرِكا ما تَيَمَّمَا

والعصران أيضاً: الغداة والعشيّ. قال:

وأَمْطُلَه العَصْرين حتى يَمَلّني ... ويرضى بِنِصفِ الدَّينِ والأَنْفُ راغِمُ

يقول: إذا جاءني أوّل النهار وعدته آخره. وقيل: إنه العشيّ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها؛ قاله الحسن وقتادة. ومنه قول الشاعر:

تَرَوَّحْ بِنا يا عمرُو قَدْ قَصُرَ العَصْرُ ... وفي الرَّوْحةِ الأُولى الغنيمة والأَجْرُ

وعن قتادة أيضاً: هو آخر ساعة من ساعات النهار. وقيل: هو قَسَم بصلاة العصر، وهي الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات؛ قاله مقاتل. يقال: أُذِّن للعصر؛ أي لصلاة العصر. وصُلِّيت العصر؛ أي صلاة العصر. وفي الخبر الصحيح:

[٦٤٧١] «الصلاةُ الوسْطَى: صلاة العصر». وقد مضى في سورة «البقرة» بيانه. وقيل: هو قسم بعصر النبيّ ﷺ، لفضله بتجديد النبوّة فيه. وقيل: معناه ورب العصر.

الثانية: قال مالك: من حلَف ألاّ يكلم رجلاً عَصْراً: لم يكلمه سنة. قال ابن العربيّ: «إنما حمل مالك يمينَ الحالف ألا يكلم امرأ عصراً على السنة؛ لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان. وقال الشافعيّ: يَبَرُّ بساعة، إلا أن تكون له نية، وبه أقول؛ إلا أن يكون الحالف عربياً، فيقال له: ما أردت؟ فإذا فسره بما يحتمله قُبِل منه، إلا أن يكون الأقل، ويجيء على مذهب مالك أن يحمل على ما يفسر. والله أعلم».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

هذا جواب القسم. والمراد به الكافر؛ قاله ابن عباس في رواية أبي صالح. وروى الضحاك عنه قال: يريد جماعة من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزَّىٰ، والأسود بن عبد يغوث. وقيل: يعني بالإنسان جنس الناس. ﴿لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾: لفي غَبْن. وقال الأخفش: هَلَكَةٍ. الفرّاء: عقوبة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق: ٩]. ابن زيد: لفي شر. وقيل: لفي نقص؛ المعنى متقارب. وروي عن سلام «والعصِر» بكسر الصاد. وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثقفِيّ «خُسُرٍ» بضم السين. وروى ذلك هارون عن أبي بكر عن

[٦٤٧١] تقدم تخريجه.

عاصم. والوجه فيهما الإتباع. ويقال: خُسْر وخُسُر؛ مثل عُسْر وعُسُر. وكان عليّ يقرؤها «والْعَصْرِ ونَوائِب الدَّهْر، إنّ الإنسان لفي خُسْر. وإنه فيه إلى آخر الدهر». وقال إبراهيم: إن الإنسان إذا عُمِّرَ في الدنيا وهَرِم، لفي نقص وضعف وتراجع؛ إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم؛ نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٤ ـ ٥]. قال: وقراءتنا «والعصْرِ إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ، وإنَّهُ في آخر الدهر». والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف. وقد مضى الردّ في مقدّمة الكتاب على من خالف مصحف عثمان، وأن ذلك ليس بقرآن يتلى؛ فتأمّله هناك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استثناء من الإنسان؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي أدّوا الفرائض المفترضة عليهم؛ وهم أصحاب رسول الله ﷺ. قال أبيّ بن كعب:

[٦٤٧٢] قرأت على رسول الله ﷺ «والعصر» ثم قلت: ما تفسيرها يا نبي الله؟ قال: «والعَصْر» قَسَم من الله، أقسم ربكم بآخر النهار: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾: أبو جهل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أبو بكر، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عمر. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ عثمان ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ عليّ رضي الله عنهم أجمعين. وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفاً عليه(١). ومعنى ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أي تحابّوا؛ أوصى بعضهم بعضاً، وحث بعضهم بعضاً. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالتوحيد؛ كذا روى الضحاك عن ابن عباس. قال قتادة: «بِالحقِّ» أي بالقرآن. وقال السدّي؛ الحق هنا هو الله عز وجل. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ على طاعة الله عز وجل، والصبر عن معاصيه. وقد تقدم. والله أعلم.

[٦٤٧٢] لم أجده وهو موضوع مفترىً لايصح مرفوعاً ولا موقوفاً، وهو من بدع التأويل، والعجب كيف خفي حاله على القرطبي رحمه الله؟!.

---

(١) لا يصح موقوفاً كما سلف، فمثل هذا لا يقوله ابن عباس رضي الله عنهما.

تفسير سورة الهمزة

مكية بإجماع. وهي تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾.

قد تقدّم القول في «الويل» في غير موضع، ومعناه الخِزي والعذاب والهَلَكة. وقيل: وادٍ في جهنم. ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ قال ابن عباس: هم المشّاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب؛ فعلى هذا هما بمعنى. وقال النبيّ ﷺ:

[٦٤٧٣] «شِرار عبادِ الله تعالى المَشَّاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب». وعن ابن عباس أن الهُمَزَة: القَتّات، واللُّمزة: العياب. وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رَباح: الهمزة: الذي يغتاب ويَطْعنُ في وجه الرجل، واللمزة: الذي يغتابه مِن خلفه إذا غاب؛ ومنه قول حسان:

هَمَزْتُكَ فاخْتَضَعْتَ بذُل نفسٍ   بِقافِيةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ

واختار هذا القول النحاس، قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]. وقال مُقاتل ضدّ هذا الكلام: إن الهُمَزَة: الذي يَغتابُ بالغَيبة،

[٦٤٧٣] أخرجه أحمد ٦/٤٥٩ والطبراني ٢٤/١٦٧ والديلمي ٣٦٥٧ من حديث أسماء بنت يزيد، وقال العراقي في الإحياء ٢/١٨٥: إسناده ضعيف.

وقال الهيثمي في المجمع ١٣١٣٨/٨: فيه شهر بن حوشب وثقه غير واحد وبقية رجال أحد أسانيده رجال الصحيح اهـ.

وكرره أحمد ٤/٢٢٧ من حديث شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم، وأخرجه الطبراني من حديث عبادة بن الصامت وفيه يزيد بن ربيعة متروك اهـ.

قلت: شهر بن حوشب وثقه غير واحد وضعفه آخرون لكن قال أحمد: روىٰ عن أسماء بنت يزيد أحاديث حساناً اهـ وهذا الحديث رواه عن أسماء، وعلىٰ هذا ينبغي أن يكون حسناً علىٰ قاعدة الإمام أحمد، والله تعالىٰ أعلم. وبهذا يتبين أن جزم العراقي رحمه الله بتضعيف إسناده، فيه نظر، والله أعلم.

واللُّمَزة: الذي يغتاب في الوجه. وقال قتادة ومجاهد: الهُمَزة: الطَّعّان في الناس، واللُّمَزة: الطَّعّان في أنسابهم. وقال ابن زيد: الهامز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللُّمَزة: الذي يَلْمِزهم بلسانه ويعيبهم. وقال سفيان الثوريّ: يهمِز بلسانه، ويلمِز بعينيه. وقال ابن كيسان: الهُمَزَة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جليسه، ويشير بعينه ورأسه وبحاجبيه. وقال مرة: هما سواء؛ وهو القَتَّات الطَّعَّان للمرء إذا غاب. وقال زياد الأعجم:

تُدْلِي بِوُدِّي إذا لاقيتَنِي كَذِباً ... وإنْ أُغَيَّبْ فانت الهامزُ اللُّمَزهْ

وقال آخر:

إذا لقِيتكَ عن سُخْطٍ تُكاشِرُنِي ... وإن تَغَيَّبتُ كنت الهامِزَ اللُّمَزَهْ

الشحط: البعد. والهُمَزة: اسم وضِع للمبالغة في هذا المعنى؛ كما يقال: سُخَرَةٌ وضُحكَة: للذي يَسخَر ويَضْحك بالناس. وقرأ أبو جعفر محمد بن عليّ والأعرج «هُمْزَة لُمْزَة» بسكون الميم فيهما. فإن صح ذلك عنهما، فهي في معنى المفعول، وهو الذي يتعرّض للناس حتى يَهْمِزوه ويضحكوا منه، ويحملهم على الاغتياب. وقرأ عبد الله بن مسعود وأبو وائل والنخَعيّ والأعمش: «ويْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ». وأصل الهمز: الكسر، والعَضّ على الشيء بعنف؛ ومنه همز الحرف. ويقال: همزت رأسه. وهمزت الجوز بكفي كسرته. وقيل لأعرابيّ: أتهمزون (الفارة)؟ فقال: إنما تهمزها الهِرّة. الذي في الصحاح: وقيل لأعرابي أتهمز الفارة؟ فقال السنور يهمزها. والأوّل قاله الثعلبي، وهو يدل على أن الهِرّ يسمى الهمزة. قال العجاج:

ومَنْ هَمَزْنَا رأسَهُ تَهَشَّما

وقيل: أصل الهمز واللمز: الدفع والضرب. لَمَزَهُ يَلْمِزه لَمْزاً: إذا ضربه ودفعه. وكذلك هَمَزَهُ: أي دفعه وضربه. قال الراجز:

ومَنْ هَمَزْنَا عِزَّهُ تَبَرْكَعا ... على اَسْتِهِ زَوْبَعَةً أو زَوْبَعَا

البركعة: القيام على أربع. وبركعهُ فتبركع؛ أي صرعه فوقع على استه؛ قاله في الصحاح. والآية نزلت في الأخنس بن شَريق، فيما رَوى الضحاك عن ابن عباس. وكان يَلْمز الناس ويعيبهم، مقبلين ومدبرين. وقال ابن جُرَيج: في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويقدح فيه في وجهه. وقيل: نزلت في أُبَيّ بن خَلَف. وقيل: في جميل بن عامر الثقفيّ. وقيل: إنها مرسلة على العموم من غير تخصيص؛ وهو قول الأكثرين. قال مجاهد: ليست بخاصة لأحد، بل لكل من كانت هذه صفته. وقال الفرّاء: يجوز أن يذكر الشيء العام ويقصد به الخاصّ، قصدَ الواحد إذا قال: لا أزورك أبداً.

فتقول: من لم يزرني فلست بزائره؛ يعني ذلك القائل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾.

أي أعدّه ـ زعم ـ لنوائب الدهر؛ مثل كَرُمَ وأكرم. وقيل: أحصى عدده؛ قاله السديّ. وقال الضحاك: أي أعدّ ماله لمن يرثه من أولاده. وقيل: أي فاخر بعدده وكثرته. والمقصود الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة. كما قال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [القلم: ١٢]، وقال: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ [المعارج: ١٨]. وقراءة الجماعة «جَمَع» مخفف الميم. وشدّدها ابن عامر وحمزة والكسائيّ على التكثير. واختاره أبو عُبيد؛ لقوله: «وَعَدَّدَه». وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية «جَمَع» مخففاً، «وعَدَدَه» مخففاً أيضاً؛ فأظهروا التضعيف، لأن أصله عَدَّه وهو بعيد؛ لأنه وقع في المصحف بدالين. وقد جاء مثله في الشعر؛ لما أبرزوا التضعيف خففوه. قال[1]:

مَهْلاً أُمامةُ قد جَرَّبْتِ منْ خُلُقِي ... إنِّـي أَجُـودُ لأِقْـوامٍ وإنْ ضَنِنُـوا

أراد: ضَنُّوا وبخِلوا، فأظهر التضعيف؛ لكن الشعر موضع ضرورة. قال المهدوِيّ: من خفف «وعدّده» فهو معطوف على المال؛ أي وجمع عدده فلا يكون فعلاً على إظهار التضعيف؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا في الشعر.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ﴾ أي يظنّ ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ أي يبقيه حياً لا يموت؛ قاله السُّدِّيّ. وقال عكرمة: أي يزيد في عمره. وقيل: أحياه فيما مضى، وهو ماضٍ بمعنى المستقبل. يقال: هلك والله فلان ودخل النار؛ أي يدخل. ﴿كَلَّا﴾ ردّ لما توهمه الكافر؛ أي لا يَخْلُد ولا يَبقَى له مال. وقد مضى القول في «كَلاّ» مستوفى. وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرة: إذا سمعت الله عز وجل يقول «كَلَّا» فإنه يقول كذبت. ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي ليطرحنّ وليلقين. وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحُمَيد وابن محيصن: لَيَنْبَذَانِّ بالتثنية، أي هو وماله. وعن الحسن أيضاً «لَيُنْبَذَنَّهُ» على معنى لَيُنْبَذَنّ مالُه. وعنه أيضاً بالنون «لَنَنْبِذَنَّهُ» على إخبار الله تعالى عن نفسه، وأنه يَنْبِذ صاحب المال. وعنه أيضاً «لَيُنْبَذُنَّ» بضم الذال؛ على أن المراد الهمزة

(١) قائله قعنب ابن أم صاحب.

واللمزة والمال وجامعه. ﴿فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤﴾ وهي نار الله؛ سُمّيت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلْقى فيها وتحطمه وتَهْشِمُه. قال الراجز:

إنـا حَطَمْنـا بـالقَضيـبِ مُصْعَبـا ... يَـومَ كَسَـرْنـا أَنْفَـه لِيغضبَـا

وهي الطبقة السادسة من طبقات جهنم. حكاه الماوردي عن الكلبي. وحَكى القشيري عنه: «الحُطَمة» الدَّرَكة الثانية من درك النار. وقال الضحاك: وهي الدرك الرابع. ابن زيد: اسم من أسماء جهنم. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾ على التعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها. ثم فسرها ما هي فقال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾ أي التي أُوقد عليها ألفَ عام، وألف عام، وأَلْف عام؛ فهي غير خامدة، أعدّها الله للعصاة. ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾ قال محمد بن كعب: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خُلِقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم. وكذا روى خالد بن أبي عمران عن النبيّ ﷺ:

[٦٤٧٤] «أن النار تأكل أهلها، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت، ثم إذا صَدَروا تعود، فذلك قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾». وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه. أي إنه في حال من يموت وهم لا يموتون؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝٧٤﴾ [طه: ٧٤] فهم إذاً أحياء في معنى الأموات. وقيل: معنى «تَطَّلِعُ على الأَفْئِدَةِ» أي تعلم مقدار ما يستحقُّه كل واحد منهم من العذاب؛ وذلك بما استبقاه الله تعالى من الأمارة الدالة عليه. ويقال: اطَّلَع فلان على كذا: أي علمه. وقد قال الله تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ [المعارج: ١٧]. وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ۝١٢﴾ [الفرقان: ١٢]. فوصفها بهذا، فلا يبعد أن توصف بالعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾.

أي مُطْبَقة؛ قاله الحسن والضحاك. وقد تقدّم في سورة «البَلَد» القول فيه. وقيل: مُغلقة؛ بلغة قريش. يقولون: آصَدْتُ الباب: إذا أغلقته؛ قاله مجاهد. ومنه قول عُبيد الله بن قيس الرقيات:

إنَّ فـي القَصْـرِ لَـوْ دَخَلْنَـا غَـزَالاً ... مُصْفَقـاً مُـوصَـداً عليـهِ الحِجَـابُ

[٦٤٧٤] واه بمرة. ذكره الماوردي في تفسيره ٦/ ٣٣٧ عن خالد بن أبي عمران مرسلاً بدون إسناد، فهو واهٍ بمرة والله أعلم. والراجح كونه من كلام ابن المنكدر ومحمد بن كعب، كذا في «الدر» ٦/ ٦٧٠ وانظر ابن كثير ٤/ ٦٥٦.

﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾ ﴾ الفاء بمعنى الباء؛ أي موصدة بعمد ممدّدة، قاله ابن مسعود؛ وهي في قراءته «بِعَمَدٍ مُمَدَّدةٍ» وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ:

[٦٤٧٥] «ثُمَّ إنَّ الله يَبْعَثُ إلَيهِمْ ملائكة بأطباق من نار، ومسامير من نار وعَمَد من نار، فتطبق عليهم بتلك الأطباق، وتشدّ عليهم بتلك المسامير، وتمدّ بتلك العَمد، فلا يَبْقى فيها خَللٌ يدخل فيه رَوْح، ولا يخرج منه غمّ، وينساهم الرحمن على عرشه، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبداً، وينقطع الكلام، فيكون كلامهم زَفِيراً وشهيقاً؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾ ﴾». وقال قتادة: «عَمَد» يعذبون بها. واختاره الطبريّ. وقال ابن عباس: إن العَمَد الممدّدة أغلال في أعناقهم. وقيل: قيود في أرجلهم؛ قاله أبو صالح. وقال القشيريّ: والمعظم على أن العمد أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار. وتشدّ تلك الأطباق بالأوتاد، حتى يرجع عليهم غمها وحرها، فلا يدخل عليهم رَوْحٌ. وقيل: أبواب النار مطبقة عليهم وهم في عَمَد؛ أي في سلاسل وأغلالٍ مطوّلة، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة. وقيل: هم في عمد ممدّدة؛ أي في عذابها وآلامها يُضْربون بها. وقيل: المعنى في دهر ممدود؛ أي لا انقطاع له. وقرأ حمزة والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم «فِي عُمُدٍ» بضم العين والميم: جمع عمود. وكذلك «عَمَد» أيضاً. قال الفراء: والعَمَد والعُمُد: جمعان صحيحان لعمود؛ مثل أدِيم وأَدَم وأُدُم، وأَفِيق[1] وأَفَقٍ وأُفُقٍ. أبو عُبيدة: عَمَد: جمع عِماد؛ مثل إهاب. واختار أبو عُبيد «عَمَد» بفتحتين. وكذلك أبو حاتم؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿ رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢] وأجمعوا على فتحها. قال الجوهريّ: العمود: عمود البيت، وجمع القلة: أعمدة، وجمع الكثرة عُمُد، وعَمَد؛ وقرىء بهما قوله تعالى: ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾ ﴾. وقال أبو عبيدة: العمود، كل مستطيل من خشب أو حديد، وهو أصل للبناء مثل العِماد. عَمَدْت الشيء فانعمد؛ أي أقمته بِعِماد يعتمِد عليه. وأعمدته جعلت تحته عَمَداً. والله أعلم.

[٦٤٧٥] أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول كما في «الدر» ٦/ ٦٧١ من حديث أبي هريرة في حديث طويل، وهذا عجزه، ولم أقف على إسناده. وتفرده به دليل على وهنه، بل هو يروي الموضوعات.

---

(١) الأديم: الجلد المدبوغ. والأفيق: الجلد الذي لم يدبغ.

تفسير سورة الفيل

وهي مكية بإجماع. وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تُخبَر. وقيل: أَلَمْ تَعْلَم. وقال ابن عباس: أَلَمْ تسمع؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير. والخطاب للنبيّ ﷺ، ولكنه عام؛ أي ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأَصْحَابِ الفيل؛ أي قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع مِنَّتِي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟ و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ«ـفَعَلَ رَبُّك» لا بـ«ـألم تر كيف» من معنى الاستفهام.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ الفيل معروف، والجمع أفيال: وفُيول، وفِيَلَة. قال ابن السكيت: ولا تقل أفيلة. والأنثىٰ فِيلة وصاحبه فَيَّال. قال سيبويه: يجوز أن يكون أصل فِيل فُعْلاً، فكُسِر من أجل الياء؛ كما قالوا: أبيض وبِيض. وقال الأخفش: هذا لا يكون في الواحد، إنما يكون في الجمع. ورجل فِيل الرأي، أي ضعيف الرأي. والجمع أفيال. ورجل فال؛ أي ضعيف الرأي، مخطىء الفِراسة. وقد فال الرأي يَفِيل فُيولة، وفَيَّل رأيه تفييلاً: أي ضعفه، فهو فَيِّل الرأي.

الثالثة: في قصة أصحاب الفيل[1]؛ وذلك أن (أَبرهة) بنى القُلَّيس بصنعاء، وهي كنيسة لم يُرَ مِثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانياً، ثم كتب إلى النجاشيّ: إني قد بنيت لك أيها الملِك كنيسة لم يُبْن مثلها لملِك كان قبلك، ولست بمنتهٍ حتى أصرِف إليها حج العرب فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشيّ، غضب

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٣ أمر الفيل وقصته النّساء وحتى ص ٥٥ وتفسير ابن كثير ٤/ ٥٨٧ ـ ٥٩١ والدر المنثور ٦/ ٦٧٢ ـ ٦٧٤ وتفسير السمرقندي ٣/ ٥١٢ ـ ٥١٤ ـ ٥١٥ والبغوي ٤/ ٤٩٤ ـ ٤٩٧ والدلائل للبيهقي ١/ ٨٥.

رجل من النَّسَأة[1]، فخرج حتى أتى الكنيسة، فقعد فيها ـ أي أحدث ـ ثم خرج فلحِق بأرضه فأُخْبِر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحج إليه العرب بمكة، لما سمِع قولك: «أَصْرِف إليها حَجَّ العرب» غضب، فجاء فقعد فيها. أي أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسِيَرنّ إلى البيت حتى يهدِمه، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كِنانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة؛ فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل؛ فزاد أبرهةَ ذلك غضباً وحَنَقاً؛ ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل؛ وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفَظِعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزِم ذو نفر وأصحابه، وأخِذ له ذو نفر فأُتِي به أسيراً؛ فلما أراد قتله قال له ذو نَفْر: أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي؛ فتركه من القتل، وحبسه عنده في وَثاق، وكان أبرهة رجلاً حليماً. ثم مضىٰ أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له، حتىٰ إذا كان بأرض خَثْعَمَ عرض له نُفَيل بن حبيب الخَثْعَمِيّ في قبيلتي خثعم: شَهران وناهِس، ومنه تبعه من قبائل العرب؛ فقاتله فهزمه أبرهة، وأُخِذ له نُفيل أسيراً؛ فأُتِي به، فلما همّ بقتله قال له نُفَيل: أيها الملك لا تقتلني، فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهِس، بالسمع والطاعة؛ فخلى سبيله. وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجالِ من ثقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدكِ؛ سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يَدُلُّك عليه؛ فتجاوز عنهم. وبعثوا معه أبا رِغال، حتى أنزله المغمِّس[2] فلما أنزله به مات أبو رِغال هناك، فَرَجَمت قبره العرب؛ فهو القبر الذي يرجُم الناسُ بالمغمس، وفيه يقول الشاعر:

وأرجُمُ قَبرَه في كل عامٍ ... كرجْم الناس قبر أبي رِغالِ

فلما نزل أبرهة بالمغمس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على

---

(١) في سيرة ابن هشام ١/ ٤٤: والنَّسَأة: الذين كانوا ينسون الشهور في الجاهلية فيحلون الشهر من الحرم، ويحرمون مكانه عن أشهر الحل، ففيْ ذٰلك ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر﴾.

(٢) موضع قرب مكة في طريق الطائف.

خيل له، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذٍ كبير قريش وسيدها؛ فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حُناطة الحِميرِيّ إلى مكة، وقال له: سل عن سيد هذا البلد وشرِيفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تَعْرضوا لي بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم؛ فإن هو لم يُرِد حربي فأتني به. فلما دخل حُناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها؛ فقيل له: عبد المطلب بن هاشم؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة؛ فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، أو كما قال، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يحل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال له حُناطة: فانطلِق إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك؛ فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر؛ فسأل عن ذي نَفْر، وكان صديقاً له، حتى دخل عليه وهو في مَحْبِسه، فقال له: يا ذا نفْر، هل عندك من غَناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفْر؛ وما غَناء رجل أسير بيدي ملِك، ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشِيا! ما عندي غَناء في شيء مما نزل بك، إلا أنّ أُنيْساً سائس الفيل صديق لي، فسأرسل إليه، وأوصِيه بك، وأُعْظِم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلِّمَه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قَدَر على ذلك؛ فقال حسبِي. فبعث ذو نَفْر إلى أنَيس، فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش، وصاحب عَيْن مكة، ويطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاسْتَأْذنْ له عليه، وانفعه عنده بما استطعت؛ فقال: أَفْعَلُ. فكلم أُنيس أبرهة، فقال له: أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك، يستأذن عليك، وهو صاحب عَيْن مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فأْذَنْ له عليك، فيكلمَك في حاجته. قال: فأذن له أبرهة.

وكان عبد المطلب أَوسم الناس، وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أَجَلَّه، وأعظمه عن أن يجلسه تحته؛ فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. ثم قال لتَرجمانه: قل له: حاجَتك؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنتَ أعجبتَني حين رأيتك، ثم قد زهِدْتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئتُ لهدمه؟ لا تكلمني فيه!. قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإنّ للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني! قال أنت وذاك. فردّ عليه إبله. وانصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر،

وأمرهم بالخروج من مكة والتحرّز في شَعَف الجبال والشِّعاب، تخوفاً عليهم مَعرّة[1] الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلْقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمْـ ـنعُ رَحْلَهُ فامنعْ حِلالَكْ[2]
لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ومِحالُهُمْ عَدْواً مِحالَكْ
إنْ يَدْخلوا البلد الحرا مَ فأمرٌ ما بَدَالَكْ

يقول: أي: شيء ما بدالك، لم تكن تفعله بنا. والحِلال: جمع حِلّ. والمِحال: القوّة. وقيل: إن عبد المطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة قال:

يا رَبِّ لا أرجُو لَهمْ سِواكا يا ربِّ فامنعْ منهُم حِماكا
إنّ عدوَّ البيت مَنْ عاداكا إنهُم لن يقهروا قُواكا

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لا هُمَّ أخْزِ الأسودَ بن مقصود الآخِذَ الهَجْمَةَ[3] فيها التَّقْلِيدْ
بين حِراءٍ وثَبِيرٍ فالبِيدْ[4] يحبسها وهي أولات التطريدْ
فضمها إلى طَماطِمٍ سُودْ قَدْ أَجْمَعُوا أَلاَّ يكون مَعْبُودْ
ويهدموا البيتَ الحرامَ المَعْمُودْ والمَرْوَتَيْنِ والْمَشَاعِرَ السُّود
أخفِره يا رب وأنت محمود

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرّزوا فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله، وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهة مجمع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نُفَيْل بن حبيب، حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأُذنه فقال له: ابرك محمود، وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نُفَيل بن حبيب

---

(١) المعرة: الأذىٰ. ومعرة الجيش: أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زروعهم بغير علم.
(٢) الحِلال: أي سكان الحرم المجاورون.
(٣) الهجمة: القطعة الضخمة من الإبل.
(٤) البيد: جمع بيداء وهي الغلاة.

يشتدّ، حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين[١] ليقوم فأبى؛ فأدخلوا محاجن[٢] لهم في مراقه، فبزغوه[٣] بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يُهَرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر، أمثال الخطاطيف والبَلَسان[٤]، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر في مِنقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحِمَّص والعَدَس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك؛ وليس كلّهم أصابتْ. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي جاؤوا منها، ويسألون عن نفيل بن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن. فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أَيْـنَ المَفَـرُّ والإلٰـهُ الطَّـالـبْ ... والأَشْرَمُ[٥] المغلوبُ ليسَ الغالبْ

وقال أيضاً:

حمِـدتُ الله إذ أبصـرتُ طَيْـراً ... وخِفـت حِجـارَةً تُلْقَـى علينـا

فكـلُّ القـومِ يسـأل عـن نُفَيـلٍ ... كَـأَنَّ عَلَـيَّ لِلْحُبْشـان دَيْنـا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلِكون بكـل مَهْلِـك على كل سَهْل، وأصيب أَبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أَنْمُلَةً أنملة، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مِدّةً تمث[٦] قيحاً ودماً؛ حتى قدِموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه؛ فيما يزعمون.

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان ـ يزيد أحدهما وينقص ـ: وسبب الفيل ما رُوي: أن فِتْية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشيّ، فنزلوا على ساحل البحر إلى بِيعة للنصارى، تسميها النصارى الهَيْكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البِيعة ناراً، فاحترقت؛ فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره، فاستشاط غضباً. فأتاه أبرهة بن الصَّبَّاح وحُجْر بن شُرَحْبيلَ وأبو يَكْسومَ الكِنْديون؛ وضمنوا له إحراق الكعبة وسَبْي مكة. وكان النجاشيّ هو الملك، وأبرهةُ صاحب الجيش، وأبو يكسوم نديم الملك، وقيل وزيره، وحُجْر بن شُرَحبيل من قوّاده. وقال مجاهد: أبو

(١) الطبر: الفأس من السلاح، ومثله الطبرزين.
(٢) العصا المنعطفة الرأس.
(٣) أي شرطوه.
(٤) ضرب الطير: قيل، الزرزور.
(٥) الأشرم هو أبرهة.
(٦) مثّ السقاءُ. رشح. والمِدَّة: النزُّ.

يكسوم هو أبرهة بن الصباح. فساروا ومعهم الفيل. قال الأكثرون: هو فيل واحد. وقال الضحاك: هي ثمانية فِيَلَة. ونزلوا بذي المَجاز، واستاقوا سَرْح مكة، وفيها إبل عبد المطلب. وأتى الراعي نذيراً، فصعد الصفا، فصاح: واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجيء الجيش والفيل. فخرج عبد المطلب، وتوجه إلى أبرهة، وسأله في إبله. واختُلِف في النجاشيّ، هل كان معهم؛ فقال قوم كان معهم. وقال الأكثرون: لم يكن معهم. ونظر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر؛ فقال عبد المطلب: إن هذه الطير غريبة بأرضنا، وما هي بنَجدية ولا تِهامية ولا حجازية» وإنها أشباه اليعاسيب[1]. وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة؛ فلما أطلت على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا. قال عطاء بن أبي رباح: جاءت الطير عشية؛ فباتت، ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم. وقال الكلبيّ: في مناقيرها حصًى كحصى الخَذْف، أمام كل فرقة طائر يقودها، أحمر المِنقار، أسود الرأس، طويل العنق. فلما جاءت عسكر القوم وتوافت، أهالت ما في مناقيرها على من تحتها، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه المقتول به. وقيل: كان على كل حجر مكتوب: من أطاع الله[2] نجا، ومن عصاه غَوَىٰ. ثم انصاعت راجعة من حيث جاءت. وقال العَوفيّ: سألت عنها أبا سعيد الخدري، فقال: حمام مكة منها. وقيل: كان يقع الحجر على بيضة[3] أحدهم فيخرقها، ويقع في دِماغه، ويخرق الفيلَ والدابة. ويغيب الحجر في الأرض من شدّة وقعه. وكان أصحاب الفيل ستين ألفاً، لم يرجع منهم أحد إلا أميرهم، رجع ومعه شِرذمة لطيفة. فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. وقال الواقديّ: أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمان رسول الله ﷺ، وأبرهة هو الأشرم، سمي بذلك لأنه تفاتن[4] مع أرياط، حتى تزاحفا، ثم اتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما، فمن غَلَب فله الأمر. فتبارزا ـ وكان أَرْياطُ جسيماً عظيماً، في يده حربة، وأبرهة قصيراً حادِراً[5]، حليماً ذا دين في النصرانية، ومع أبرهة وزير له يقال له عِتْوَدَة ـ فلما دنوا ضرب أرياط بحربته رأس أبرهة، فوقعت على جبينه، فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته؛ فلذلك سُمِّي الأشرم. وحمل عِتْودة على أرياط فقتله. فاجتمعت الحبشة لأبرهة؛ فغضب النجاشيّ، وحلف ليَجُزَّنَّ ناصية أبرهة، ويطأن بلاده. فجز أبرهة ناصيته وملأ مِزوداً من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشيّ، وقال: إنما كان عبدَك، وأنا عبدُك، وأنا أقْوَمُ بأمر الحبشة، وقد جززت

(١) اليعسوب: أمير النحل.

(٢) هذه من الإسرائيليات، إذ لا يجوز إلقاء شيء فيه اسم الله تعالىٰ على الأرض أو أن يضرب به شيئاً.

(٣) هي بيضة الحديد.

(٤) المفاتنة: اختلاف الناس في الآراء.

(٥) الحادر: المجتمع الخلق.

ناصيتي، وبعثت إليك بتراب أرضي، لتطأه وتبرّ في يمينك؛ فرضي عنه النجاشيّ. ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء، ليصرف إليها حج العرب؛ على ما تقدّم.

الرابعة: قال مقاتل: كان عام الفيل قبل مولد النبيّ ﷺ بأربعين سنة. وقال الكلبي وعُبيد بن عمير: كان قبل مولد النبيّ ﷺ بثلاث وعشرين سنة. والصحيح ما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦٤٧٦] «ولدت عام الفِيل». وروي عنه أنه قال: «يومَ الفيل». حكاه الماوردِيّ في التفسير له. وقال في كتاب أعلام النبوّة: وِلِد رسول الله ﷺ يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأوّل، وكان بعد الفيل بخمسين يوماً. ووافق من شهور الروم العشرين من أسباط[1]، في السنة الثانية عشرة من ملك هُرْمُز بن أنوشِروان. قال: وحكى أبو جعفر الطبريّ أن مولد النبيّ ﷺ كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان. وقد قيل: إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرّم، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان؛ فكانت مدّة حمله ثمانية أشهر كَمَلاً ويومين من التاسع. وقيل: إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص، في فضائل يوم عاشوراء له. ابن العربيّ: «قال ابن وهب عن مالك: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وقال قيس بن مَخْرمة: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل[2]. وقد روى الناس عن مالك أنه قال: من مروءة الرجل ألاّ يُخْبِر بسنه؛ لأنه إن كان صغيراً استحقروه وإن كان كبيراً استهرموه. وهذا قول ضعيف؛ لأن مالكاً لا يخبر بسنّ رسول الله ﷺ ويكتم سِنه؛ وهو من أعظم العلماء قدوةً به. فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيراً أو صغيراً». وقال عبد الملك بن مروان لعتاب بن أَسِيد: أنت أكبر أم النبيّ ﷺ؟ فقال: النبيّ ﷺ أكبر مني، وأنا أسنّ منه؛ ولد النبيّ ﷺ عام الفيل، وأنا أدركت سائسه وقائده

[٦٤٧٦] ذكره الماوردي ٣٣٨/٦ هكذا بدون إسناد، وهو غريب، وقد أخرج ابن هشام في السيرة ١٦٥/١ عن ابن إسحق قال: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل. وأسند عن ابن إسحق بسنده عن قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا، ورسول الله ﷺ عام الفيل. وأورده الذهبي في سيرته ص ٥ عن ابن عباس بمثله، وقال: صحيح. وقال عن حديث قيس بن مخرمة: حسن.
ونقل ابن كثير في السيرة ٢٠٣/١ عن خليفة بن خياط قوله: والمجمع عليه، أنه عليه السلام ولد عام الفيل. قال ابن كثير: وهو قول الجمهور. وذكر ابن كثير روايات أخرىٰ في ذلك، فانظرها إن شئت، والله أعلم.

---

(١) وفي نسخة «شباط» وهو الصواب، والله أعلم.

(٢) تقدم في الذي قبله.

أعميين مُقْعدين يستطعمان الناس، وقيل لبعض القضاة: كم سنك؟ قال: سنّ عَتَّاب بن أَسِيد حين ولاه النبيّ ﷺ مكة؛ وكان سنه يومئذٍ دون العشرين.

الخامسة: قال علماؤنا: كانت قصة الفِيل فيما بعدُ من معجزات النبيّ ﷺ، وإن كانت قبله وقبل التحدّي؛ لأنها كانت توكيداً لأمره، وتمهيداً لشأنه. ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة؛ ولهذا قال: «ألم تر». ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس. وقالت عائشة رضي الله عنها مع حداثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس. وقال أبو صالح[1]: رأيت في بيت أمّ هانىء بنت أبي طالب نحواً من قفيزين من تلك الحجارة، سوداً مخططة بحمرة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ أي في إبطال وتضييع؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قُريشاً بالقتل والسبي، والبيت بالتخريب والهدم. فحُكِي عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير، فإذا القوم مُشَدَّخين جميعاً، فرجع يركض فرسه، كاشفاً عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن ابني هذا أفرس العرب. وما كشف عن فخذه إلا بشيراً أو نذيراً. فلما دنا من ناديهم بحيث يُسْمِعهم الصوت، قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعاً. فخرج عبد المطلب وأصحابه، فأخذوا أموالهم. وكانت أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده ونهبوا. وقيل: إن عبد المطلب حفر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعود الثقفيّ ـ وكان خليلاً لعبد المطلب ـ: اختر أيهما شئت. ثم أصاب الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً، فقال عبد المطلب عند ذلك:

أنتَ مَنَعْتَ الحُبْشَ والأفيالا ... وقد رَعَوْا بمكة الأجبالا
وقد خشِينا منهمُ القتالا ... وكلُّ أمرٍ لهم مِعضَالاَ
شكراً وحمداً لك ذا الجلالا

قال ابن إسحاق: ولما ردّ الله الحَبَشة عن مكة عَظَّمت العرب قريشاً، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مؤونة عدوّهم. وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم، في قصة أصحاب الفيل:

(١) هو باذام مولىٰ أم هانيء، وهو ضعيف الحديث، روىٰ تفسيراً موضوعاً عن ابن عباس.

أنـت الجليـلُ ربَّنـا لـم تـدنِـس　　أنـت حبسـتَ الفِيـل بـالمُغَمِّـسِ
مـن بعـد مـا هَـمَّ بشـرٌّ مُبْلِـس　　حبستـه فـي هيئـة المُكَـرْكَـسِ
ومـا لـهـم مـن فـرج ومنـفـسِ

والمكركس: المنكوس المطروح.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾.

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلها. وروى جويبِر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٦٤٧٧] «إنها طير بين السماء والأرض تُعَشِّشُ وتُفَرِّخ». وعن ابن عباس: كانت لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب. وقال عِكرمة: كانت طيراً خُضْراً، خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع. ولم تُر قبل ذلك ولا بعده. وقالت عائشة رضي الله عنها: هي أشبه شيء بالخطاطيف. وقيل: بل كانت أشباه الوطاويط، حمراء وسوداء. وعن سعيد بن جبير أيضاً: هي طير خُضْر لها مناقير صُفْر. وقيل: كانت بِيضاً. وقال محمد بن كعب: هي طير سود بحرية، في مناقيرها وأظفارها الحجارة. وقيل: إنها العنقاء المُغْرِب التي تضرب بها الأمثال؛ قال عِكرمة: «أبابِيل» أي مجتمعة. وقيل: متتابعة، بعضها في إثر بعض؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل مختلفة متفرّقة، تجيء من كل ناحية، من هاهنا وهاهنا؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش. قال النحاس: وهذه الأقوال متفقة، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام. يقال: فلان يؤبّل على فلان؛ أي يعظم عليه ويكثر؛ وهو مشتق من الإبل. واختلف في واحد (أبابيل)؛ فقال الجوهريّ: قال الأخفش يقال: جاءت إبلك أبابيل؛ أي فِرقاً، وطير أبابيل. قال: وهذا يجيء في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحد له. وقال بعضهم: واحده إِبَّوْل، مثل عِجَّوْل. وقال بعضهم: ـ وهو المبرّد ـ: إِبِّيل مثل سِكِّين. قال: ولم أجد العرب تعرِف له واحداً في غير الصحاح. وقيل في واحده إبَّال. وقال رؤبة بن العجاج في الجمع:

ولعبـتْ طيـرٌ بِهِـمْ أَبـابيـلْ　　فصُيِّـرُوا مِثْـلَ كَعَصْـفٍ مَـأْكُـولْ

وقال الأعشى:

طَـرِيـقٌ وجَبَّـارٌ[1] رِواءٌ أُصـولُـهُ　　علَيـهِ أبـابيـلٌ مِـن الطَّيْـرِ تَنْعَـبُ

[٦٤٧٧] موضوع إسناده ضعيف جداً، جويبر بن سعيد متروك، والضحاك لم يلق ابن عباس، وقد روى جويبر عن ابن عباس تفسيراً موضوعاً.

---

(١) الجبار من النخل: ما طال وفات اليد.

وقال آخر:

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلَتِي ... إذْ سالتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ[1]

وقال آخر:

تَراهُمْ إلى الداعي سِرَاعا كأنّهُمْ ... أبـابيـلُ طَيْـر تَحْـتَ دَجْـنٍ مُسَخَّـنِ

قال الفرّاء: لا واحد له من لفظه. وزعم الرؤاسِيّ ـ وكان ثقة ـ أنه سمع في واحدها «إبّالة» مشدّدة. وحكى الفرّاء «إبالة» مخففاً. قال: سمعت بعض العرب يقول: ضِغْث على إبَّالَة[2]. يريد: خِصبا على خِصب. قال: ولو قال قائل إيبال كان صواباً؛ مثل دينار ودنانير. وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل: الأبابيل: مأخوذ من الإبل المؤبلة؛ وهي الأقاطيع.

قوله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾.

في الصحاح: «حِجارة مِن سِجيلٍ» قالوا: حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾ [الذاريات: ٣٣ ـ ٣٤]. وقال عبد الرحمن بن أبزى: «مِن سِجيلٍ»: من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط. وقيل من الجحيم. وهي «سِجِّين» ثم أبدلت اللام نوناً؛ كما قالوا في أُصَيْلان أُصيلال. قال ابن مقبِل:

ضَـرْبـاً تَـواصَـتْ بـه الأبـطـالُ سِجِّـينـا

وإنما هو: سِجيلاً. وقال الزجاج: ﴿مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ أي مما كُتب عليهم أن يُعَذّبوا به؛ مشتق من السجل. وقد مضى القول في سِجّيل في «هود» مستوفى. قال عِكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدَهم حجر منها خرج به الجُدَرِيّ لم يُر قبلَ ذلك اليوم. وكان الحجر كالحِمصَّة وفوق العدسة. وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جلده، فكان ذلك أوّل الجُدرِيّ. وقراءة العامة ﴿ تَرْمِيهِم﴾ بالتاء، لتأنيث جماعة الطير. وقرأ الأعرج وطلحة «يَرْمِيهم» بالياء؛ أي يرميهم الله؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ويجوز أن يكون راجعاً إلى الطير، لخلوّها من علامات التأنيث، ولأن تأنيثها غير حقيقيّ.

قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾.

---

(١) الجرد ـ بضم الجيم ـ : خيل لا رجالة فيها.

(٢) الضِّغث: قبضة من حشيش متخلط. والإبالة: حزمة الحطب.

أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل. شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه. رُوي معناه عن ابن زيد وغيره. وقد مضى القول في العَصْف في سورة «الرحمن». ومما يدل على أنه ورق الزرع قول علقمة:

تَسْقِي مَذانِبَ قدْ مالتْ عَصِيفَتُها　　حَدُورُها من أَتِيِّ الماءِ مَطْمُوم

وقال رؤبة بن العجاج:

ومَسَّهُمْ ما مَسَّ أَصْحابَ الفِيلْ　　تَرْميهِمُ حِجارَةٌ مِنْ سِجِّيلْ
ولَعِبتْ طَيرٌ بهمْ أَبابيلْ　　فَصُيِّروا مِثلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ

العَصْف: جمع، واحدته عَصْفة، وعُصافة، وعَصِيفة. وأدخل الكاف في «كَعَصْف» للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ومعنى «مأكولٍ» مأكول حبه. كما يقال: فلان حسن؛ أي حسن وجهه. وقال ابن عباس؛ «فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ» أن المراد به قشر البر؛ يعني الغِلاف الذي تكون فيه حبة القمح. ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة. وقال ابن مسعود: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كِندة؛ فقال:

فَإنّكِ لَوْ رأيتِ ولم تَريهِ　　لدى جنب المُغَمَّس ما لَقِينا
خَشِيتُ الله إذْ قد بَث طَيْراً　　وظِلَّ سحابةٍ مَرت عَلَيْنَا
وباتتْ كلُّها تدعو بِحَقٍّ　　كأن لها على الحُبْشان دَيْنَا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. وقد تقدّم أن أميرهم رجع وشِرْذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. فالله أعلم. وقال ابن إسحاق: لما ردّ الله الحبشة عن مكة، عَظَّمت العرب قريشاً وقالوا: أَهلُ اللّهِ، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوّهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم.

تفسير سورة قريش

مكية؛ في قول الجمهور. ومدنية؛ في قول الضحاك والكلبي
وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾.

قيل: إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى. يقول: أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش؛ أي لتأتلف، أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتُؤلِّف رحلتيها. وممن عدّ السورتين واحدة أبيّ بن كعب، ولا فصل بينهما في مصحفه. وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام لا يفصل بينهما، ويقرؤهما معاً. وقال عمرو بن ميمون الأَوْدِيّ: صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقرأ في الأولى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [التين: ١] وفي الثانية ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [الفيل: ١] و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ [قريش: ١]. وقال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكَّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال: «لإيلاف قُريش» أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نِعْمَةً منا على قريش. وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها، فلا يُغار عليها ولا تُقْرب في الجاهلية. يقولون: هم أهل بيت الله جلّ وعزّ؛ حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة؛ ويأخذ حجارتها، فيبني بها بيتاً في اليمن يَحُج الناس إليه؛ فأهلكهم الله عز وجل، فذكَّرهم نِعْمته. أي فجعل الله ذلك لإيلاف قريش؛ أي ليألفوا الخروج ولا يُجْتَرَأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه. ذكره النحاس: حدّثنا أحمد بن شُعيب قال أخبرني عمرو بن عليّ قال: حدّثني عامر بن إبراهيم ـ وكان ثقة من خيار الناس ـ قال حدّثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدّثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ قال: نعمتَي على قريش إيلافُهُمْ رحلة الشتاء والصيف. قال: كانوا يَشْتون بمكة، ويَصِيفون بالطائف. وعلى هذا القول يجوز الوقف على رؤوس الآي وإن لم يكن الكلام تاماً؛ على ما نبينه أثناء السورة. وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين «بسم الله الرحمن الرحيم» وذلك دليل على

انقضاء السورة وافتتاح الأخرى، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى: «فلْيعبدوا» أي فليعبدوا هؤلاء ربَّ هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتيار. وكذا قال الخليل: ليست متصلة؛ كأنه قال: أَلَّفَ الله قريشاً إيلافاً فليعبدوا ربَّ هذا البيت. وعمِل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة؛ كقولك: زيداً فاضرب. وقيل: اللام في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ لام التعجب؛ أي اعجبوا لإيلاف قريش؛ قاله الكسائيّ والأخفش. وقيل: بمعنى إلى. وقرأ ابن عامر: «لإئلافِ قريش» مهموزاً مختلساً بلا ياء. وقرأ أبو جعفر والأعرج «لِيلَاف» بلا همز طلباً للخفة. الباقون «لإيلاف» بالياء مهموزاً مشبعاً؛ من آلَفْتُ أُوْلِفُ إيلافاً. قال الشاعر:

المُنْعِمِين إذا النجوم تغيرتْ ... والظاعنين لرحلةِ الإيلافِ

ويقال: أَلِفْتُه إلْفاً وإلافاً. وقرأ أبو جعفر أيضاً: «لإلْفِ قُرَيش» وقد جمعهما من قال:

زَعَمْتُمْ أنّ إخوتَكُمْ قُرَيْشٌ ... لهم إلفٌ وليس لكم إلاف

قال الجوهريّ: وفلان قد أَلِف هذا الموضعَ (بالكسر) يألفُه إلْفاً، وآلفه إياه غيره. ويقال أيضاً: آلَفت الموضع أُولِفه إيلافاً. وكذلك: آلفت الموضع أُولِفُه مُؤالفة وإلافاً؛ فصار صورة أفعل وفاعل في الماضي واحدة. وقرأ عِكرمة «لَيَأْلفْ» بفتح اللام على الأمر. وكذلك هو في مصحف ابن مسعود. وفتح لام الأمر لغة حكاها ابن مجاهد وغيره. وكان عكرمة يعيب على من يقرأ «لإيلاف». وقرأ بعض أهل مكة «إلاف قريش» واستشهد بقول أبي طالب يوصي أخاه أبا لهب برسول الله ﷺ:

فَلا تُتْرِكَنْه ما حييتَ لِمُعْظَمٍ ... وكنْ رجلاً ذا نَجْدةٍ وعَفافِ
تذود العِدا عن عُصْبة هاشميةٍ ... إلافُهم في الناس خيرُ إلَافِ

وأما قريش فهم بنو النضر بن كِنانة بن خزيمة بن مدرِكة بن إلياس بن مضر. فكل من كان من ولد النضر فهو قرشيّ دون بني كِنانة ومن فوقه. وربما قالوا: قُرَيْشِيّ، وهو القياس؛ قال الشاعر:

بكل قُرَيْشِيّ عليه مَهابة

فإن أردت بقريش الحيّ صرفته، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه؛ قال الشاعر:

وكَفَى قُرَيشَ المُعْضِلاتِ وسادَها[1]

والتقريش: الاكتساب، وتقرّشوا أي تجمعوا. وقد كانوا متفرّقين في غير الحرم،

---

(١) عجز بيت لعدي بن الرقاع.

فجمعهم قُصَيّ بن كلاب في الحرم، حتى اتخذوه مَسْكناً. قال الشاعر:

أبونا قُصَيّ كان يُدْعَى مُجَمِّعاً ... به جمع الله القبائلَ من فِهرِ

وقد قيل: إن قريشاً بنو فِهر بن مالك بن النضر. فكل من لم يلده فِهر فليس بقرشيّ والأوّل أصح وأثبت. وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦٤٧٨]«إنا ولد النضر بن كنانة لا نقفو أُمنا ولا ننتفِي من أبِينا». وقال واثلة[١] بن الأسْقَع:

[٦٤٧٩] قال النبيّ ﷺ: «إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من بني كِنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». صحيح ثابت، خرّجه البخاريّ ومسلم وغيرهما. واختلِف في تسميتهم قريشاً على أقوال: أحدها: لتجمُّعهم بعد التفرق، والتقرش: التجمع والالتئام. قال أبو جِلْدةَ اليَشْكُري:

إخوة قَرَّشُوا الذنوبَ علينا ... في حديثٍ مِن دهرهمْ وقديم

الثاني: لأنهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم. والتَّقَرُّش: التكسُّب. وقد قَرَشَ يَقْرُشُ قَرْشاً: إذا كسب وجمع. قال الفرّاء: وبه سميت قُريش. الثالث: لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذي الخَلة، فيسدّون خَلته. والقَرْش: التفتيش. قال الشاعر[٢]:

أَيُّها الشامتُ المقرش عنا ... عند عمرو فهلْ له إبقاء

الرابع: ما روي أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشاً؟ فقال: لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القِرش؛ تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعْلَى. وأنشد قول تُبَّع:

وقريش هي التي تسكن البحـ ... ـر بها سميت قريش قريشا

تأكل الرث والسمِين ولا تتـ ... ـرك فيها لذي جناحين رِيشا

هكذا في البلاد حيّ قُرَيشٍ ... يأكلون البلاد أكلاً كمِيشا[٣]

ولهم آخر الزمانِ نبيٌّ ... يكثر القتل فيهم والخُموشا[٤]

[٦٤٧٨] تقدم تخريجه.

[٦٤٧٩] تقدم تخريجه.

---

(١) في الأصل «وائلة».

(٢) هو الحارث بن حلزة اليشكري.

(٣) أي سريعاً.

(٤) الخموش مثل الخدش.

قوله تعالى: ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ ﴾.

قرأ مجاهد وحميد «إِلْفِهم» ساكنة اللام بغير ياء. وروي نحوه عن ابن كثير. وكذلك روت أسماء:

[٦٤٨٠] أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ «إِلْفِهم». وروي عن ابن عباس وغيره. وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوة «إِلاَفِهم» مهموزاً مختلساً بلا ياء. وقرأ أبو بكر عن عاصم «إِئْلافهم» بهمزتين، الأولى مكسورة والثانية ساكنة. والجمع بين الهمزتين في الكلمتين شاذ. الباقون «إيلافهم» بالمدّ والهمز؛ وهو الاختيار، وهو بدل من الإيلاف الأول للبيان. وهو مصدر آلف: إذا جعلته يألف. وأَلِف هو إلفاً؛ على ما تقدّم ذكره من القراءة؛ أي وما قد ألفوه من رحلة الشتاء والصيف. روى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ ﴾ قال: لا يشُق عليهم رحلة شتاءٍ ولا صيفٍ؛ مِنَّةٌ منه على قريش. وقال الهَرَوِيّ وغيره: وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل؛ بنو عبد مناف. فأما هاشم فإنه كان يُؤْلف مَلِكَ الشام؛ أي أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به في تجارته إلى الشام. وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحَبشة. والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس. ومعنى يُؤْلف يُجير. فكان هؤلاء الإخوة يسمَّون المُجِيرين. فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يُتَعَرَّض لهم. قال الأزهريّ: الإيلاف: شبه الإجارة بالخَفارة[1]؛ يقال: آلف يُؤلف: إذا أجار الحمائل بالخفَارة. والحمائل: جمع حَمولة. قال: والتأويل: أن قُريشاً كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع ولا ضَرْع، وكانوا يَمِيرون في الشتاء والصيف آمنين، والناس يُتَخَطفون من حولهم، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حَرَم الله، فلا يَتَعرضُ الناس لهم. وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره: حدّثنا سعيد بن محمد، عن بكر بن سهل الدِّمياطي، بإسناده إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ ﴾ إلفَهم رحلة الشتاء والصيف. وذلك أن قريشاً كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصة[2]، جرى هو وعياله إلى

[٦٤٨٠] هو في المستدرك ٢/٢٥٦ برقم ٣٠١٤ من حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ وفيه «إيلافهم» ذكر ذلك في باب القراءآت، ولعل بعض النساخ جعلها كرسم المصحف، ولعل أصل الحديث، والله أعلم «إلفهم» ويدل على ذلك، أن الحاكم استغربه، وكذا الذهبي استغربه وفي الإسناد ضعف، شهر ضعفه غير واحد، وهو مدلس.

---

(١) خفره: حفظه وصانه.

(٢) المخمصة: المجاعة.

موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خِباء فماتوا؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف، وكان سيداً في زمانه، وله ابن يقال له: أسَد، وكان له تِرْب[1] من بني مخزوم، يحبه ويلعب معه. فقال له: نحن غداً نعتفد» قال ابن فارس: هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري: بالدال هي أم بالراء؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العفر، وهو التراب، وإن كانت بالدال، فما أدري معناها، وتأويله على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحداً بعد واحد. قال: فدخل أسد على أمّه يبكي، وذكر ما قاله تِربه. قال: فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق، فعاشوا به أياماً. ثم إن تربه أتاه أيضاً فقال: نحن غداً نعتفد، فدخل أسد على أبيه يبكي، وخبره خبر تربه، فاشتدّ ذلك على عمرو بن عبد مناف، فقام خطيباً في قريش وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنكم أحدثتم حدثاً تقِلون فيه وتكثر العرب، وتذِلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله جل وعز، وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم. فقالوا: نحن لك تبع. قال: ابتدئوا بهذا الرجل ـ يعني أبا تِرب أسد ـ فأغنوه عن الاعتفاد، ففعلوا. ثم إنه نحر البدن، وذبح الكِباش والمعز، ثم هشم الثرِيد، وأطعم الناس؛ فسمي هاشماً. وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مسنِتون[2] عِجاف

ثم جمع كل بني أب على رحلتين: في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرهم كغنيهم؛ فجاء الإسلام وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش، وهو قول شاعرهم:

والخالطون فقيرهم بغنيهم ... حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً ﷺ، فقال: «فليعبدوا رب هذا البيتِ الذِي أَطعمهم مِن جوعٍ» بصنيع هاشم «وآمنهم مِن خوفٍ» أن تكثر العرب ويقِلوا.

قوله تعالى: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ «رِحلَةَ» نصب بالمصدر؛ أي ارتحالهم رِحلة، أو بوقوع «إيلافهم» عليه، أو على الظرف. ولو جعلتها في محل الرفع، على معنى هما رِحلة الشتاء والصيف؛ لجاز. والأوّل أولى. والرحلة الارتحال. وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء، لأنها بلاد حامية، والرحلة الأخرى في الصيف إلى الشام، لأنها بلاد باردة. وعن ابن عباس أيضاً قال: كانوا يَشْتون بمكة لدِفئها، ويَصِيفون بالطائف

(١) الترب: مساويك في السن ومن ولد معك.
(٢) السَّنَة: الجدب والقحط.

لهوائها. وهذه من أجلّ النعم أن يكون للقوم ناحية حَرّ تدفع عنهم برد الشتاء، وناحية بردٍ تدفع عنهم حر الصيف؛ فذكرهم الله تعالى هذه النعمة. وقال الشاعر:

تَشْتِي بمكة نَعْمَةً ... ومَصِيفُها بالطّائِف

وهنا أربع مسائل:

الأولى: اختار القاضي أبو بكر بن العربيّ وغيره من العلماء: أن قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ متعلق بما قبله. ولا يجوز أن يكون متعلقاً بما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ قال: وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى ـ وقد قطع عنه بكلام مبتدأ، واستئناف بيان وسطر (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقد تبين جواز الوقف في القراءة للقرّاء قبل تمام الكلام، وليست المواقف التي ينتزع بها القُرّاء شرعاً عن النبي ﷺ مروياً، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعاني، فإذا علِموها وقفوا حيث شاؤوا. فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه، ولا تُعِد ما قبله إذا اعتراك ذلك، ولكن ابدأ من حيث وقف بك نَفَسك. هذا رأيي فيه، ولا دليل على ما قالوه بحال، ولكني أعتمد الوقف على التمام، كراهية الخروج عنهم.

قلت: ومن الدليل على صحة هذا، قراءة النبي ﷺ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ ثم يقف. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ ثم يقف. وقد مضى في مُقَدّمة الكتاب. وأجمع المسلمون أن الوقف عند قوله: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ ليس بقبيح. وكيف يقال إنه قبيح وهذه السورة تُقْرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية، فيتخللها مع قطع القراءة أركان؟ وليس أحد من العلماء يكره ذلك، وما كانت العلة فيه إلاّ أنَّ قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ انتهاء آية. فالقياس على ذلك: ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلامُ يتم، والغرض ينتهي، أو لا يتم، ولا ينتهي. وأيضاً فإن الفواصل حِلية وزِينة للكلام المنظوم، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنثور. ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم، فمن أظهرَ فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه، وترك الوقوفِ يُخفي تلك المحاسن، ويُشبِّه المنثور بالمنظوم، وذلك إخلال بحق المقروء.

الثانية: قال مالك: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها، ولم أزل أرى ربيعة بن أبي عبد الرحمن ومن معه، لا يخلَعون عمائمهم حتى تطلع الثُّريا، وهو يوم التاسعَ عَشَرَ من بشنس، وهو يوم خمسة وعشرين من عدد الروم أو الفرس. وأراد بطلوع الثريا أن يخرج السُّعاة، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم، وأن طلوع الثريا أوّل الصيف ودُبُرَ الشتاء. وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه عنه. وقال عنه أشهب وحده: إذا سقَطَتِ

الهَقْعَة[1] نقص الليل، فلما جُعل طلوع الثريا أوّل الصيف، وجب أن يكون له في مطلق السنة ستة أشهر، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر. وقد سئل محمد بن عبد الحكم عمن حلف ألا يكلم امرأ حتى يدخل الشتاء؟ فقال: لا يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من هاتور. ولو قال حتى يدخل الصيف؛ لم يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من بشنس. قال القُرَظِيّ: أما ذكر هذا عن محمد في بشنس، فهو سهو، إنما هو تسعة عشر من بشنس، لأنك إذا حسبت المنازل على ما هي عليه، من ثلاث عشرة ليلة كل منزلة، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتور لا تنقضي منازله إلا بدخول تسع عشرة من بشنس. والله أعلم.

الثالثة: قال قوم: الزمان أربعة أقسام: شتاء، وربيع، وصيف، وخريف. وقال قوم: هو شتاء، وصيف، وقَيظ، وخريف. والذي قاله مالك أصح؛ لأن الله قسم الزمان قسمين ولم يجعل لهما ثالثاً.

الرابعة: لما امتن الله تعالى على قريش برحلتين، شتاء وصيفاً، على ما تقدّم، كان فيه دليل على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلّين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر؛ كالجلوس في المجلس البحْري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ البادَهنَجات[2] والخَيْش للتبريد، واللِّبَد واليانوسة[3] للدّفء.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾.

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده، لأجل إيلافهم رحلتين. ودخلت الفاء لأجل ما في الكلام من معنى الشرط؛ لأن المعنى: إمّا لا فليعبدوه لإيلافهم؛ على معنى أن نعم الله تعالى عليهم لا تُحْصَى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة، التي هي نعمة ظاهرة. والبيت: الكعبة. وفي تعريف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان: أحدهما: لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها. الثاني: لأنهم بالبيت شُرِّفوا على سائر العرب؛ فذكر لهم ذلك، تذكيراً لنعمته. وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ أي ليألفوا عبادة رب الكعبة، كما كانوا يألفون الرحلتين. قال عكرمة: كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بُصْرَى ورحلة إلى اليمن، فقيل لهم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ أي يقيموا بمكة. رحلة الشتاء، إلى اليمن، والصيف: إلى الشام.

(١) الهقعة: ثلاث كواكب سيارة، قريب بعضها من بعض.

(٢) منفذ للهواء في سقف البيت.

(٣) لم أجد في المعاجم العربية هذه المادة. ولعلها بالإسبانية، لأن المصنف ـ قرطبي.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ أي بعدَ جوع. ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ قال ابن عباس: وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٢٦]. وقال ابن زيد: كانت العرب يُغير بعضها على بعض، ويَسْبِي بعضها من بعض، فأَمِنَتْ قُرَيش من ذلك لمكان الحرم ـ وقرأ ـ ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [القصص: ٥٧]. وقيل: شق عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقى الله في قلوب الحَبَشة أن يحملوا إليهم طعاماً في السفن، فحملوه؛ فخافت قريش منهمْ، وظنوا أنهم قدِموا لحربهم، فخرجوا إليهم مُتَحَرِّزين، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام، وأغاثوهم بالأقوات؛ فكان أهل مكة يخرجون إلى جُدَّة بالإبل والحُمُر، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين. وقيل: هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبيّ ﷺ دعا عليهم، فقال:

[٦٤٨١] «اللَّهُمْ اجْعَلْها عليهمْ سِنِينَ كسِنِي يُوسُف» فاشتد القَحْط، فقالوا: يا محمدُ ادعُ الله لنا فإنا مؤمنون. فدعا فأخصبَتْ تَبَالة وجُرَشُ من بلاد اليمن؛ فحملوا الطعام إلى مكة، وأخصب أهلها. وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان: «وآمنهم مِنْ خَوْفٍ» أي من خوف الجُذام، لا يصيبهم ببلدهم الجُذام. وقال الأعمش: «وآمنهم مِن خوفٍ» أي من خوف الحَبَشة مع الفيل. وقال عليّ رضي الله عنه(١): وآمنهم من خوف: أن تكون الخلافة إلاَّ فيهم. وقيل: أي كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك. فالله أعلم، واللفظ يعم.

[٦٤٨١] متفق عليه، وتقدم.

---

(١) لا أصل له عن علي، وهو من بدع التأويل.

تفسير سورة الماعون

وهي مكية؛ في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس. ومدنية؛ في قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره. وهي سبع آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ أي بالجزاء والحساب في الآخرة؛ وقد تقدّم في «الفاتحة». و﴿أَرَءَيْتَ﴾ بإثبات الهمزة الثانية؛ إذ لا يُقال في أرأيت: رَيْت، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفاً؛ ذكره الزَّجاج. وفي الكلام حذف؛ والمعنى: أرأيت الذي يكذب بالدين: أَمُصيب هو أم مُخْطىء. واختلِف فيمن نزل هذا فيه؛ فذكر أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت في العاص بن وائل السَّهْمِيّ؛ وقاله الكلبيّ ومقاتل. وروى الضحاك عنه قال: نزلت في رجل من المنافقين. وقال السُّدّيّ: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل في أبي جهل. الضحاك: في عمرو بن عائذ. قال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان، وكان ينحر في كل أسبوع جَزُوراً، فطلب منه يتيم شيئاً، فقَرعه بعصاه؛ فأنزل الله هذه السورة. و﴿يَدُعُّ﴾ أي يدفع، كما قال: ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾ [الطور: ١٣] وقد تقدّم. وقال الضحاك عن ابن عباس. ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ أي يدفعه عن حَقّه. قتادة: يقهره ويظلمه. والمعنى متقارِب. وقد تقدّم في سورة «النساء» أنهم كانوا لا يُوَرّثون النساء ولا الصغار، ويقولون: إنما يحوز المال من يَطْعَنُ بالسنان، ويضرب بالحُسام. ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦٤٨٢] «مَنْ ضمَّ يتيماً من المسلمين حتى يسْتَغْنِي، فقد وجبتْ له الجنة». وقد مضى هذا المعنى في غير موضع.

[٦٤٨٢] مضىٰ تخريجه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ ﴾ أي لا يأمُرُ به، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء. وهو مِثل قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ ﴾ [الحاقة: ٣٤] وقد تقدّم. وليس الذم عامّا حتى يتناول من تركه عجزاً، ولكنهم كانوا يَبْخَلُون ويعتذرون لأنفسهم، ويقولون: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ [يس: ٤٧]، فنزلت هذه الآية فيهم، وتوجه الذم إليهم. فيكون معنى الكلام: لا يفعلونه إن قَدَرُوا، ولا يحثُّون عليه إن عسِروا.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ﴾ أي عذاب لهم. وقد تقدّم في غير موضع. ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ﴾، فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هو المصلِّىٰ الذي إن صلى لم يَرْجِ لها ثواباً، وإن تركها لم يخشَ عليها عقاباً. وعنه أيضاً: الذين يؤخرونها عن أوقاتها. وكذا رَوى المغيرة عن إبراهيم، قال: سَاهونَ بإضاعة الوقت. وعن أبي العالية: لا يصلونها لِمَوَاقِيتِهَا، ولا يُتِمُّون ركوعها ولا سجودها.

قلت: ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [مريم: ٥٩] حَسْبَ ما تقدّم بيانه في سورة «مريم» عليها السلام. وروي عن إبراهيم أيضاً: أنه الذي إذا سجد قام برأسه هكذا ملتفتاً. وقال قطرب: هو ألا يقرأ ولا يذكر الله. وفي قراءة عبد الله «الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ لاَهُون». وقال سعد بن أبي وقَّاص: قال النبي ﷺ في قولـه:

[٦٤٨٣] ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ﴾ ـ قال ـ «الذينَ يؤخِّرون الصلاة عن وقتها، تهاوناً بها». وعن ابن عباس أيضاً: هم المنافقون يتركون الصلاة سِرًّا، يصلونها علانية ﴿ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ ﴾ [النساء: ١٤٢]. . . الآية. ويدل على أنها في المنافقين قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ ﴾، وقاله ابن وهب عن مالك. قال ابن عباس: ولو قال في صلاتهم ساهون لكانت في المؤمنين. وقال عطاء: الحمد لله الذي قال: «عَنْ صلاتِهِم» ولم يقل في صلاتهم. قال الزَمَخْشَرِيُّ: فإن قلت: أيّ فرق بين قوله: «عن صلاتِهِم»، وبين قولك: في صلاتهم؟ قلتُ: معنى «عن» أنهم ساهون عنها سهو تركٍ لها وقلةِ التفات إليها، وذلك فعل المنافقين، أو الفَسَقة

[٦٤٨٣] الصحيح موقوف. أخرجه البزار ٣٩٢ والطبري ٣٨٠٥٤ والبيهقي ٢/ ٢١٤ من حديث سعد بن أبي وقاص، وفي إسناده عكرمة بن إبراهيم ضعيف جداً كما في المجمع ١١٥٢٤/٧/١٤٣ وأخرجه أبو يعلىٰ ٧٠٤ و ٧٠٥ والطبري ٣٨٠٣٧ و ٣٨٠٣٨ والبيهقي ٢/ ٢١٤ عن سعد موقوفاً، وصوبه البيهقي، وحسنه الهيثمي ١/ ٣٢٥ وهو الراجح، والمرفوع واهٍ بمرة كما تقدم.

الشُّطَّار[1] من المسلمين. ومعنى «في» أن السهو يعتريهم فيها، بوسوسة شيطان، أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم. وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته، فضلاً عن غيره؛ ومِن ثمّ أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم. قال ابن العَرَبيّ: لأن السلامة من السهو محال، وقد سها رسول الله ﷺ في صلاته والصحابة. وكل من لا يسهو في صلاته، فذلك رجل لا يتدبَّرُها، ولا يعقِل قراءتها، وإنما همه في أعدادها؛ وهذا رجل يأكل القشور، ويرمِي اللب. وما كان النبيّ ﷺ يسهو في صلاته إلا لفكرته في أعظم منها؛ اللهم إلا أنه قد يسهو في صلاته من يقبل على وسواس الشيطان إذا قال له: اذكر كذا، اذكر كذا؛ لِما لم يكن يذكر، حتى يضِلّ الرجل أن يدري كم صلى.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ أي يُرِي الناس أنه يصلي طاعة وهو يصلي تَقِيَّة؛ كالفاسق، يري أنه يصلي عبادة وهو يصلي ليقال: إنه يصلي. وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس. وأولها تحسين السَّمْت؛ وهو من أجزاء النبوّة، ويريد بذلك الجاهَ والثناء. وثانيها: الرياء بالثياب القصار والخشِنة؛ ليأخذ بذلك هيئة الزهد في الدنيا. وثالثها: الرياء بالقول، بإظهار التسخط على أهل الدنيا؛ وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة. ورابعها: الرياء بإظهار الصلاة والصدقة أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس؛ وذلك يطول، وهذا دليله؛ قاله ابن العربي.

قلت: قد تقدم في سورة «النساء وهود وآخر الكهف» القول في الرياء وأحكامه وحقيقته بما فيه كفاية. والحمد لله.

الخامسة: ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها، لقوله عليه السلام:

[٦٤٨٤] «ولا غُمة في فرائض الله» لأنها أعلام الإسلام، شعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت؛ فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوّعاً فحقه أن يُخْفَى؛ لأنه لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً. وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين، فتثني عليه بالصلاح. وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة الشكر فأطالها؛ فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك. وإنما قال

[٦٤٨٤] تقدم تخريجه.

---

(١) هو من ترك أهله وأعياهم خبثاً ولؤماً.

هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وفي غير موضع. والحمد لله على ذلك.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ فيه اثنا عشر قولاً: الأول: أنه زكاة أموالهم. كذا روى الضحاك عن ابن عباس. ورُوِي عن عليّ رضي الله عنه مثل ذلك، وقاله مالك. والمراد به المنافق يمنعها. وقد رَوَى أبو بكر بن عبد العزيز عن مالك قال: بلغني أن قول الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ قال: إن المنافق إذا صلَّى صلَّى رياء، وإن فاتته لم يندم عليها، «ويمنعون الماعون» الزكاة التي فرض الله عليهم. قال زيد بن أسلم: لو خَفِيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ما صلوا. القول الثاني: أن «الماعون» المال، بلسان قريش؛ قاله ابن شهاب وسعيد بن المسيب. وقول ثالث: أنه اسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك؛ قاله ابن مسعود، وروي عن ابن عباس أيضاً. قال الأعشى:

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ   إذا ما سَمَاؤُهُم لَمْ تَغِمِ

الرابع: ذكر الزجاج وأبو عُبيد والمبرّد أن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة، حتى الفأس والقدر والدلو والقدّاحة، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير؛ وأنشدوا بيت الأعشى. قالوا: والماعون في الإسلام: الطاعة والزكاة؛ وأنشدوا قول الراعي:

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمٰنِ إنَّا مَعْشَرٌ   حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأَصِيلاَ
عَرَبٌ نَرَى لِلَّهِ مِن أَمْوالِنا   حَقَّ الزكاةِ مُنَزَّلاً تَنْزِيلاَ
قَومٌ على الإسلامِ لَمَّا يمْنَعُوا   ماعُونَهُمْ ويُضَيِّعُوا التهليلا

يعني الزكاة. الخامس: أنه العارِيَّة؛ روي عن ابن عباس أيضاً. السادس: أنه المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم؛ قاله محمد بن كعب والكلبيّ. السابع: أنه الماء والكَلأُ. الثامن: الماء وحده. قال الفراء: سمِعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء؛ وأنشدني فيه:

يَمَجّ صَبِيرُه الماعونَ صَبّا

الصَّبير: السحاب. التاسع: أنه منع الحق؛ قاله عبد الله بن عمر. العاشر: أنه المستغل من منافع الأموال؛ مأخوذ من المَعْن وهو القليل؛ حكاه الطبريّ وابن عباس. قال قطرب: أصل الماعون من القلة. والمعن: الشيء القليل؛ تقول العرب: ماله سَعْنَة[1]

(١) السّعنة: الكثير.

ولا معنة؛ أي شيء قليل. فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعوناً؛ لأنه قليل من كثير. ومن الناس من قال: الماعون: أصله مَعُونة، والألف عوض من الهاء؛ حكاه الجوهريّ. ابن العربيّ: الماعون: مفعول من أعان يعين، والعَوْن: هو الإمداد بالقوّة والآلات والأسباب الميسرة للأمر. الحادي عشر: أنه الطاعة والانقياد. حكى الأخفش عن أعرابي فصيح: لو قد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعاً تعطيك الماعون؛ أي تنقاد لك وتطيعك. قال الراجز:

مَتَى تصادِفْهُنَّ في الْبرِينِ يَخْضعن أو يُعطِين بالماعونِ

وقيل: هو ما لا يحل منعه، كالماء والملح والنار؛ لأن عائشة رضوان الله عليها قالت:

[٦٤٨٥] قلت: يا رسول الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: «الماء والنار والملح» قلت: يا رسول الله هذا الماء، فما بال النار والملح؟ فقال: «يا عائشة من أعطى ناراً فكأنما تصدّق بجميع ما طبخ بتلك النار، ومن أعطى ملحاً فكأنما تصدق بجميع ما طيب به ذلك الملح، ومن سَقى شَربة من الماء حيث يوجد الماء، فكأنما أعتق ستين نسمة. ومن سقَى شربة من الماء حيث لا يوجد، فكأنما أحيا نَفْساً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً». ذكره الثعلبيّ في تفسيره، وخرّجه ابن ماجه في سننه. وفي إسناده لِين؛ وهو القول الثاني عشر. الماورديّ: ويحتمل أنه المعونة بما خف فعله وقد ثقله الله. والله أعلم. وقيل لعِكرمة مولى ابن عباس: من منع شيئاً من المتاع كان له الويل؟ فقال: لا، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل؛ يعني: ترك الصلاة، والرياء، والبُخْل بالماعون.

قلت: كونها في المنافقين أشبه، وبهم أَخْلَق؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالمال؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤]. وهذه أحوالهم، ويبعد أن توجد من مسلم محقق، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ، وذلك في منع الماعون إذا تعين؛ كالصلاة إذا تركها. والله أعلم. إنما يكون منعاً قبيحاً في المروءة في غير حال الضرورة. والله أعلم.

[٦٤٨٥] أخرجه ابن ماجة ٢٤٧٤ من حديث عائشة دون لفظ «ستين». وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد ضعيف، لضعف علي بن زيد بن جدعان اهـ وقد عزاه المصنف للثعلبي. وفي الباب «الناس شركاء في ثلاث..».

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية[1]؛ في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل. ومدنِية؛ في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة. وهي ثلاث آيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ قراءة العامة. «إنا أَعْطيناك» بالعين. وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف: «أَنْطَيْنَاكَ» بالنون؛ وروته أمّ سلمة عن النبي ﷺ[2]؛ وهي لغة في العطاء؛ أنطيته: أعطيته. و«الكوثر»: فوعل من الكثرة؛ مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعرب تسمي كل شيء كثيرٍ في العدد والقدر والخطر كوثراً. قال سفيان: قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: بكوثر؛ أي بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير. قال الكميت:

وأنت كثيرٌ يابنَ مَرْوانَ طَيِّبٌ ... وكان أبوك ابنُ العقائِلِ كَوْثرا

والكوثر: العدد الكثير من الأصحاب والأشياع. والكوثر من الغبار: الكثير. وقد تكوثر إذا كثر؛ قال الشاعر[3]:

وقد ثارَ نقع الموتِ حتى تَكَوثرا

الثانية: واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطِيه النبي ﷺ على ستة عشر قولاً:

الأوّل:

[٦٤٨٦] أنه نهر في الجنة؛ رواه البخاريّ عن أنس والترمذيّ أيضاً وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال:

[٦٤٨٦] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٦٤ و ٦٥٨١ وأبو داود ٤٧٤٨ والترمذي ٣٣٥٩ و ٣٣٦٠ وأحمد ٣/ ١٦٤ وابن أبي شيبة ١١/ ٤٣٧ من طرق كلهم من حديث أنس بأتم منه.

---

(١) الراجح كونها مدنية لحديث مسلم الآتي برقم ٦٤٨٨.

(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٢٥٦ والطبراني ٢٣/ ٣٦٥ ومداره على عمرو بن عبيد، وهو متروك، وبه أعله الذهبي.

(٣) هو حسان بن نشبة.

[٦٤٨٧] قال رسول الله ﷺ: «الكَوْثر: نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه علىٰ الدرّ والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج». هذا حديث حسن صحيح. الثاني: أنه حوض النبيّ ﷺ في الموقف؛ قاله عطاء. وفي صحيح مسلم عن أنس قال:

[٦٤٨٨] بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «نزلت عليّ آنفاً سورة ـ فقرأ ـ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ـ ثم قال ـ أتدرون ما الكوثر»؟. قلنا الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّه نَهرٌ وَعَدنِيهِ رَبِّي عَزَّ وجلَّ، عليه خَيرٌ كَثِير هُو حَوْضٌ تَرِد عَلَيْهِ أمّتي يَوْمَ القيامة آنِيَتُهُ عَددُ النُّجُوم، فيُخْتلَجُ العبدُ منهمْ فأقولُ إنَّهُ من أمّتي، فيقال إنك لا تَدْرِي ما أَحْدَثَ بَعْدَكَ».

والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة، ذكرناها في كتاب «التذكرة». وأن على أركانه الأربعة خُلفَاءَه الأربعة؛ رضوان الله عليهم. وأنَّ من أبغض واحداً منهم لم يسقِه الآخر، وذكرنا هُناكَ من يُطْرَد عنه. فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك. ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثراً، لكثرة الواردة والشاربة من أمّة محمد عليه السلام هناك. ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير. الثالث: أن الكوثَر النبوّةُ والكتابُ؛ قاله عكرمة. الرابع: القرآن؛ قاله الحسن. الخامس: الإسلام؛ حكاه المغيرة. السادس: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع؛ قاله الحسين بن الفضل. السابع: هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع؛ قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رِئاب. الثامن: أنه الإيثار؛ قاله ابن كَيْسان. التاسع: أنه رِفعة الذكر. حكاه الماورديّ. العاشر: أنه نور في قلبك دلك عليّ، وقطعك عما سوايَ. وعنه: هو الشفاعة؛ وهو الحادي عشر. وقيل: معجزات الربّ هُدِيَ بها أهلُ الإجابة لدعوتك؛ حكاه الثعلبيّ، وهو الثاني عشر. الثالث عشر: قال هلال بن يساف: هو لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقيل: الفقه في الدين. وقيل: الصلوات الخمس؛ وهما الرابع عشر والخامس عشر. وقال ابن إسحاق: هو العظيم من الأمر؛ وذكر بيت لبِيد:

[٦٤٨٧] صحيح. أخرجه الترمذي ٣٣٥٨ وابن ماجة ٤٣٣٤ وأحمد ٢/١١٢ من حديث ابن عمر وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو كما قال فيه عطاء بن السائب، لكن سمع منه حماد بن زيد قبل الاختلاط، ولحديثه شواهد كثيرة راجع جامع الأصول ٢/٤٣٨ ـ ٤٣٩. وانظر ما بعده.

[٦٤٨٨] صحيح. أخرجه مسلم ٤٠٠ من حديث أنس، وانظر ٦٤٨٦.

وصاحب مَلْحوبٍ فُجِعْنا بفقدِهِ وعِندَ الرِّداعِ بيت آخرَ كَوْثَر[1]

أي عظيم.

قلت: أصح هذه الأقوال الأوّل والثاني؛ لأنه ثابت عن النبيّ ﷺ نص في الكوثر. وسمع أنس قوماً يتذاكرون الحوض فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يَتَمارَوْن في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي، ما تصلِّي امرأة منهنّ إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبيّ ﷺ. وفي حوضه يقول الشاعر:

يا صاحبَ الحوضِ مَنْ يُدَانيكا وأنتَ حَقًّا حبيبُ بارِيكا

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعْطيه رسول الله ﷺ زيادة على حوضه ﷺ تسليماً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ أي أقم الصلاة المفروضة عليك؛ كذا رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال قتادة وعطاء وعِكرمة: «فصل لِربك» صلاة العيد يوم النحر. «وانْحَرْ» نُسُكك. وقال أنس:

[٦٤٨٩] كان النبيّ ﷺ ينحر ثم يصلي، فأُمِر أن يُصَلِّي ثم يَنْحَر. وقال سعيد بن جبير أيضاً: صَلِّ لربك صلاة الصبح المفروضة بَجْمع[2]، وانْحرِ البُدْن بِمنًى. وقال سعيد بن جبير أيضاً: نزلت في الحُدَيْبِيَةِ حين حُصِر النبيّ ﷺ عن البيت، فأمره الله تعالى أن يُصلِّيَ ويَنْحَر البُدْنَ وينصرف؛ ففعل ذلك. قال ابن العربيّ: «أما من قال: إن المراد بقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ الصلوات الخمس؛ فلأنها ركن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين. وأما من قال: إنها صلاة الصبح بالمزدَلِفة؛ فلأنها مقرونة بالنحْر، وهو في ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرَها؛ فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحْر».

قلت: وأما من قال إنها صلاة العِيد؛ فذلك بغير مكة؛ إذ ليس بمكة صلاة عيدٍ بإجماع، فيما حكاه ابن عمر. قال ابن العربيّ: «فأما مالك فقال: ما سمعت فيه شيئاً،

[٦٤٨٩] ضعيف. أخرجه الطبري ٣٨١٩٧ من حديث أنس، وفيه جابر الجعفي ضعيف، وكذبه الإمام أبو حنيفة.

---

(١) ملحوب: ماء لبني أسد بن خزيمة، والرداع: اسم ماء أيضاً.

(٢) جمع: هي المزدلفة.

والذي يقع في نفسي أن المراد بذلك صلاة يوم النحْر، والنحْر بعدها». وقال عليّ رضي الله عنه ومحمد بن كعب[1]: المعنى ضع اليُمْنَى على اليسرى حِذاء النحْر في الصلاة. ورُوِي عن ابن عباس أيضاً. وروي عن عليّ أيضاً: أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره. وكذا قال جعفر بن عليّ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ قال: يرفع يديه أوّلَ ما يُكَبِّر للإحرام إلى النحر. وعن عليّ رضي الله عنه قال:

[٦٤٩٠] لما نزلت ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ قال النبيّ ﷺ لجبريل: «ما هذه النحِيرة التي أمرني الله بها»؟ قال: «ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرّمت للصلاة، أن ترفع يديكَ إذا كَبّرت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة، وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة». وعن أبي صالح عن ابن عباس قال: استَقْبِل القبلة بنحرك؛ وقاله الفرّاء والكلبيّ وأبو الأحوص. ومنه قول الشاعر:

أبـا حكـم مـا أَنْـتَ عَـمُّ مُجـالِـدٍ   وسَيِّـدُ أهـلِ الأَبطَـحِ المُتَنـاحِـرِ

أي المتقابل. قال الفرّاء: سمعت بعض العرب يقول: منازلنا تتناحر؛ أي تتقابل، نحر هذا بنحر هذا؛ أي قُبالتِه. وقال ابن الأعرابيّ: هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المِحراب؛ من قولهم: منازلهم تتناحر؛ أي تتقابل. ورُوي عن عطاء قال: أمره أن يستوي بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره. وقال سليمان التَّيمِيّ: يعني وارفع يدك بالدعاء إلى نحرك. وقيل: «فَصلِّ» معناه: واعبد. وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ يقول: إن ناساً يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله؛ وقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لله. قال ابن العربي: «والذي عندي

[٦٤٩٠] باطل. أخرجه الحاكم ٢/٥٣٨ برقم ٣٩٨١ من حديث علي وسكت عليه، وقال الذهبي: إسرائيل صاحب عجائب لا يعتمد عليه وأصبغ شيعي متروك عند النسائي اهـ إسرائيل هو ابن حاتم، وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/١٧٧ في ترجمة إسرائيل هذا، ومن طريقة ابن الجوزي في الموضوعات ٢/٩٨ ـ ٩٩ من حديث علي، وقال ابن حبان: إسرائيل بن حاتم، يروي عن مقاتل بن حيان الموضوعات. روىٰ عن مقاتل بن حيان ما وضعه عليه عمر بن صبح كأنه كان يسرقها منه اهـ وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع، وضعه من يريد مقاومة من يكره رفع اليدين، وقد جاء في رفع اليدين أحاديث صحاح تكفي اهـ باختصار وتصرف.

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله ٤/٥٩٧: كل هذه الأقوال غريبة جداً والصحيح أن المراد بالنحر، ذبح المناسك، ولهذا كان ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر ويقول «من صلىٰ صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك...» الحديث اهـ وهو حديث صحيح، تقدم تخريجه، وهو الآتي.

أنه أراد: اعبد ربك، وانحر له، فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر، وبالْحَرىٰ[1] أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخُصوصية من الكوثر، وهو الخير الكثير، الذي أعطاكه الله، أو النهر الذي طِينه مسك، وعدد آنيته نجوم السماء؛ أما أن يوازِيَ هذا صلاة يوم النحر، وذبح كبش أو بقرة أو بدَنَة، فذلك يبعد في التقدير والتدبير، وموازنة الثواب للعبادة». والله أعلم.

الثانية: قد مضى القول في سورة «الصَّافّات» في الأُضحِية وفضلها، ووقت ذبحها؛ فلا معنى لإعادة ذلك. وذكرنا أيضاً في سورة «الحج» جملة من أحكامها. قال ابن العربيّ: «ومن عجيب الأمر: أن الشافعي قال: إن من ضحَّى قبل الصلاة أجزأه، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾، فبدأ بالصلاة قبل النحر، وقد قال النبيّ ﷺ (في البخاريّ وغيره، عن البراء بن عازب، قال)[2]:

[٦٤٩١] «أوّل ما نبْدَأ به في يومنا هذا: أن نُصلِّيَ، ثم نرجعَ فننحر، من فعل فقد أصاب نُسُكاً، ومن ذَبَح قبل، فإنما هو لحم قدّمه لأهله، ليس من النُّسك في شيء». وأصحابه ينكرونه، وحبذا الموافقة».

الثالثة: وأما ما روي عن عليّ عليه السلام «فصل لِربك وانحر» قال:

[٦٤٩٢] وضع اليمين على الشمال في الصلاة، خرّجه الدارَقُطْنيّ، فقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: الأوّل: لا توضع فريضة ولا نافلة؛ لأن ذلك من باب الاعتماد. ولا يجوز في الفرض، ولا يستحب في النفل. الثاني. لا يفعلها في الفريضة، ويفعلها في النافلة استعانة؛ لأنه موضع ترخص. الثالث: يفعلها في الفريضة والنافلة. وهو الصحيح؛ لأنه ثبت أن رسول الله ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل بن حجر وغيره[3]. قال ابن المنذر: وبه قال مالك وأحمد وإسحاق، وحكي ذلك

[٦٤٩١] صحيح. أخرجه البخاري ٩٥١ ومسلم ١٩٦١ من حديث البراء وقد تقدم.

[٦٤٩٢] موقوف. أخرجه الحاكم ٢/٥٣٧ والطبري ٣٨١٨٤ و ٣٨١٨٥ و ٣٨١٨٦ و ٣٨١٨٨ و ٣٨١٩٠ والدراقطني في «الأفراد» كما في الدر ٦/٦٨٩ كلهم عن علي موقوفاً، وإسناده غير قوي، عاصم بن العجاج الجحدري غير مشهور، ذكره الذهبي في ميزانه وذكر أنه له قراءات شاذة، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً. وسكت الحاكم علىٰ هذا الأثر، ولم يصححه كعادته. وهو موقوف بكل حال.

---

(١) الحري: الخليق والجدير.

(٢) هكذا وقع في الأصول وهو مرفوع.

(٣) تقدم تخريجه.

عن الشافعيّ. واستحب ذلك أصحاب الرأي. ورأت جماعة إرسال اليد. وممن روينا ذلك عنه ابن الزبير[1] والحسن البصريّ وإبراهيم النخعِيّ.

قلت: وهو مَرْوِيّ أيضاً عن مالك. قال ابن عبد البر: إرسال اليدين، ووضع اليمنى على الشمال، كل ذلك من سنة الصلاة.

الرابعة: واختلفوا في الموضع الذي توضع عليه اليد؛ فروِي عن عليّ بن أبي طالب: أنه وضعهما على صدره. وقال سعيد بن جُبير وأحمد بن حنبل: فوق السرّة. وقال: لا بأس إن كانت تحت السرّة. وقالت طائفة: توضع تحت السرّة. وروي ذلك عن عليّ وأبي هُريرة والنخعيّ وأبي مجلَز. وبه قال سفيان الثوريّ وإسحاق.

الخامسة: وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود، فاختلف في ذلك؛ فروى الدّارقطنِيُّ من حديث حميد عن أنس قال:

[٦٤٩٣] كان رسول الله ﷺ يرفع يديه إذا دخل في الصلاة، وإذا ركع، وإذا رفع رأسه من الركوع، وإذا سجد. لم يروِه عن حميد مرفوعاً إلا عبد الوهّاب الثقفيّ. والصواب من فعل أنس. وفي الصحيحين من حديث ابن عمر، قال:

[٦٤٩٤] رأيت رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه، حتى تكونا حذو

[٦٤٩٣] أخرجه ابن ماجة ٨٦٦ والدارقطني ١/ ٢٩٠ واللفظ له كلاهما من حديث أنس، وإسناده صحيح على شرطهما، كما قال البوصيري في زوائد ابن ماجة، وابن دقيق العيد، كما في التعليق المغني. قال البوصيري: إلا أن الدارقطني أعله بالوقف. اهـ قلت: الغريب فيه لفظ «وإذا سجد» وإلا فالحديث، له شواهد تبلغ حد الشهرة، وانظر ما بعده.

[٦٤٩٤] صحيح. أخرجه البخاري ٧٣٥ و٧٣٦ و٧٣٨ و٧٣٩ ومسلم ٣٩٠ ح ٢١ - ٢٢ وأبو داود ٧٤٢ والترمذي ٢٥٥ وابن ماجة ٨٥٨ والدارمي ١٢٣٠ والنسائي ٢/ ١٢٢ وأحمد ٢/ ١٨ - ٤٤ من حديث ابن عمر.

- وورد من حديث مالك بن الحويرث أخرجه البخاري ٧٣٧ ومسلم ٣٩١ وأبو داود ٧٤٥ والنسائي ٢/ ١٢٣ والطيالسي ١٢٥٣.

- وورد من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري ٧٨٩ ومسلم ٣٩٢ وأبو داود ٧٣٨ وابن ماجة ٨٦٠ ومن حديث ابن مسعود أخرجه الترمذي ٢٥٣ والمشهور عن ابن مسعود خلافه، وله شواهد كثيرة تبلغ به حد الشهرة، كما ذكرت آنفاً، والله أعلم.

- وهذا هو المذهب الراجح، وهو قول الجمهور، والله الموفق.

---

(١) في الأصل «المنذر» والتصويب عن بعض النسخ، وهو الصواب فابن المنذر وهو المتكلم.

منكِبيه، ثم يكبر، وكان يفعل ذلك حين يكَبِّر للركوع، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع، ويقول سمع الله لمن حمِده. ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود. قال ابن المنذر: وهذا قول الليث بن سعد، والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبي ثور. وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول. وبه أقول؛ لأنه الثابت عن رسول الله ﷺ. وقالت طائفة: يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة، ولا يرفع فيما سوى ذلك. هذا قول سفيان الثوريّ وأصحاب الرأي.

قلت: وهو المشهور من مذهب مالك؛ لحديث ابن مسعود، خرّجه الدّارقطنِيّ من حديث إسحاق بن أبي إسرائيل، قال: حدّثنا محمد بن جابر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال:

[٦٤٩٥] صليت مع النبيّ ﷺ ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ فلم يرفعوا أيديهم إلا أوّلاً عند التكبيرة الأولى في افتتاح الصلاة. قال إسحاق: به نأخذ في الصلاة كلها. قال الدّارقطنِيّ: تفرّد به محمد بن جابر (وكان ضعيفاً) عن حماد عن إبراهيم. وغير حماد يروِيه عن إبراهيم مرسلاً عن عبد الله، من فعله، غير مرفوع إلى النبيّ ﷺ؛ وهو الصواب. وقد روى يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البَرَاء:

[٦٤٩٦] أنه رأى النبيّ ﷺ حين افتتح الصلاة رفع يديه حتى يحاذِيَ بهما أُذنيه، ثم لم يعد إلى شيء من ذلك حتى فرغ من الصلاة. قال الدّارقطنيّ: وإنما لقن يزيد في آخر عمره: «ثُمَّ لَمْ يَعُدْ»؛ فتلقنه وكان قد اختلط. وفي (مختصر ما ليس في المختصر) عن مالك: لا يرفع اليدين في شيء من الصلاة. قال ابن القاسم: ولم أر مالكاً يرفع يديه عند الإحرام. قال: وأَحبُّ إليّ ترك رفع اليدين عند الإحرام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

أي مبغِضك؛ وهو العاص بن وائل. وكانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات، ثم مات البنون وبقي البنات: أبتر. فيقال: إن العاص وقف مع النبيّ ﷺ يكلمه، فقال له جمع من صناديد قريش: مع من كنت واقفاً؟ فقال: مع ذلك الأبتر. وكان قد تُوُفِّي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ، وكان من خديجة؛ فأنزل الله جل شأنه: ﴿إِنَّ

[٦٤٩٥] ضعيف. أخرجه الدراقطني ١/ ٢٩٥ من حديث ابن مسعود وضعفه الدراقطني بقوله: تفرد به محمد بن جابر وكان ضعيفاً ورواه إبراهيم عن ابن مسعود مرسلاً، من فعله غير مرفوع، وهو الصواب.

[٦٤٩٦] ضعيف. أخرجه الدارقطني ١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤ من حديث البراء ومداره علىٰ يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف. وقال الدارقطني: وإنما لُقِّنَ يزيد في آخر عمره «ثم لم يعد» فتلقنه وكان قد اختلط.

شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ أي المقطوع ذِكره من خير الدنيا والآخرة. وذكر عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل قالوا: بُتِر فلان. فلما مات إبراهيم ابن النبيّ ﷺ[1] خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتِر محمد؛ فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ يعني بذلك أبا جهل. وقال شمِر بن عطية: هو عقبة بن أبي مُعَيط. وقيل: إن قريشاً كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده: قد بُتِر فلان. فلما مات لرسول الله ﷺ ابنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، قالوا: بتِر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السدّي وابن زيد. وقيل: إنه جواب لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لما قدم مكة: نحن أصحاب السقاية والسَّدانة والحِجابة واللّواء، وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أ هذا الصُّنَيْبِرُ[2] الأُبَيْتِرُ من قومه؟ قال كعب: بل أنتم خير؛ فنزلت في كعب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]... الآية. ونزلت في قريش: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾؛ قاله ابن عباس أيضاً وعكرمة. وقيل: إن الله عز وجل لما أوحى إلى رسوله، ودعا قريشاً إلى الإيمان، قالوا: انبتر منا محمد؛ أي خالفنا وانقطع عنا. فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ أنهم هم المبتورون؛ قاله أيضاً عِكرمة وشَهْر بن حَوْشَب. قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: الذي لا ولد له، ومن الدوابّ الذي لا ذنب له. وكل أمرٍ انقطع من الخير أثره، فهو أبتر. والبَتْر: القطع. بَتَرْت الشيء بَتْراً: قطعته قبل الإتمام. والانبتار: الانقطاع. والباتر: السيف القاطع. والأَبْتر: المقطوع الذَّنَب. تقول منه: بُتِر (بالكسر) يُبْتَرُ بَتْراً. وفي الحديث[3]: ما هذه البُتَيراء. وخطب زياد خُطبته البتراء؛ لأنه لم يحمد الله فيها، ولم يصل على النبيّ ﷺ. ابن السكيت: الأبتران: العَيْر والعَبْد؛ قال سميا أبترين لقلة خيرهما. وقد أبتره الله: أي صيره أبتر. ويقال: رجل أُباتِرُ (بضم الهمزة): الذي يقطع رحِمه. قال الشاعر:

---

(١) هذا لا يصح عن ابن عباس فالسورة مكية في قول الجمهور وأبو جهل هلك يوم بدر والنبي ﷺ، إنما أهديت له مارية أم إبراهيم سنة سبع من الهجرة، وولدت له إبراهيم سنة ثمان، ويوم بدر كان سنه ثلاث للهجرة، فالخبر لا يصح عن ابن عباس، وذكر ابن كثير ٤/٥٩٨ عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة أنها نزلت في العاص بن وائل أخرج هذه الآثار الطبري ٣٨٢١٤ و ٣٨٢١٥ و ٣٨٢١٧ و ٣٨٢١٩ وذلك أنه كان يقول: أنا شانىء محمداً، وهو أبير ليس له عقب. وذكر الطبري ٣٨٢٢١ بسنده عن مشمر بن عطية أنها نزلت في عقبة بن أبي معيط.

(٢) سيشرح المصنف هذه الكلمة بعد أسطر.

(٣) ليس بمرفوع، قال ابن الأثير في النهاية ١/٩٣: ومنه حديث سعد أنه أوتر بركعة، فأنكر عليه ابن مسعود رضي الله عنهما، وقال: ما هذه البتيراء؟.

لَئِيمٌ نَزَتْ في أَنْفِهِ خُنْزُوانَةٌ على قَطعِ ذِي القُرْبَى أَحذُّ أُباتِرُ

والبُتْرِية: فِرقة من الزيدية؛ نسبوا إلى المغيرة بن سعد، ولقبه الأبتر. وأمّا الصُّنبور فلفظ مشترك. قيل: هو النخلة تبقى منفردة، ويدِق أسفلها ويتقشر؛ يقال: صَنْبَرَ أسفلُ النخلة. وقيل: هو الرجل الفرد الذي لا ولد له ولا أخ. وقيل: هو مَثْعَب[1] الحوضِ خاصّة؛ حكاه أبو عبيد. وأنشد:

ما بين صُنْبورٍ إلى الإزاءِ[2]

والصُّنبور: قَصَبة تكون في الإداوة[3] من حديد أو رصاص يشرب منها. حكى جميعه الجوهريّ رحمه الله. والله سبحانه وتعالى أعلم.

سورة الكافرون

وهي مكية؛ في قول ابن مسعود والحسن وعِكرمة. ومدنِية؛ في أحد قولِي ابن عباس وقتادة والضحاك. وهي ست آيات.

وفي الترمذيّ من حديث أنس: أنها تعدِل ثلث القرآن. وفي كتاب (الرد لأبي بكر الأنباريّ): أخبرنا عبد الله بن ناجية قال: حدّثنا يوسف قال حدّثنا القعنبيّ وأبو نعيم عن موسى بن وردان عن أنس، قال:

[٦٤٩٧] قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ تعدِل ربع القرآن». ورواه موقوفاً عن أنس. وخرّج الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد عن ابن عمر قال:

[٦٤٩٨] صلى النبيّ ﷺ بأصحابه صلاة الفجر في سفر، فقرأ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، ثم قال: «قرأت بكم ثلث القرآن وربعه». وروى جُبير بن مطعم:

[٦٤٩٧] تقدم برقم ٦٤٣٤ وهو حديث حسن بشواهده، راجع الدر ٦/ ٦٩٣ ـ ٦٩٤.

[٦٤٩٨] أخرجه ابن الضريس ٢٢٣ والطبراني ١٣٤٩٣ من حديث ابن عمر، وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٤٨: عبيد الله بن زحر، وثقه جماعة، وفيه ضعيف اهـ وللحديث شواهد يحسن بها، إن شاء الله.

---

(١) مثعب الحوض: مسيله.

(٢) مصب الماء في الحوض.

(٣) إناء صغير من جلد.

[٦٤٩٩] أن النبيّ ﷺ قال: «أتحب يا جبير إذا خرجتَ سفَراً أن تكون من أمثل أصحابِك هيئة وأكثرِهم زاداً؟» قلت: نعم. قال: «فاقرأ هذه السور الخمس من أولّ «قل يأيها الكافرون ـ إلى قل أعوذ برب الناس» وافتتح قراءتك ببسم الله الرحمن الرحيم». قال: فوالله لقد كنت غير كثيرِ المال، إذا سافرت أكون أبدَّهم هَيئة، وأقلهم زاداً، فمذ قرأتهنّ صرت من أحسنهم هيئة، وأكثرهم زاداً، حتى أرجع من سفري ذلك. وقال فرْوة بن نَوْفل الأشجعيّ:

[٦٥٠٠] قال رجل للنبيّ ﷺ: أوصني. قال: «اقرأ عند مَنامك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ فإنها براءة من الشرك». خرّجه أبو بكر الأنباريّ وغيره. وقال ابن عباس: ليس في القرآن أشدّ غيظاً لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك. وقال الأصمعيّ: كان يقال لـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ المقشقِشتان؛ أي أَنهما تُبرئان من النفاق. وقال أبو عبيدة: كما يُقَشْقِشُ الهِناء[1] الجربَ فيبرئُهُ. وقال ابن السكيت: يقال للقرح والجُدرِيّ إذا يبِس وتقرَّف، وللجَرب في الإبل إذا قفل[2]: قد تَوسَّف جلدُه، وتقشّر جِلده، وتقَشْقَش جِلدُه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾.

ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس[3]: أن سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة،

[٦٤٩٩] ضعيف. أخرجه أبو يعلىٰ ٧٤١٩ من حديث جبير بن مطعم، وقال في المجمع ١٠/ ١٣٣ـ١٣٤: فيه من لم أعرفهم اهـ فالحديث فيه مجاهيل.

[٦٥٠٠] هكذا ذكره المصنف وعزاه لابن الأنباري وعلىٰ هذا هو مرسل. وقد أخرجه أحمد ٥/ ٤٥٦ والترمذي ٣٤٠٣ والنسائي في اليوم والليلة ٨٠٢ من حديث فروة بن نوفل عن أبيه قال: «دخلت علىٰ النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله علمني...» الحديث. رجاله ثقات، وصححه ابن حبان ٧٨٩ وأخرجه أبو داود ٥٠٥٥ والدرامي ٢/ ٤٥٩ وابن حبان ٧٩٠ والحاكم ٢/ ٥٣٨ من طريق آخر عن فروة عن أبيه به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وله طرق أخرىٰ واهية، راجع الدر ٦/ ٦٩٤.

---

(١) الهِناء ـ بالكسر ـ القطران.

(٢) قفل الجلد: يبس.

(٣) ذكره ابن هشام في سيرته ١/ ٣٤٨ باب سبب نزول سورة (الكافرون) نقلاً عن ابن إسحق، وورد عند الطبري ٣٨٢٢٦ عن ابن إسحق عن سعيد بن مينا مرسلاً. وأسنده الطبري ٣٨٢٢٥ بنحوه عن ابن عباس. =

والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خَلَف؛ لقوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هَلُمَّ فلنعبدْ ما تعبد، وتَعْبُدْ ما نَعْبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله؛ فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شرِكتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه؛ فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾. وقال أبو صالح عن ابن عباس[1]: إنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لَوِ اسْتَلَمْت بعض هذه الآلهة لصدقناك؛ فنزل جبريل على النبيّ ﷺ بهذه السورة، فيئسوا منه، وآذَوه؛ وآذَوا أصحابه. والألف واللام ترجع إلى معنى المعهود وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لأيّ؛ لأنها مخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سيموت على كفره، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم. ونحوه عن الماوردّي: نزلت جواباً، وعَنَى بالكافرينَ قوماً مُعَيَّنِين، لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمن، فعبد الله، ومنهم من مات أو قُتِل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون. قال أبو بكر بن الأنباريّ: وقرأ من طعن في القرآن: قُلْ لِلَّذِين كَفَرُوا ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ وزعم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراء على رب العالمين، وتضعيف لمعنى هذه السورة، وإبطال ما قصده الله من أن يُذِلّ نبيه للمشركين بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزرِيّ، وإلزامهم ما يأنف منه كل ذي لبِ وحِجاً. وذلك أن الذي يدّعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفهم. فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا: يا أيها الكافرون؛ دليل صحة هذا: أن العربيّ إذا قال لمخاطبه قل لزيد أقبل إلينا، فمعناه قلْ لزيد يا زيد أقبل إلينا. فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغ معنى؛ إذ كان الرسول عليه السلام يعتمدهم في ناديهم، فيقول لهم: «يأيها الكافرون». وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنْسبوا إلى الكفر، ويدخلو في جملة أهله إلاّ وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يد، أو تقع به من جهتهم أذِية. فمن لم يقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ كما أنزلها الله، أسقط آية لرسول الله ﷺ. وسبيل أهل الإسلام ألا يسارعوا إلى مثلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه، التي منحه الله إياها، وشرّفه بها. وأما وجه التكرار فقد قيل إنه للتأكيد في قطع أطماعهم؛ كما تقول: والله لا أفعل كذا، ثم والله لا أفعله. قال أكثر أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز؛

= ـ وذكره الواحدي ٨٧٤ بدون إسناد.

(١) أبو صالح اسمه باذام، روىٰ عن ابن عباس موضوعات، انظر ما قبله.

لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء إلى شيء، أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد؛ قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ [الرحمن: ٤٥]. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المطففين: ١٠]. ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [النبأ: ٤ ـ ٥]. و﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾. كل هذا على التأكيد. وقد يقول القائل: ٱرْمِ ٱرْمِ، اعجَلْ اعجَلْ؛ ومنه قوله عليه السلام في الحديث الصحيح:

[٦٥٠١] «فلان آذن، ثم لا آذن، إنما فاطمة بضعة مني». خرّجه مسلم. وقال الشاعر:

هــلا ســالــتِ جمــوعَ كِنــدة ... يــومَ ولَّــوْا أيــنَ أينــا

وقال آخر[1]:

يــا لَبَكْــرٍ أَنْشِــرُوا لِــي كُلَيْبــاً ... يــا لَبَكْــرٍ أَيــنَ أَيْــنَ الفِــرارُ

وقال آخر:

يــا علقمــهْ يــا علقمــهْ يــا علقمــهْ ... خيــرَ تميــم كُلِّهــا وأكْــرمَــهْ

وقال آخر[2]:

يــا أَقْــرعُ بــنَ حــابــسٍ يــا أَقْــرَعُ ... إنــكَ إنْ يُصْــرَع أَخــوكَ تُصْــرَعُ

وقال آخر:

ألاَ يا اسلَمِي ثم اسلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمِي ... ثَــلاَث تَحِيَّــاتٍ وإنْ لــمْ تَكَلَّــم

ومثله كثير. وقيل: هذا على مطابقة قولهم: تَعبُد آلهتنا ونعبُد إلهَكَ، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، فنجري على هذا أبداً سَنَة وسنة. فأجيبوا عن كل ما قالوه بضدّه؛ أي إن هذا لا يكون أبداً. قال ابن عباس: قالت قريش للنبيّ ﷺ: نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجلٍ بمكة، ونزوّجك مَنْ شئت، ونطأ عقِبَك؛ أي نمشِي خلفَك، وتكُفُّ عن شتم آلهتنا، فإن لم تفعل فنحن نَعْرِض عليك خَصْلة واحدة

[٦٥٠١] صحيح. أخرجه البخاري ٣٧١٤ و ٣٧٦٧ و ٥٢٣٠ ومسلم ٢٤٤٩ وأبو داود ٢٠٧١ والترمذي ٣٨٦٧ وابن ماجة ١٩٩٨ وأحمد ٣٢٨/٤ من حديث المسور بن مخرمة «أنه سمع رسول الله ﷺ علىٰ المنبر يقول: إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن يُنكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب عليًّان يطلق ابنتي، وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها» لفظ مسلم في روايته ح ٩٣. وورد بألفاظ أخرىٰ.

(١) هو مهلهل بن ربيعة.

(٢) البيت لجرير البجلي وقيل: لعمرو بن خثارم.

هي لنا ولك صلاح؛ تعبدُ آلهتنا (اللات والعُزّى) سنة، ونحن نعبد إلهك سنة؛ فنزلت السورة. فكان التكرار في «لا أعبد ما تعبدون»؛ لأن القوم كرّروا عليه مقالهم مرة بعد مرة. والله أعلم. وقيل: إنما كرّر بمعنى التغليظ. وقيل: أي «لا أعبد» الساعة «ما تعبدون. ولا أنتم عابِدون» الساعة «ما أعبد». ثم قال: «ولا أنا عابِد» في المستقبل «ما عبدتم. ولا أنتم» في المستقبل «عابِدون ما أعبد». قاله الأخفش والمبرّد. وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملوا وثَنـاً، وسئِموا العبادة له، رفضوه، ثم أخذوا وثَنـاً غيره بشهوة نفوسهم، فإذا مروا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه، ورفعوا تلك، فعظموها ونصبوها آلهة يعبدونها؛ فأُمِر عليه السلام أن يقول لهم: «لا أعبد ما تعبدون» اليوم من هذه الآلهة التي بين أيديكم. ثم قال: «ولا أنتم عابِدون ما أعبد» وإنما تعبدون الوثن الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن. «ولا أنا عابِد ما عبدتم» أي بالأمس من الآلهة التي رفضتموها، وأقبلتم على هذه. ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾ فإني أعبد إلهِي. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾ في الاستقبال. وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾ على نفي العبادة منه لِما عبدوا في الماضي. ثم قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾ على التكرير في اللفظ دون المعنى، من قِبل أن التقابل يوجب أن يكون: ولا أنتم عابدون ما عبدت، فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد، إشعاراً بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل، مع أن الماضي والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر. وأكثر ما يأتي ذلك في أخبار الله عز وجل. وقال: «ما أعبدُ»، ولم يقل: مَنْ أعبد؛ ليقابل به «ولا أنا عابِد ما عبدتم» وهي أصنام وأوثان، ولا يصلح فيها إلا «ما» دون «مَنْ» فحُمل الأوّل على الثاني، ليتقابل الكلام ولا يتنافى. وقد جاءت «ما» لمن يعقل. ومنه قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا. وقيل: إن معنى الآيات وتقديرها: قل يا أيها الكافرون لا أَعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذي أعبده؛ لإشراككم به، واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين. فأنا لا أعبد ما عبدتم، أي مثل عبادتكم؛ فـ«ـما» مصدرية. وكذلك «ولا أنتم عابِدون ما أعبد» مصدرية أيضاً؛ معناه ولا أنتم عابدون مثل عبادتي، التي هي توحيد.

قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾.

فيه معنى التهديد؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ [القصص: ٥٥] أي إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، فنسخ بآية السيف. وقيل: السورة كلها منسوخة. وقيل: ما نسخ منها شيء لأنها خبر. ومعنى «لكم

دينكم» أي جزاء دينكم، ولي جزاء ديني. وسمى دينهم ديناً، لأنهم اعتقدوه وَتَولَّوه. وقيل: المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدِّين الجزاء. وفتح الياء من «ولِيَ دِينِ» نافع، والبزي عن ابن كثير باختلاف عنه، وهشام عن ابن عامر، وحفص عن عاصم. وأثبت الياء في «ديني» في الحالين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب؛ قالوا: لأنها اسم مثل الكاف في دينكم؛ والتاء في قمت. الباقون بغير ياء، مثل قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء: ٧٨]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ [آل عمران: ٥٠] ونحوه، اكتفاء بالكسرة، واتباعاً لخط المصحف؛ فإنه وقع فيه بغير ياء.

تفسير سورة النصر

وهي مدنية بإجماع. وتسمى سورة «التوديع». وهي ثلاث آيات
وهي آخر سورة نزلت جميعاً؛ قاله ابن عباس في صحيح مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾.

النصر: العَوْن؛ مأخوذ من قولهم: قد نَصَرَ الغيثُ الأرض: إذا أعان على نباتها، من قَحْطِها. قال الشاعر(١):

إذا انسلخ الشهر الحرام فودِّعي بلادَ تميمٍ وانْصُرِي أرض عامِرِ

ويروى:

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ فجاوِزِي بلادَ تميم وانصري أرضَ عامِرِ

يقال: نصره على عدوّه ينصره نصراً؛ أي أعانه. والاسم النُّصْرة. واستنصره على عدوّه: أي سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضهم بعضاً. ثم قيل: المراد بهذا النصر نصر الرسول على قريش؛ الطبريّ. وقيل: نصره على من قاتله من الكفار؛ فإن عاقبة النصر كانت له: وأما الفتح فهو فتح مكة؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: هو فتح المدائن والقصور. وقيل: فتح سائر البلاد. وقيل: ما فتحه عليه من العلوم. و«إذا» بمعنى قد؛ أي قد جاء نصر الله؛ لأن نزولها بعد الفتح. ويمكن أن يكون معناه؛ إذا يجيئك.

---

(١) هو الراعي يخاطب خيلاً.

قوله تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي العرب وغيرهم. ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾ أي جماعات: فوجاً بعد فوج. وذلك لما فتحت مكة قالت العرب: أمّا إذا ظَفِر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان[1]. فكانوا يُسْلِمون أفْواجاً: أمّةً أمّةً. قال الضحاك: والأمّة: أربعون رجلاً. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن. وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين. بعضهم يؤذنون، وبعضهم يقرؤون القرآن وبعضهم يُهَلِّلون؛ فسُرّ النبيّ ﷺ بذلك، وبكى عمر وابن عباس. وروى عكرمة عن ابن عباس:

[٦٥٠٢] أن النبيّ ﷺ قرأ: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ وجاء أهل اليَمَنِ رَقيقةً أَفْئِدَتُهُمْ، لَيِّنةً طِباعهم، سَخِية قُلوبهم، عظيمةً خشيتُهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال:

[٦٥٠٣] قال رسول الله ﷺ: «أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوباً، وأرق أفئدة، الفِقه يَمَانٍ، والحكمة يَمَانِية». وروي أنه ﷺ قال:

[٦٥٠٤] «إني لأجدُ نَفَس ربكم مِن قِبلِ اليَمَنْ» وفيه تأويلان: أحدهما: أنه الفَرَجُ؛ لتتابع إسلامهم أفواجاً. والثاني: معناه أن الله تعالى نَفّس الكرب عن نبيه ﷺ بأهل اليمن، وهم الأنصار. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس

[٦٥٠٢] أخرجه الطبري ٣٨٢٣٠ وابن عساكر كما في الدر ٦/ ٧٠٠ واللفظ له، كلاهما من حديث ابن عباس، وفي إسناد الطبري حسن بن عيسىٰ الحنفي واهٍ لكن لم أقف علىٰ إسناد ابن عساكر، وللحديث شواهد تقويه فقد أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» ١١٧١٢ من طريق آخر عن ابن عباس بنحوه، وأتم منه، ورجاله ثقات كلهم، فالحديث بهذا حسن إن شاء الله، والله تعالىٰ أعلم.

[٦٥٠٣] صحيح. أخرجه البخاري ٤٣٨٨ ومسلم ٥٢ وأحمد ٢/ ٢٥٢ وابن أبي شيبة ١٢/ ١٨٢ وابن حبان ٧٢٩٧ و ٧٣٠٠ كلهم من حديث أبي هريرة.

[٦٥٠٤] أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ١٠٨٣ وأحمد ٢/ ٥٤١ من حديث أبي هريرة.
قال ابن حجر في الكشاف ٤/ ٨١١: ولا بأس بإسناده، وله شاهد من حديث سلمة بن نفيل في مسند البزار، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الأسماء، وفي إسناده إبراهيم بن سليمان الأفطس، قال البزار: إنه غير مشهور ا هـ.

---

(١) أي طاقة.

دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً»[1] ذكره الماورديّ، ولفظ الثعلبيّ: وقال أبو عمار حدّثني جار[2] لجابر، قال:

[٦٥٠٥] سألني جابر عن حال الناس، فأخبرته عن حال اختلافهم وفُرْقتهم؛ فجعل يبكي ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناسَ دَخَلُوا في دين الله أفواجاً، وسيَخْرُجونَ من دينِ اللَّهِ أَفْواجاً».

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ أي إذا صليت فأكثر من ذلك. وقيل: معنى سبح: صَلِّ؛ عن ابن عباس. «بِحَمْدِ ربك» أي حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح. «واسْتَغْفِرْهُ» أي سلِ الله الغفران. وقيل: «فسبح» المراد به: التنزيه؛ أي نزهه عما لا يجوز عليه مع شكرك له. «واسْتَغْفِرْه» أي سَلِ الله الغفران مع مداومة الذكر. والأوّل أظهر. روى الأئمة ـ واللفظ للبخاريّ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت:

[٦٥٠٦] ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ إلا يقول: «سُبْحانَكَ رَبَّنا وبِحَمْدك، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي». وعنها قالت:

[٦٥٠٧] كان رسول الله ﷺ يُكْثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سُبحانكَ اللَّهُمَّ رَبَّنا وبِحَمدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي». يتأوّل القرآن. وفي غير الصحيح: وقالت أمّ سَلَمة:

[٦٥٠٨] كان النبيّ ﷺ آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: «سُبْحانَ اللَّهِ وبحمدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وأَتُوبُ إليه ـ قال ـ فإنّي أُمِرت بها ـ ثم قرأ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾» إلى آخرها. وقال أبو هريرة: اجتهدَ النبيّ ﷺ بعد نزولها،

[٦٥٠٥] أخرجه أحمد ٣/٣٤٣ برقم ١٤٢٨٦ من حديث أبي عمار عن جار لجابر عن جابر مرفوعاً، وإسناده ضعيف لجهالة جار جابر، وكذا قال الهيثمي رحمه الله في المجمع ٧/٢٨١: جار جابر لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

[٦٥٠٦] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٦٧ ومسلم ٤٨٤ وأبو عوانة ٢/١٨٦ من حديث عائشة.

[٦٥٠٧] صحيح. أخرجه أحمد ٦/٤٣ والبخاري ٤٩٦٨ ومسلم ٤٨٤ وأبو داود ٨٧٧ والنسائي ٢/٢١٩ وابن ماجة ٨٨٩ وابن حبان ١٩٣٠ كلهم من حديث عائشة.

[٦٥٠٨] أخرجه الطبري ٣٨٢٤٨ من حديث أم سلمة، وزاد السيوطي في الدر ٦/٦٩٩ نسبته لابن مردويه، ويشهد له ما قبله.

---

(١) ذكره الماوردي ٦/ ٣٦٠ بهذا اللفظ وبدون إسناد، وانظر ما بعده.

(٢) وقع في الأصل «جابر لجابر» والتصويب عن مسند أحمد رحمه الله.

حتى تَوَرَّمت قدماه، ونَحَل جسمه، وقل تبسمه، وكثر بكاؤه. وقال عِكرمة: لم يكن النبيّ ﷺ قَطُّ أشد اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها. وقال مقاتل[1]: لما نزلت قرأها النبيّ ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص، ففرِحوا واستبشروا، وبكى العباس؛ فقال له النبيّ ﷺ: «ما يُبْكيكَ يا عَمُّ؟» قال: نُعِيَتْ إليكَ نَفْسُكَ. قال: «إنه لكما تقول»؛ فعاش بعدها ستين يوماً، ما رُئِي فيها ضاحكاً مستبشراً. وقيل: نزلت في مِنًى بعد أيام التشريق، في حِجة الوداع، فبكى عُمر والعباس، فقيل لهما: إن هذا يوم فرح، فقالا: بل فيه نَعْي النبيّ ﷺ. فقال النبيّ ﷺ: «صَدَقتما، نُعِيت إليّ نفسي»[2]. وفي البخاريّ وغيره عن ابن عباس قال:

[٦٥٠٩] كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر، ويأذن لي معهم. قال: فوجِد بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله! فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم. قال: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ فقالوا: أمر الله جل وعز نبيه ﷺ إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه. فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر الله نبيه ﷺ حضورَ أجله، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾، فذلك علامة موتك. ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾. فقال عمر رضي الله عنه: تلومونني عليه؟ وفي البخاريّ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول. ورواه الترمذيّ، قال: كان عمر يسألني مع أصحاب النبيّ ﷺ، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتسأله ولنا بنون مثله؟ فقال له عمر: إنه من حيث نعلم. فسأله عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾. فقلت: إنما هو أجل رسولِ الله ﷺ، أعلمه إياه؛ وقرأ السورة إلى آخرها. فقال له عمر: والله ما أعلم منها إلا ما تعلم. قال: هذا حديث حسن صحيح. فإن قيل: فماذا يغفر للنبيّ ﷺ حتى يؤمر بالاستغفار؟ قيل له:

[٦٥١٠] كان النبيّ ﷺ يقول في دعائه: «رَبِّ اغفرْ لِي خَطِيئتي وجَهْلِي، وإسْرافِي

[٦٥٠٩] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٦٩ و ٤٩٧٠ والترمذي ٣٣٦٢ والنسائي في الكبرىٰ ١١٧١١ والطبري ٣٨٢٣٧ و ٣٨٢٣٨ كلهم من حديث ابن عباس.

[٦٥١٠] صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٩٨ ومسلم ٢٧١٩ وأحمد ٤/٤١٧ وابن أبي شيبة ١٠/٢٨١ وابن حبان ٩٥٤ و ٩٥٧ من حديث أبي موسىٰ.

---

(١) هذا معضل. ذكره الحافظ «تخريج الكشاف» ٤/ ٨١٢ بقوله: أخرجه الثعلبي عن مقاتل ا هـ ومقاتل يروىٰ مناكير.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، والظاهر أن المصنف أخذهُ عن تفسير الثعلبي، كالحديث السابق.

في أَمْرِي كُلِّه، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفْر لي خَطَئي وعَمْدِي، وجهلِي وهَزْلِي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخرتُ، وما أعلَنْت وما أسْرَرْت، أنت المقدِّم وأنت المُؤَخِّر، إنكَ على كلِّ شيءٍ قَدِير». فكان ﷺ يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله به عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذُنُوباً. ويحتمل أن يكون بمعنى: كُنْ متعَلقاً به، سائلاً راغباً، متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال. وقيل: الاستغفار تَعَبُّد يجب إتيانه، لا للمغفرة، بل تعبداً. وقيل: ذلك تنبيه لأمته، لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار. وقيل: «واستغفره» أي استغفر لأمتك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾: أي على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم. وإذا كان عليه السلام وهو معصوم يؤمر بالاستغفار، فما الظن بغيره؟ روى مسلم عن عائشة قالت:

[٦٥١١] كان رسول الله ﷺ يُكْثر من قول: «سُبحَانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ، أَسْتغفِرُ اللَّهَ وأَتُوبُ إليهِ». قالت: فقلت يا رسول الله، أراكَ تكثر من قول «سُبْحان اللَّهِ وبِحَمْدِه، أستغفر الله وأتوب إليه»؟ فقال: «خَبَّرَنِي رَبِّي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سُبْحان اللَّهِ وبِحَمْدِهِ، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ ـ فتح مكة ـ ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾». وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بِمِنًى في حِجَّة الوداع، ثم نزلت ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣] فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً. ثم نزلت آية الكَلاَلة، فعاش بعدها خمسين يوماً. ثم نزل: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً. ثم نزل ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٨١] فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً. وقال مقاتل سبعة أيام. وقيل غير هذا مما تقدّم في «البقرة» بيانه، والحمد لله.

[٦٥١١] صحيح. أخرجه مسلم ٤٨٤ ح ٢٢٠ بهذا اللفظ من حديث عائشة، وتقدم برقم ٦٥٠٦.

سورة المسد

وهي مكية بإجماع. وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ في الصحيحين وغيرهما ـ واللفظ لمسلم ـ عن ابن عباس قال:

[٦٥١٢] لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ورَهْطَكَ مِنْهُمُ المخلصِين(١) خرج رسول الله ﷺ حتى صَعِد الصَّفا، فهتَفَ: يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه. فقال: «يا بَني فُلان، يا بني فلان، يا بني فُلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبدِ المطلب!» فاجتمعوا إليه. فقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال «فإنِّي نذيرٌ لَكُمْ بينَ يَديّ عَذاب شَدِيد. فقال أبو لهب: تَبّاً لكَ!، أما جمعتنا إلاَّ لهذا! ثم قام، فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة. زاد الحميدي(٢) وغيره: فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وفي يدها فِهر(٣) من حجارة، فلما وقفتْ عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ،

[٦٥١٢] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٧١ ومسلم ٢٠٨ وابن مندة في الإيمان ٩٤٩ و ٩٥٠ والطبري ٣٨٢٦٢ من حديث ابن عباس، وأخرجه بنحوه دون لفظ «ورهطك منهم المخلصين» أحمد والترمذي ٣٣٦٣ والبغوي ٣/٤٠١ و ٤/٥٤٣.

---

(١) قال النووي في شرح مسلم: وظاهر هذه العبارة أن قوله «ورهطك منهم المخلصين» كان قرآناً، ثم نسخت تلاوته.

(٢) هذه الرواية ذكرها ابن هشام في السيرة ١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣ باب ما نزل من القرآن في أبي لهب وامرأته، وذكر نحوه ابن كثير ٤/ ٦٠٤، فقال أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الحميدي بسنده عن أسماء بنت أبي بكر به ا هـ وهو عند الحميدي ١/ ٣٢٣ بهذا اللفظ وحسنه الحافظ في الفتح ٨/ ٦١٠.

(٣) الفِهر ـ بكسر الفاء ـ الحجر ملء الكف.

فلا ترى إلا أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهر فاه، والله إني لشاعرة:

مُـــذَمَّمـــاً عَصَيْنَـــا وأمْـــرَهُ أَبَيْنـــا وَدِينَـــه قَلَيْنَـــا

ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: «ما رأتني، لقد أخذ الله بصرها عني». وكانت قريش إنما تسمي رسول الله ﷺ مُذَمَّماً، يسبونه، وكان يقول: «ألا تعجبون لِما صرف الله عني من أذى قريش، يَسُبّون ويهجون مذمماً وأنا محمد». وقيل: إن سبب نزولها ما حكاه عبد الرحمن[1] بن زيد أن أبا لهب أتى النبيّ ﷺ فقال: ماذا أُعْطَى إن آمنتُ بك يا محمد؟ فقال: «كما يُعْطَى المسلمون» قال ما لي عليهم فضل؟!. قال: «وأيّ شيء تَبْغي؟» قال: تبًا لهذا من دين، أن أكون أنا وهؤلاء سواء؛ فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾. وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان[2] قال: كان إذا وفد على النبيّ ﷺ وفد انطلق إليهم أبو لهب، فيسألونه عن رسول الله ﷺ ويقولون له: أنت أعلم به منا. فيقول لهم أبو لهب: إنه كَذَّاب ساحر. فيرجعون عنه ولا يلْقونه. فأتى وفد، ففعل معهم مثل ذلك، فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، ونسمع كلامه. فقال لهم أبو لهب: إنا لم نزل نعالجه فتبًّا له وتَعْساً. فأُخبِر بذلك رسول الله ﷺ، فاكتأب لذلك؛ فأنزل الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ . . .» السورة. وقيل: إن أبا لهب أراد أن يرمي النبي ﷺ بحجر، فمنعه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾ للمنع الذي وقع به. ومعنى «تَبّتْ»: خَسِرت؛ قاله قتادة. وقيل: خابت؛ قاله ابن عباس. وقيل: ضلّت؛ قاله عطاء. وقيل: هلكت؛ قاله ابن جبير. وقال يمان بن رِئاب: صَفِرت من كل خبر. حكى الأصمعيّ عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قتل عثمان رحمه الله سمع الناس هاتفاً يقول:

لَقَـــدْ خَلَّـــوْكَ وانْصَـــرَفُـــوا فمـــا آبُـــوا ولا رَجَعُـــوا
ولـــم يُـــوفُـــوا بنَـــذْرِهِـــم فَيَـــا تَبًّـــا لِمَـــا صَنَعُـــوا

وخص اليدين بالتباب، لأن العمل أكثر ما يكون بهما؛ أي خسرتا وخسر هو. وقيل: المراد باليدين نفسه. وقد يعبَّر عن النفس باليد. كما قال الله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ

---

(١) هذا القول واهٍ لا حجة فيه،عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث ليس بشيء،ومع ذلك هو معضل. والصواب ما جاء في الصحيحين وتقدم.

(٢) ذكره الماوردي ٦/ ٣٦٤ عن عبد الرحمن بن كيسان، بدون إسناد، وهو مرسل ابن كيسان تابعي، وهو غير مشهور.

﴿يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] أي نفسك. وهذا مَهْيَع[1] كلامِ العرب؛ تعبِّر ببعض الشيء عن كله؛ تقول: أصابته يد الدهر، ويد الرزايا والمنايا؛ أي أصابه كل ذلك. قال الشاعر:

لَمَّـــا أَكَبَّـــتْ يَـــدُ الـــرَّزَايـــا عَلَيْـــهِ نـــــادَى أَلاَ مُجِيـــــرُ

﴿وَتَبَّ ۝١﴾ قال الفرّاء: التبُّ الأول: دعاء والثاني خبر، كما يقال: أهلكه الله وقد هلك. وفي قراءة عبد الله وأبيّ «وَقَدْ تَبَّ». وأبو لهب اسمه عبد العُزَّى، وهو ابن عبد المطلب عمّ النبيّ ﷺ. وامرأته العوراء أم جميل، أخت أبي سفيان بن حرب، وكلاهما، كان شديد العداوة للنبيّ ﷺ. قال طارق بن عبد الله المحاربيّ:

[٦٥١٣] إني بسوق ذي المجَاز، إذ أنا بإنسان يقول: «يا أيها الناس، قولُوا لا إله إلاّ الله تُفْلِحُوا»، وإذا رجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: يا أيها الناس، إنه كذاب فلا تصدقوه. فقلت: مَنْ هذا؟ فقالوا: محمد، زعم أنه نبي. وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب. وروى عطاء عن ابن عباس قال: قال أبو لهب: سَحَرَكم محمد! إن أحدنا ليأكل الجَذَعة[2]، ويشرب العُسّ[3] من اللبن فلا يشبع، وإن محمداً قد أشبعكم من فخِذ شاة، وأرواكم من عُسّ لبن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ قيل: سمي باللَّهب لحسنه، وإشراق وجهه. وقد ظن قوم أن في هذا دليلاً على تكنِية المشرك؛ وهو باطل، وإنما كناه الله بأبي لهب ـ عند العلماء ـ لمعان أربعة: الأول: أنه كان اسمه عبد العزى، والعُزَّى: صنم، ولم يضف الله في كتابه العبودية إلى صنم. الثاني: أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه؛ فصرح بها. الثالث: أن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذا لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يَكْنِ عن أحد منهم. ويدلك على شرف الاسم على الكنية: أن الله تعالى يُسَمَّى ولا يُكنَّى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه؛ واستحالة نسبة الكنية إليه، لتقدّسه عنها. الرابع: أن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته؛ بأن يدخله النار، فيكون أبا لها؛ تحقيقاً للنسب، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه. وقد قيل: اسمه كنيته. فكان أهله يسمونه (أبا لهب)، لتلهب وجهه

[٦٥١٣] تقدم تخريجه.

---

(١) طريق مهيع: واضح واسع بيّن.
(٢) ولد الشاة في السنة الثانية.
(٣) العُسّ ـ بضم العين ـ القدح الكبير.

وحسنه؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا: أبو النُّور، وأبو الضياء، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى (لَهَبٍ) الذي هو مخصوص بالمكروه والمذموم، وهو النار. ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقرّه. وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير وابن مُحَيْصِن. «أَبِي لَهبٍ» بإسكان الهاء. ولم يختلفوا في «ذَاتَ لَهَبٍ» أنها مفتوحة؛ لأنهم راعَوْا فيها رؤوس الآي.

الثالثة: قال ابن عباس: لما خلق الله عز وجل القلم قال له: اكتب ما هو كائن؛ وكان فيما كتب ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾. وقال منصور: سُئِلَ الحسن عن قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ هل كان في أم الكتاب؟ وهل كان أبو لهب يستطيع ألا يَصْلَى النار؟ فقال: والله ما كان يستطيع ألاّ يصلاها، وإنها لفي كتاب الله من قبل أن يُخْلَق أبو لهب وأبواه. ويؤيده قول موسى لآدم:

[٦٥١٤] أنت الذي خلقَكَ اللَّهُ بيده، ونفخ فيك من رُوحه، وأسكنك جَنَّته، وأسْجَدَ لك ملائكته، خَيَّبْتَ الناس، وأَخْرجتهم من الجنة. قال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك بكلامه، وأعطاك التوراة، تَلُومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلق الله السموات والأرض. قال النبيّ ﷺ: «فحجَّ آدمُ مُوسَى»، وقد تقدّم هذا. وفي حديث هَمَّام عن أبي هريرة أن آدم قال لموسى:

[٦٥١٥] «بِكَمْ وجدتَ الله كَتَبَ التوراةَ قبلَ أَنْ يَخْلُقَنِي»؟ قال: «بألفي عام» قال: «فهل وجدت فيها: وعَصَى آدمُ رَبَّهُ فَغَوَى»» قال: «نعم» قال: «أفتلومني على أمر وكتب الله عليّ أن أفعله من قبل أن أخلق بألفي عام». فَحَجَّ آدمُ موسى. وفي حديث طاوُوس وابن هُرْمز والأعرج عن أبي هريرة: «بأربعين عاما».

قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.

أي ما دَفعَ عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه. وقال مجاهد: من الولد؛ ووَلد الرجل من كَسْبه. وقرأ الأعمش «وَمَا اكْتَسَبَ» ورواه عن ابن مسعود. وقال أبو الطُّفَيل: جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ابن عباس، فاقتتلوا، فقام ليحْجُزَ بينهم، فدفعه بعضهم، فوقع على الفِراش، فغضب ابن عباس وقال: أَخرجوا عني الكسبَ الخبيثَ؛ يعني ولده. وعن عائشة رضي الله عنها:

[٦٥١٤] تقدم تخريجه.

[٦٥١٥] تقدم تخريجه.

[٦٥١٦] أن رسول الله ﷺ قال: إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولدي من كسبه». خرّجه أبو داود. وقال ابن عباس: لما أنذر رسول الله ﷺ عشيرته بالنار، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفدي نفسي بمالي وولدي؛ فنزل: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾. و«ما» في قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾: يجوز أن تكون نفياً، ويجوز أن تكون استفهاماً؛ أي أيّ شيء أغنى عنه؟ و«ما» الثانية: يجوز أن تكون بمعنى الذي، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً؛ أي ما أغنى عنه ماله وكسبه.

قوله تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

أي ذات اشتعال وتلهُّب. وقد مضى في سورة «المرسلات» القول فيه. وقراءة العامة: «سَيَصْلَى» بفتح الياء. وقرأ أبو رجاء والأعمش: بضم الياء. ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير، وحسين عن أبي بكر عن عاصم، ورويت عن الحسن. وقرأ أشهب العُقيلي وأبو سَمَّال العَدَوي ومحمد بن السَّمَيْفع «سَيُصَلَّىٰ» بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام؛ ومعناها سَيُصليه الله؛ من قوله: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾ [الواقعة: ٩٤]. والثانية من الإصلاء؛ أي يصليه الله؛ من قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٣٠]. والأولَى هي الاختيار؛ لإجماع الناس عليها؛ وهي من قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٦٣﴾ [الصافات: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ أم جميل. وقال ابن العربيّ: العوراء أم قبيح، وكانت عَوْراء. ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾[1] قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدّيّ: كانت تمشي بالنميمة بين الناس؛ تقول العرب: فلان يَحْطِب على فلان: إذا وَرَّشَ عليه[2]. قال الشاعر:

إن بنـي الأَدْرَمِ حَمَّـالـو الحَطَـبْ ... هُمْ الوُشاةُ في الرِّضَا وفي الغَضَبْ
عَلَيـهِـمُ اللَّعـنَـةُ تَتْـرَى والْحَـرَب

وقال آخر:

مِنَ البِيض لَمْ تُصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لأمَة ... ولَم تَمْشِ بينَ الحيّ بالحَطَبِ الرطْبِ

[٦٥١٦] مضىٰ تخريجه.

---

(١) بالرفع قراءة نافع، وهي قراءة المصنف.

(٢) التوريش: التحريش.

يعني: لم تمش بالنمائم، وجعل الحطب رطْباً ليدل على التدخين، الذي هو زيادة في الشرّ. وقال أكثم بن صَيْفِيّ لبنيه: إياكُمْ والنَّميمة! فإنها نارٌ مُحْرِقَة، وإنّ النمَّام ليَعْمل في ساعة ما لا يَعْمَل الساحر في شهر. أخذه بعض الشعراء فقال:

إنَّ النميمـةَ نـارٌ وَيْـك مُحْـرِقَـةٌ ... فَفِرَّ عَنها وجانِبْ مَنْ تَعاطَاهَا

ولذلك قيل: نار الحقد لا تخبو. وثَبَتَ عن النبيّ ﷺ:

[٦٥١٧] «لا يَدْخُلُ الجنة نَمَّام». وقال:

[٦٥١٨] «ذُو الوَجْهَين لا يكون عند الله وجيهاً». وقال عليه الصلاة والسلام:

[٦٥١٩] «مِنْ شَرّ الناسِ ذُو الوَجْهَيْنِ: الَّذِي يَأْتِي هٰؤُلاءِ بوَجْهٍ، وهٰؤُلاءِ بِوَجْهٍ». وقال كعب الأحبار: أصاب بني إسرائيل قحط، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاث مرات يَسْتَسْقُون فلم يُسْقَوا. فقال موسى: إلهي عبادُك فأوحى الله إليه: إني لا أستجيب لك ولا لمن معك، لأن فيهم رجلاً نماماً، قد أَصَرَّ على النميمة. فقال موسى: يا رَبِّ مَنْ هُوَ حتّى نخرجه من بيننا»؟ فقال: «يا موسى، أنهاك عن النميمةِ وأكونَ نماماً»[1] قال: فتابوا بأجمعهم، فسُقوا. والنميمة من الكبائر، لا خلاف في ذلك؛ حتى قال الفُضَيل بن عِياض: ثلاث تهدّ العمل الصالح ويُفْطِرن الصائم، وينقُضْن الوضوء: الغِيبة، والنميمة، والكذب. وقال عطاء بن السائب: ذكرت للشعبيّ قول النبيّ ﷺ:

[٦٥٢٠] «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ سافكُ دم، ولا مَشاء بنميمة، ولا تاجر يُرْبِي» فقلت: يا أبا عمرو، قَرَن النمام بالقاتل وآكل الربا؟ فقال: وهل تسفك الدماء، وتنتهب الأموال، وتهيج الأمور العظام، إلا من أجل النميمة.

وقال قتادة وغيره: كانت تُعَيِّر رسول الله ﷺ بالفقر. ثم كانت مع كثرة مالها تحمل

[٦٥١٧] مضىٰ تخريجه.

[٦٥١٨] هو عند البخاري في الأدب المفرد ٣١٣ والبيهقي في الشعب ٤٨٨٠ وفي السنن ١٠/ ٢٤٦ وأحمد ٢/ ٣٦٥ من حديث أبي هريرة بلفظ «لا ينبغي لذي الوجهين، أن يكون أميناً عند الله» وإسناده لا بأس به، وله شواهد.

[٦٥١٩] صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٥٨ و ٧١٧٩ ومسلم ص ٢٠١١ ح ٩٨ و ٩٩ ومالك ٢/ ٩٩١ وأحمد ٢/ ٤٦٥ وأبو ادود ٤٨٧٢ والترمذي ٢٠٢٥ كلهم من حديث أبي هريرة.

[٦٥٢٠] لم أره مسنداً، وعطاء بن السائب صدوق إلا أنه اختلط بآخرة. ولفظ النميمة، له شواهد في الصحيح. وأما القاتل، فإن كان عمداً لاخطأً، فيدل عليه قوله تعالىٰ ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها..﴾ الآية.

---

(١) هذا الأثر من إسرائيليات كعب الأحبار.

الحطب على ظهرها؛ لشدة بخلها، فعُيِّرَتْ بالبخل. وقال ابن زيد والضحاك: كانت تحمل العِضاه والشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبيّ ﷺ وأصحابه؛ وقاله ابن عباس. قال الربيع: فكان النبيّ ﷺ يطؤه كما يطأُ الحرير. وقال مُرَّة الهَمْدَانيّ: كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة[1] من الحَسَك[2]، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذات يوم حُزْمة أَعْيَتْ، فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها المَلَكَ من خلفها فأهكلها. وقال سعيد بن جُبير: حمالة الخطايا والذنوب؛ من قولهم: فلا يحتطب على ظهره؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]. وقيل: المعنى حمالة الحطب في النار؛ وفيه بُعْد. وقراءة العامة «حمَّالَةُ» بالرفع، على أن يكون خبراً «وامرأته» مبتدأ. ويكون في «جِيدِها حبلٌ من مَسَدِ» جملة في موضع الحال من المضمر في «حَمّالة». أو خبراً ثانياً. أو يكون «حمالة الحطب» نعتاً لامرأته. والخبر ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾؛ فيوقف على هذا على «ذَاتَ لَهَبٍ». ويجوز أن يكون «وامرأته» معطوفة على المضمر في «سَيَصْلَى» فلا يوقف على «ذَاتَ لَهَبٍ» ويوقف على «وامْرَأَته» وتكون «حَمَّالة الحَطَبَ» خبر ابتداء محذوف. وقرأ عاصم «حمالة الحَطَب» بالنصب على الذم، كأنها اشتهرتْ بذلك، فجاءت الصفة للذم لا للتخصيص، كقوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [الأحزاب: ٦١]. وقرأ أبو قِلابة «حامِلَةَ الحَطَب».

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي عنقِها. وقال امرؤ القيس:

وجِيدٍ كجِيدِ الرِّيم لَيْسَ بفاحشٍ ... إذَا هِـي نَصَّتْـهُ ولاَ بِمُعَطَّـلِ[3]

﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾ أي من لِيف؛ قال النابغة:

مَقْذُوفةٍ بدَخِيسِ النَّحْضِ بازِلُها ... له صَرِيفٌ صَرِيفُ القَعْوِ بالمَسَدِ[4]

وقال آخر:

يـا مَسَـدَ الخُـوصِ تَعَـوَّذْ مِنِّـي ... إنْ كُنْـتُ لَـدْنـاً ليِّنـاً فـإنِّـي
مـا شِـئْـتَ مِـنْ أَشْمَـطَ مُقْسئِنِّ[5]

---

(١) الإبالة: الحزمة الكبيرة.
(٢) نبات له ثمرة ذات شوك.
(٣) الريم: الظبي الأبيض. نصّته: رفعته. المعطل: الذي لا حلي عليه.
(٤) الدخيس: الذي دخل بعضه ببعض. النحض: اللحم. البازل: الكبير. الصريف: الصياح.
(٥) الأشمط: من خالط بياض رأسه سواده. والمقسئن: الذي قد انتهىٰ في سنه.

وقد يكون من جلود الإبل، أو من أوبارها؛ قال الشاعر:

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيانِقِ لَسْنَ بِأَنْيابٍ ولاَ حَقَائِقِ[1]

وجمع الجيد أجياد، والمسدِ أمساد. أبو عبيدة: هو حَبْل يكون من صوف. قال الحسن: هي حبال من شجر تَنبتُ باليمن تسمى المَسَد، وكانت تُفْتل. قال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا؛ فكانت تُعَيِّر النبيّ ﷺ بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف، فخنقها الله جل وعزّ به فأهلكها؛ وهو في الآخرة حبْل من نار. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ قال: سلسلة ذرْعُها سبعون ذراعاً ـ وقاله مجاهد وعروة بن الزبير: تَدْخُل مِنْ فيها، وتَخْرُج من أسفلها، ويُلْوَى سائِرها على عنقها. وقال قتادة. «حبْل مِن مَسَدٍ» قال: قِلادة من وَدَع. الوَدَع: خرز بيض تخرج من البحر، تتفاوت في الصغر والكبر. قال الشاعر:

والحِلم حِلْمُ صبِيٍّ يَمْرِث[2] الوَدَعَهْ

والجمع: وَدَعات. الحسن: إنما كان خَرَزاً في عنقها. سعيد بن المسيب: كانت لها قِلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللاتِ والعُزَّى لأنفِقنها في عداوة محمد. ويكون ذلك عذاباً في جيدها يوم القيامة. وقيل: إن ذلك إشارة إلى الخِذلان؛ يعني أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء، كالمربوط في جيده بحبل من مسد. والمَسَد: الفتل. يقال: مَسَد حَبْلَه يَمْسِده مَسْداً؛ أي أجاد فتله. قال[3]:

يَمْسِد أَعْلَى لحمِهِ ويأرِمُهْ

يقول: إن البقل يقوّي ظهر هذا الحمار ويشدّه. ودابة مَمْسودة الخَلْق: إذا كانت شديدة الأَسْر[4]. قال الشاعر:

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ صُهْبٍ عِتَاقٍ ذاتِ مُخٍّ زاهِقِ
لَسْنَ بأنيابٍ ولاَ حَقَائِقِ[5]

ويروى:

ولا ضعافٍ مُخُّهنَّ زاهِقِ

---

(١) أمر الحبل: فتله. الأينق: جمع ناقة.
(٢) مرث الودعَ: مصه.
(٣) هو رؤبة.
(٤) الأَسْرُ: الخَلْقُ.
(٥) تقدم شرحه آنفاً.

قال الفراء: هو مرفوع والشعر مُكْفأ[١]. يقول: بل مخهن مكتنِز؛ رفعه على الابتداء. قال: ولا يجوز أن يريد ولا ضعافٍ زاهقٍ مخهنّ. كما لا يجوز أن تقول: مررت برجل أبوه قائم؛ بالخفض. وقال غيره: الزاهق هنا: بمعنى الذاهب؛ كأنه قال: ولا ضعافٌ مُخَّهُنَّ، ثم ردّ الزاهق. على الضعاف. ورجل ممسود: أي مجدول الخلق. وجارية حسنة المَسْد والعَصْبِ والجَدْلِ والأَرْم[٢]؛ وهي ممسودة ومعصوبة ومجدولة ومَأرومة. والمِساد، على فِعال: لغة في المِسَاب، وهي نِحى السمن، وسِقاء العسل. قال جميعه الجوهريّ. وقد اعتُرِض فقيل: إن كان ذلك حبلها الذي تحتطب به، فكيفَ يبقى في النار؟ وأجيب عنه بأن الله عزّ وجلّ قادر على تجديده كلما احترق. والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار مشروط ببقائهما على الكفر إلى الموافاة؛ فلما ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما. ففيه معجزة للنبيّ ﷺ. فامرأته خنقها الله بحبلها، وأبو لهب رماه الله بالعَدَسة[٣] بعد وقعة بدر بسبع ليال، بعد أن شَجَّتْه أمّ الفضل[٤]. وذلك أنه لما قدم الحَيْسُمانُ مكةَ يخبر خبر بدر، قال له أبو لهب: أَخْبرني خبر الناس. قال: نعم، والله ما هو إلا أَن لقِينا القوم، فمنحناهم أكتافنا، يضعون السلاح منا حيث شاؤوا، ومع ذلك ما لَمسْتُ الناس. لقِينا رجالاً بِيضاً على خيل بُلْق، لا والله ما تُبْقِي منا؛ يقول: ما تُبْقِي شيئاً. قال أبو رافع: وكنت غلاماً للعباس أَنحِت الأَقداح في صُفَّةِ زمزم، وعندي أمّ الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، فرفعت طُنُبَ الحجرة، فقلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب وجهي ضَرْبة مُنْكرة، وثَاوَرْتُهُ[٥]، وكنت رجلاً ضعيفاً، فاحتملني، فضرب بي الأرض، وبَرَكَ على صدري يضْربني. وتقدّمت أمّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحُجْرة، فتأخذه وتقول: استضعفتَه أن غاب عنه سيده! وتضربه بالعمود على رأسه فتفلِقُه شَجَّةٌ مُنْكَرة. فقام يجر رجليه ذليلاً، ورماه الله بالعَدَسة، فمات، وأقام ثلاثة أيام لم يُدْفن حتى أنتن؛ ثم إن ولده غَسّلوه بالماء، قَذْفاً من بعيد، مخافة عَدْوَى العَدَسة. وكانت قريشٌ تَتَّقيها كما يُتَّقَى الطاعون. ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدار، ثم رَضموا[٦] عليه الحجارة.

---

(١) الإكفاء في الشعر: المخالفة بين ضروب إعراب قوافيه.

(٢) الأرم: مجدولة الخلق.

(٣) بثرة تخرج في البدن تؤدي إلىٰ الموت.

(٤) هي لبابة الكبرىٰ بنت الحارث الهلالية.

(٥) المثاورة: المواثبة.

(٦) رضموا: أي جعلوا الحجارة بعضها علىٰ بعض.

سورة الإخلاص

مكّية؛ في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر. ومدنية؛ في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسُّدّي. وهي أربع آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أي الواحد الوِتر، الذي لا شبيه له، ولا نظير ولا صاحبة، ولا ولد ولا شريك. وأصل «أَحَدٌ»: وَحَدٌ؛ قُلِبت الواو همزة. ومنه قول النابغة:

بِذِي الجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ

وقد تقدّم في سورة «البقرة» الفرق بين واحِد وأَحَدٍ، وفي كتاب «الأَسْنَى، في شرح أسماء الله الحسنى» أيضاً مُسْتَوفًى. والحمدُ لله. و﴿أَحَدٌ ۝١﴾ مرفوع، على معنى: هو أَحدٌ. وقيل: المعنى: قل: الأمرُ والشأن: اللَّهُ أَحَد. وقيل: «أَحَد» بدل من قوله: «الله». وقرأ جماعة «أَحَد اللَّهُ» بلا تنوين، طلباً للخفة، وفراراً مِن التقاء الساكنين؛ ومنه قول الشاعر[1]:

ولا ذاكرَ اللَّهَ إلاّ قَلِيلاَ

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ أي الذي يُصْمَد إليه في الحاجات. كذا رَوَى الضحاك عن ابن عباس، قال: الذي يُصْمَد إليه في الحاجات؛ كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾ [النحل: ٥٣]. قال أهل اللغة: الصمد: السيد الذي يُصْمد إليه في النوازل والجوائح[2]. قال:

أَلاَ بَكَّر الناعِي بِخيرِ بنِي أَسَدْ ... بعمرِو بن مَسْعُودٍ بالسيدِ الصَّمَد

(١) عجز بيت للدؤلي وصدره «وألفته غير مستعتب».

(٢) الجوائح: جمع جائحة: الشدة.

وقال قوم: الصَّمَدُ: الدائم الباقي، الذي لم يزل ولا يزال. وقيل: تفسيره ما بعده ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾. قال أُبَيُّ بنُ كَعْب: الصَّمَدُ: الذي لا يلِدُ ولا يُولَد؛ لأنه ليس شيء إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا يُورث. وقال عليّ وابن عباس أيضاً وأبو وائل شقِيق بن سلمة وسفيان: الصَّمَد: هو السيد الذي قد انتهى سُودَدُه في أنواع الشرف والسُّودَد؛ ومنه قول الشاعر:

عَلَـوتُـهُ بحُسـامٍ ثُـمَّ قُلْـتُ لَـهُ ... خُذْهَا حُذَيفَ فأنتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال أبو هريرة: إنه المستغنِي عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقال السدّيّ: إنه المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب. وقال الحسين بن الفضل: إنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مقاتل: إنه: الكامل الذي لا عيب فيه؛ ومنه قول الزبرِقان:

سِيروا جميعاً بِنِصفِ الليلِ واعتمِدُوا ... ولا رَهِينـةَ إلاّ سَيِّـدٌ صَمَـدُ

وقال الحسن وعِكرمة والضحاك وابن جُبير: الصَّمَد: المُصْمَتُ الَّذي لا جَوْف له؛ قال الشاعر:

شِهـابُ حُـرُوبٍ لا تَـزالُ جِيـادُه ... عَوَابِسَ يَعْلُكْن الشكِيمَ المُصَمَّدا[1]

قلت: قد أتينا على هذه الأقوال مبينة في الصَّمَد، في (كتاب الأسنَى) وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق؛ وهو القول الأوّل، ذكره الخَطَّابي. وقد أسقط مِن هذه السورة من أبعده الله وأخزاه، وجعل النار مقامه ومثواه، وقرأ «اللَّهُ الواحدُ الصَّمَدُ» في الصلاة، والناس يستمعون، فأَسْقَط: «قُلْ هو»، وزعم أنه ليس من القرآن. وغيَّر لفظ «أَحَدٍ»، وادعى أن هذا هو الصواب، والذي عليه الناس هو الباطل والمحال؛ فأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا[2]: نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله ﷺ: صِفْ لَنَا رَبَّك، أمِن ذهب هو أم مِن نحاس أم مِن صُفْر؟ فقال الله عز وجل رداً عليهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ففي «هُوَ» دلالة على موضع الردّ، ومكان الجواب، فإذا سقط بطل معنى الآية، وصح الافتراء على الله عز وجل، والتكذيب لرسوله ﷺ. ورَوى الترمذي عن أُبيّ بن كعب:

[٦٥٢١] أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انْسُبْ لنا ربك؛ فأنزل الله عز وجل:

[٦٥٢١] أخرجه الترمذي ٣٣٦٤ وأحمد ٥/ ١٣٤ والحاكم ٢/ ٥٤٠ والواحدي ٨٨٠ من حديث أبي العالية=

---

(١) علكت الدابة اللجام: لاكته. والشكيم والشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس.

(٢) هذا القول عزاه الواحدي ٨٧٩ لقتادة، والضحاك، ومقاتل. وانظر ما بعده.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ . والصَّمَد: الذي لم يلد ولم يُولَد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾: قال: لم يكن له شبيه ولا عدْل، وليس كمثله شيء[1]. ورُوِي عن أبي العالية: إن النبيّ ﷺ ذكر آلهتهم فقالوا: انْسُب لنا ربّك. قال: فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أُبيّ بن كعب، وهذا أصح؛ قاله الترمذيّ.

قلت: ففي هذا الحديث إثبات لفظ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وتفسير الصَّمَد، وقد تقدّم. وعن عكرمة نحوه. وقال ابن عباس: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما وَلَدَتْ مَرْيَم، ولم يُولد كما وُلِدَ عيسى وعُزَيرٌ. وهو رد على النصارى، وعلى من قال: عُزيرٌ ابن الله. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ أي لم يكن له مِثلاً أحد. وفيه تقديم وتأخير؛ تقديره: ولم يكن له كفواً أحد؛ فقدّم خبر كان على اسمها، لينساقَ أواخرُ الآي على نظم واحد. وقرِىء «كُفُواً» بضم الفاء وسكونها. وقد تقدّم في «البقرة» أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم، فإنه يجوز في عينه الضم والإسكان؛ إلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] لِعلة تقدّمت. وقرأ حفص «كفواً» مضموم الفاء غير مهموز. وكلها لغات فصيحة.

القول في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة؛ وفيه ثلاث مسائل:

الأولى: ثبت في صحيح البخاريّ عن أبي سعيد الخُدْريّ:

[٦٥٢٢] أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يردّدها؛ فلما أصبح جاء إلى النبيّ ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يَتقالُّها؛ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثُلُثَ القُرْآن». وعنه قال:

= عن أبي بن كعب به، وصححه الحاكم! ووافقه الذهبي! مع أن مداره على أبي جعفر الرازي، وقد وثقه يحيى، وقال أحمد والنسائي: ليس بالقوي. وقال الفلاس: سَيّىء الحفظ، وجرحه ابن حبان، وقد رجح الترمذي المرسل، حيث أخرجه برقم ٣٣٦٥ عن أبي العالية مرسلاً مختصراً وقال: وهذا أصح اهـ ولصدره، راجع تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٥ وبكل حال التفسير من كلام أُبي بن كعب.

[٦٥٢٢] صحيح. أخرجه البخاري ٥٠١٣ و ٦٦٤٣ و ٧٣٧٤ ومالك ١/ ٢٠٨ وأحمد ٣/ ٣٥ وأبو داود ١٤٦١ والنسائي ٢/ ١٧١ وابن حبان ٧٩١ كلهم من حديث أبي سعيد.

---

(١) إلى هنا الحديث المرفوع. وما بعده مرسل أبي العالية وتقدم تخريجه.

[٦٥٢٣] قال النبيّ ﷺ لأصحابه: «أيعجِز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة» فشَقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطِيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «اللَّهُ الواحدُ[1] الصَّمد ثُلُثُ القرآن» خرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بمعناه. وخرج عن أبي هريرة قال:

[٦٥٢٤] قال رسول الله ﷺ: «احْشدوا فإني سأقرأ عليكُم ثلثَ القُرْآن»، فحشدَ مَنْ حَشَدَ؛ ثم خرج نبيّ الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله. ثم خرج فقال: «إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألاَ إنّها تَعْدِل ثلثَ القرآن» قال بعض العلماء: إنها عَدَلَت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم، الذي هو «الصَّمَد»، فإنه لا يوجد في غيرها من السُّور. وكذلك «أَحَدٌ». وقيل: إن القرآن أنزل أثلاثاً، ثلثاً منه أحكام، وثلثاً منه وعد ووعيد، وثلثاً منه أسماء وصفات؛ وقد جمعت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أحَـد الأثلاث، وهو الأسماء والصّفات. ودل على هذا التأويل ما في صحيح مسلم، من حديث أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ، قال:

[٦٥٢٥] «إن الله جلّ وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جزءاً من أجزاء القرآن». وهذا نَصٌّ؛ وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص، والله أعلم.

الثانية: روى مسلم عن عائشة:

[٦٥٢٦] أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سَرِية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «سَلُوهُ لأيِّ شَيء يصْنع ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحِبُّ أن أقرأ بها. فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أن الله عز وجل يحبه». وروى الترمذيّ عن أنس بن مالك قال:

[٦٥٢٧] كان رجل من الأنصار يؤمّهم في مسجد قُباء، وكان كلما افتتح سورة

[٦٥٢٣] صحيح. أخرجه البخاري ٥٠١٥ وابن الضريس في «فضائل القرآن» ٢٥٦ من حديث أبي سعيد. وورد من حديث أبي الدرداء أخرجه مسلم ٨١١ وابن الضريس ٢٥٢. وله شواهد أخرىٰ.

[٦٥٢٤] صحيح. أخرجه مسلم ٨١٢ والترمذي ٢٩٠٢ وابن الضريس ٢٥٨ من حديث أبي هريرة.

[٦٥٢٥] صحيح. أخرجه مسلم ٨١١ ح ٢٦٠ من حديث أبي الدرداء وتقدم آنفاً.

[٦٥٢٦] صحيح. أخرجه البخاري ٧٣٧٥ ومسلم ٨١٣ والنسائي ٢/ ١٧١ من حديث عائشة.

[٦٥٢٧] أخرجه الترمذي ٢٩٠١ والبيهقي ٢/ ٦١ وعلقه البخاري ٧٧٤ من حديث أنس، وقال الترمذي حسن غريب صحيح اهـ وانظر ما قاله الحافظ في الفتح ٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨ حول إسناده وهو عند=

---

(١) كناية عن «قل هو الله أحد» قاله البِدر العيني في شرح صحيح البخاري.

يقرؤها لهم في الصلاة فقرأ بها، افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة؛ فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تَجْزيك حتى تقرأ بسُورة أخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى؟ قال: ما أنا بتاركها وإن أحببتم أن أؤمّكم بها فعلت، وإن كرهتم تركتكم؛ وكانوا يرونه أفضلهم، وكرهوا أن يؤمّهم غيره؛ فلما أتاهم النبيّ ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة»؟ فقال: يا رسول الله، إني أحبها؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ حُبَّها أدْخَلَكَ الجَنَّة» قال: حديث حسن غريب صحيح. قال ابن العربيّ: «فكان هذا دليلا على أنه يجوز تكرار سورة في كل ركعة. وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه، إماماً من جملة الثمانية والعشرين إماماً، كان يصلي فيه التراويح في رمضان بالأتراك؛ فيقرأ في كل ركعة «الحمد لله» و«قل هو الله أحد» حتى يتِم التراويح؛ تخفيفاً عليه، ورغبة في فضلها وليس من السنة ختم القرآن في رمضان».

قلت: هذا نص قولِ مالك، قال مالك: وليس ختم القرآن في المساجد بسنة.

الثالثة: روى الترمذيّ عن [أبي هريرة][(1)] قال:

[٦٥٢٨] أقبلت مع النبيّ ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة». قال: هذا حديث حسن صحيح. قال الترمذي: حدّثنا محمد بن مرزوق البصريّ قال حدّثنا حاتم بن ميمون أبو سهل عن ثابت البُنَانِيّ عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال:

[٦٥٢٩] «من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد، مُحِيَ عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين». وبهذا الإسناد[(2)] عن النبيّ ﷺ قال: «من أراد أن ينام على

= أحمد ٣/ ١٤١ والدارمي ٢/ ٤٦٠ مختصر، وصححه ابن حبان ٧٩٢ وانظر الإحسان ٣/ ٧٢ ـ ٧٤ وصحح شيخنا الأرناؤط في جامع الأصول ٨/ ٤٨٩ اللفظ المختصر، والله أعلم.

[٦٥٢٨] صحيح. أخرجه مالك ١/ ٢٠٨ والترمذي ٢٨٩٧ والنسائي ٢/ ١٧١ وفي الكبرى ١٠٦٦ من حديث أبي هريرة وإسناده صحيح وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. راجع جامع الأصول ٨/ ٦٢٦٩.

[٦٥٢٩] باطل. أخرجه الترمذي ٢٨٩٨ وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٢٧١ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢/ ٢٤٤ من حديث أنس، وضعفه الترمذي بقوله: حديث غريب. وقال ابن حبان=

---

(١) وقع في كافة نسخ الأصل «أنس بن مالك» والتصويب عن كتب التخريج المتقدمة.

(٢) هكذا ساقه الترمذي مع ما قبله، والإسناد واحد، فالخبر أيضاً باطل.

فراشه، فنام على يمينه، ثم قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مائة مرة، فإذا كان يومَ القيامة يقول الرب: يا عبدي، ادخل على يمينك الجنة». قال: هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس. وفي مسند أبي محمد الدارميّ، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦٥٣٠] «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ خمسين مرة، غفرت له ذنوب خمسين سنة» قال: وحدّثنا عبد الله بن يزيد قال: حدّثنا حَيْوة قال: أخبرني أبو عَقيل: أنه سمع سعيد بن المسيب يقول:

[٦٥٣١] إن نبيّ الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ عشر مرات بُنِي له قصر في الجنة. ومن قرأها عشرين مرة بُنِي له بها قصران في الجنة. ومن قرأها ثلاثين مرة بُنِي له بها ثلاثة قصور في الجنة. فقال عمر بن الخطاب: واللَّهِ يا رسول الله إذاً لَنُكْثِرَنّ قصورنا؛ فقال رسول الله ﷺ: الله أوسع من ذلك» قال أبو محمد[1]: أبو عقيل زُهْرة بن معبد، وزعموا أنه كان من الأبدال. وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦٥٣٢] «مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في مرضه الذي يموت فيه، لم يفْتَن في

= حاتم بن ميمون: منكر الحديث لا يجوز الاحتجاج به بحال. ووافقه ابن الجوزي، وحكم بوضعه. وقد اضطرب حاتم فيه، ففي رواية ابن حبان وابن الجوزي «كتب الله له ألفاً، وخمسمائة حسنة» بدل «محيت عنه ذنوب خمسين سنة» والحديث باطل بكل حال، وما فيه من المبالغة دليل على ذلك، والله أعلم.

[٦٥٣٠] باطل. أخرجه الدارمي ٢/٤٦١ برقم ٣٣١٣ من حديث أنس، وفيه محمد الوطاء عن أم كثير الأنصارية وكلاهما لا يعرف. وقد ضعفه ابن كثير ٤/٦٠٨ إلا أن المتن فيه مبالغة، تدل على بطلانه، والله أعلم.

[٦٥٣١] أخرجه الدارمي ٢/٤٥٩ برقم ٣٣٠٥ عن ابن المسيب مرسلاً وقال ابن كثير في تفسيره ٤/٦٠٨: هذا مرسل جيد اهـ قلت: علته فقط الإرسال، والمرسل ضعيف عند المحدثين وجماهير العلماء. وله شواهد أخرجه أحمد ٣/٤٣٧ والطبراني ٢٠/١٨٣ من حديث معاذ بن أنس، وفيه رشدين بن سعد وزبّان بن فائد، وكلاهما ضعيف، والمتن غريب، ولم يصح حديث في تكرار سورة ـ مّا ـ مرات يومياً.

[٦٥٣٢] منكر. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٢/٢١٣ من حديث عبد الله بن الشخير، وفي إسناده نصر بن حماد، قال النسائي وغيره: ليس بثقة، راجع الميزان ٤/٢٥٠ وضعفه الحافظ في التقريب وقال: وأفرط الأزدي فاتهمه بوضع الحديث اهـ قلت: وهذا المتن مع ضعف إسناده منكر. وانظر المجمع ٧/١١٥٣٧.

---

(١) هو الإمام الدارمي عبد الله بن بهرام.

قبره. وأمن من ضغطةِ القبر. وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها، حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة». قال: هذا حديث غريب من حديث يزيد، تفرد به نصر بن حماد البَجَليّ. وذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبي فاطمة الرازي قَال سمعت مالك بن أنس يقول: إذا نُقِس بالناقوس اشتدّ غضب الرحمن، فتنزل الملائكة، فيأخذون بأقطار الأرض، فلا يزالون يقرؤون ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ حتى يسكُن غضبُه جل وعز. وخَرّج من حديث محمد بن خالد الجَنَدِيّ عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦٥٣٣] «من دخل يوم الجمعة المسجد، فصلى أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ خمسين مرة فذلك مائتا مرة في أربع ركعات، لم يَمُتْ حتى يرى منزله في الجنة أو يُرَى له». وقال أبو عُمر مولى جرير بن عبد الله البجلِيّ، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦٥٣٤] «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ حين يدخل منزله، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزِل وعن الجيران». وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦٥٣٥] «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مرة بورِك عليه، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه، ومن قرأها اثنتي عشرة بنى الله له اثني عشر قصراً في الجنة، وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا، فإن قرأها مائة مرة كفّر الله عنه ذنوب خمسين سنة، ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها أربعمائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة، ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها أربعمائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة، فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه في الجنة أو يرى له». وعن سهل بن سعد الساعديّ قال:

[٦٥٣٦] شكا رجل إلى رسول الله ﷺ الفقر وضيق المعيشة؛ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا دخلتَ البيت فسلِّمْ إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلم

[٦٥٣٣] إسناده ضعيف لضعف محمد بن خالد الجندي، قال الأزدي: منكر الحديث، وقال الحاكم: مجهول اهـ والمتن موضوع على مالك.

[٦٥٣٤] ضعيف جداً، أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤١٩ من حديث جرير بن عبد الله، وقال ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥٦٩: إسناده ضعيف اهـ قلت: فيه مروان بن سالم: وهو متروك متهم، والمتن منكر.

[٦٥٣٥] موضوع. ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٠٩ ونسبه للحافظ أبي محمد الحسن بن أحمد السمرقندي من حديث أنس، ولم أقف على إسناده. والمتن باطل، أمارة الوضع لائحة عليه.

[٦٥٣٦] لم أجده، وهو شبه موضوع، وذكره الذهبي في «الميزان» ٥٨١ من حديث أنس بمعناه، وحكم بأنه كذب.

عليّ، واقرأ «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾» مرة واحدة» ففعل الرجل فأدرّ الله عليه الرزق، حتى أفاض على[1] جيرانه. وقال أنس:

[٦٥٣٧] كنا مع رسول الله ﷺ بتَبُوكَ، فطلعت الشمس بيضاء لها شعاع ونور، لم أرها فيما مضى طلعت قط كذلك، فأتى جبريل، فقال له رسول الله ﷺ: «يا جبريلُ، ما لي أرى الشمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط»؟ فقال: «ذلك لأن معاوية بن معاوية الليثي توفي بالمدينة اليوم، فبعث الله سبعين ألف ملك يُصَلُّون عليه». قال: «ومِمّ ذلك»؟ قال: «كان يكثر قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ آناء الليل وآناء النهار، وفي ممشاه وقيامه وقعوده، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض، فتصلي عليه»؟ قال: «نعم» فصلى عليه، ثم رجع. ذكره الثعلبي، والله أعلم.

تفسير سورة الفلق

وهي مكية؛ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنية؛ في أحد قولي ابن عباس وقتادة. وهي خمس آيات.

وهذه السورة وسورة «الناس» و«الإخلاص»: تعوّذ بهنّ رسول الله ﷺ حين سحرته اليهود؛ على ما يأتي. وقيل: إن المُعَوِّذَتَيْن كان يقال لهما المقشقِشتان؛ أي تُبْرئان من النفاق. وقد تقدم. وزعم ابن مسعود أنهما دعاء تَعوّذ به، وليستا من القرآن؛ خالف به الإجماع من الصحابة وأهل البيت. قال ابن قتيبة: لم يكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه المعوذتين؛ لأنه كان يسمع رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ بهما؛ فقدّر أنهما بمنزلة: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامّة. قال أبو بكر الأنباريّ: وهذا مردود على ابن قتيبة؛ لأن المعوذتين من كلام رب العالمين، المعجز لجميع المخلوقين؛ و«أعيذكما بكلمات الله التامة» من قول

[٦٥٣٧] أخرجه البيهقي في الدلائل ٥/٢٤٥ وابن الضريّس في فضائل القرآن ٢٧٣ من حديث أنس وإسناده ضعيف جداً فيه العلاء بن زيدل متروك واتهمه علي المديني بالكذب وذكره الذهبي في ميزانه بهذا الحديث ونقل عن ابن حبان أنه منكر، وأخرجه ابن الضريس ٢٧٢ عن سعيد بن المسيب مرسلاً ومع إرساله فيه علي بن زيد واهٍ. لكن له شواهد أخرىٰ، راجع «الدر المنثور» ٦/٧٠٦ـ٧٠٨.

---

(١) في الأصل «عليه».

البشر بَيِّن. وكلام الخالق الذي هو آية لمحمد ﷺ خاتم النبيين، وحجة له باقية على جميع الكافرين، لا يلتبس بكلام الآدميين، على مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان، العالم باللغة، العارف بأجناس الكلام، وأفانين القول. وقال بعض الناس: لم يكتب عبد الله المعوّذتين لأنه أمن عليهما من النسيان، فأسقطهما وهو يحفظهما؛ كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه، وما يُشَكُّ في حفظه وإتقانه لها. فردّ هذا القول على قائله، واحتج عليه بأنه قد كتب: «إذا جاء نصر الله والفتح»، و«إنا أعطيناك الكوثر»، و«قل هو الله أحد» وهن يجرين مجرى المعوذتين في أنهن غير طوال، والحفظ إليهن أسرع، ونسيانُهن مأمون، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب؛ إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها. وسبيل كل ركعة أن تكون المقدَّمة فيها قبل ما يُقْرأ من بعدها، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف، على معنى الثقة ببقاء حفظها، والأمن من نسيانها، صحيح، وليس من السور ما يجري في هذا المعنى مجراها، ولا يُسْلك به طريقها. وقد مضى هذا المعنى في سورة «الفاتحة». والحمد لله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

فيه تسع مسائل:

الأولى: روى النسائيّ عن عقبة بن عامر، قال:

[٦٥٣٨] أتيت النبي ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه، فقلت: أقرئني سورة هُودٍ أقرئني سورة يوسف. فقال لي: «ولَنْ تَقْرأ شيئاً أبلغ عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾». وعنه قال:

[٦٥٣٩] بينا أنا أسير مع النبيّ ﷺ بين الجحْفَة والأَبواءِ، إذ غشتنا ريح مظلمة

[٦٥٣٨] أخرجه أبو داود ١٤٦٣ واللفظ له، والنسائي ٨/ ٢٥٤ والدارمي ٢/ ٤٦١ برقم ٣٣١٤ وابن الضريس في «فضائل القرآن» ٢٨٢ من حديث عقبة بن عامر وإسناده النسائي حسن صحيح رجاله كلهم ثقات.

[٦٥٣٩] أخرجه النسائي ٨/ ٢٥١ وفي «الكبرى» ٧٨٤٦ من حديث عقبة بن عامر وهو صحيح لمجيئه من عدة طرق معظمها حسان.

شديدة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوّذ بـ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ويقول: «يا عقبة، تعوّذ بهما، فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما». قال: وسمعته يقرأ بهما في الصلاة. وروى النَّسائي عن عبد الله قال:

[٦٥٤٠] أصابنا طَشٌّ[١] وظُلْمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يَخْرج. ثم ذكر كلاماً معناه[٢]: فخرج رسول الله ﷺ لِيُصلِّيَ بنا، فقال: «قُلْ». فقلت: ما أقول؟ قال: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ والمعوذتين حين تمسي، وحين تصبح ثلاثاً، يكفِك كل شيء» وعن عقبة بن عامر الجُهَنِي قال:

[٦٥٤١] قال لي رسول الله ﷺ: «قُلْ». قلت: ما أقول؟ قال قل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ ـ فقرأهن رسول الله ﷺ، ثم قال ـ لم يتعوّذ الناس بمثلهن، أو لا يتعوّذ الناس بمثلِهن». وفي حديث ابن عابس[٣]:

[٦٥٤٢] «قل أَعوذ بِرب الفلقِ وقُلْ أَعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، هاتين السورتين». وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة:

[٦٥٤٣] أن النبيّ ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمُعَوِّذَتَيْن ويَنْفِثُ، فلما اشتدّ

[٦٥٤٠] أخرجه النسائي في «الكبرى» ٧٨٦٠ من حديث عبد الله بن خبيب وابن خبيب له صحبة كما في التقريب إلا أن النسائي أخرجه في المجتبىٰ ٨/٢٥١ عن عبد الله بن خبيب عن عقبة بن عامر مع اختلاف يسير فيه، وإسناده قوي.

[٦٥٤١] أخرجه النسائي ٨/٢٥١ وفي «الكبرىٰ» ٧٨٥٢ من حديث عقبة بن عامر وهو صحيح بطرقه. وأصله عند مسلم ٨١٤ وأبي داود ١٤٦٢.

[٦٥٤٢] أخرجه النسائي ٨/٢٥١ ـ ٢٥٢ والكبرىٰ ٧٨٤١ من حديث ابن عابس. قال الحافظ في التقريب: ابن عابس وعنه أبو عبد الله له حديث في سنن النسائي اهـ وانظر تفسير ابن كثير ٤/٦١٢ وقال الحافظ في التقريب عن أبي عبد الله: مدني مقبول اهـ فالإسناد لين.
وصدر الحديث «أن رسول الله ﷺ قال له: يا بن عابس ألا أدلك أو قال: ألا أخبرك ما يتعوذ به المتعوذون قال: بلىٰ. يا رسول الله قال: قل...» بمثله.

[٦٥٤٣] صحيح. أخرجه البخاري ٥٠١٦ ومسلم ٢١٩٢ وأبو داود ٣٩٠٢ ومالك ٢/٩٤٢ وابن حبان ٢٩٦٣ وأحمد ٦/١١٤ و ١٢٤ و ١٦٦ من حديث عائشة.

---

(١) الطَّشُّ: المطر الضعيف.

(٢) هكذا هو في سنن النسائي بهذه العبارة.

(٣) وقع في الأصل «ابن عباس» والتصويب عن سنن النسائي الصغرىٰ والكبرىٰ.

وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيده، رجاءَ بركتها. النَّفْث: النفخ ليس معه ريق.

الثانية: ثبت في الصحيحين من حديث عائشة:

[٦٥٤٤] أن النبيّ ﷺ سحره يهوديّ من يهود بني زُرَيْق، يقال له لَبِيدُ بن الأَعْصم، حتى يخيلُ إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ـ في غير الصحيح: سنة[(١)] ـ ثم قال: «يا عائشة، أُشْعِرت، أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه. أتاني ملكان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رِجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي: ما شأن الرجل؟ قال: مَطْبوب[(٢)]. قال ومَنْ طَبَّهُ؟ قال لَبيد بن الأَعصم. قال في ماذا؟ قال: في مُشْطٍ ومُشاطة[(٣)] وجفّ طلعةِ ذكر[(٤)]، تحت راعوفة[(٥)] في بئر ذي أَوْران[(٦)]». فجاء البئر واستخرجه. انتهى الصحيح.

[٦٥٤٥] وقال ابن عباس: «أما شَعَرْتِ يا عائشة أن الله تعالى أخبرني بدائي». ثم بعث علِياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة وهي الراعوفة ـ صخرة تترك أسفل البئر يقوم عليها المائح، وأخرجوا الجُفّ، فإذا مُشَاطة رأس إنسان، وأسنان من مُشْط، وإذا وتَر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقْد،

[٦٥٤٤] صحيح. أخرجه البخاري ٣١٧٥ و ٥٧٦٥ و ٦٠٦٣ ومسلم ٢١٨٩ وابن ماجة ٣٥٤٥ وابن حبان ٦٥٨٤ وأحمد ٦/ ٦٣ و ٩٦ من حديث عائشة.

[٦٥٤٥] ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٦١٤ ـ ٦١٥ بأتم منه ونسبه للثعلبي وقال: هكذا أورده بلا إسناد، وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم والله أعلم ا هـ وانظر طبقات ابن سعد ٢/ ١٥٣ فقد أخرجه بنحوه.

---

(١) قال ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢٢٦: وقع عند الإسماعيلي «فأقام أربعين ليلة» وفي رواية عند أحمد «ستة أشهر» وقال السُّهيْلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي ﷺ فيها في السحر حتى ظفرت به في «جامع معمر» عن الزهري أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصولاً بإسناد الصحيح فهو المعتمد ا هـ.

(٢) المطبوب: المسحور، يقال: طُبَّ الرجل إذا سُحر.

(٣) المشاطة: هي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند التسريح.

(٤) أي وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه.

(٥) قال ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢٣٤: الراعوفة: حجر يوضع على رأس البئر لا يستطاع قلعه، يقوم عليه المستقى، وقد يكون في أسفل البئر.

قال أبو عبيد: صخرة تنزل في أسفل البئر إذا حضرت يجلس عليها الذي ينظف البئر.

(٦) هو بئر في المدينة، في بستان بني زريق.

أمر أن يتعَوَّذ بهما؛ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد النبيّ ﷺ خِفّة، حتى انحلت العقدة الأخيرة، فكأنما أُنشِط من عِقال، وقال: ليس به بأس. وجعل جبريل يَرْقِي رسول الله ﷺ فيقول: «باسم الله أَرْقِيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسدٍ وعَيْن، والله يَشْفِيك». فقالوا: يا رسول الله، ألا نقتل الخبيث. فقال: «أمّا أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثيرَ على الناس شَرًّا». وذكر القشيري في تفسيره أنه ورد في الصِّحاح: أن غلاماً من اليهود كان يخدُم النبيّ ﷺ، فدسَّتْ إليه اليهود، ولم يزالوا به حتى أَخَذ مُشاطة رأس النبيّ ﷺ. والمُشاطة (بضم الميم): ما يسقُط من الشعر عند المشط. وأخذ عدّة من أسنان مُشْطه، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها، وكان الذي تولى ذلك لَبيدُ بن الأَعْصم اليهوديّ. وذكر نحو ما تقدّم عن ابن عباس.

الثالثة: تقدّم في البقرة القول في السحر وحقيقته، وما ينشأ عنه من الآلام والمفاسد، وحكم الساحر؛ فلا معنى لإعادته.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ اختُلف فيه؛ فقيل: سِجن في جَهنم؛ قاله ابن عباس. وقال أُبَيُّ بن كعب: بيت في جهنم إذا فُتح صاح أهل النار من حره. وقال الحُبُليّ أبو عبد الرحمن[1]: هو أسم من أسماء جهنم. وقال الكلبي: واد في جهنم. وقال عبد الله بن عمر: شجرة في النار. سعيد بن جبير: جُبٌّ في النار. النحاس: يقال لما اطمأنّ من الأرض فَلَق؛ فعلى هذا يصح هذا القول. وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير أيضاً ومجاهد وقتادة والقُرَظِيّ وابن زيد: الفَلَق، الصُّبْح. وقاله ابن عباس. تقول العرب: هو أبين من فَلَقِ الصُّبْح وفرقَ الصبح. وقال الشاعر:

يا ليلةً لم أنمْها بِتُّ مُرْتَفِقاً[2] ... أَرْعَى النجومَ إلى أَنْ نَوَّرَ الفَلَقُ

وقيل: الفلق: الجبال والصخور تنفلق بالمياه؛ أي تتشقق. وقيل: هو التفليق بين الجبال والصخور؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل. قال زهير:

ما زِلْتُ أَرْمُقُهُم حتى إذا هَبَطَتْ ... أيدِي الرِّكابِ بِهِمْ مِن راكِسٍ فَلَقَا

الراكس: بطن الوادي. وكذلك هو في قول النابغة:

أَتَانِي ودُونِي راكِسٌ فالضَّواجِعُ[3]

والراكس أيضاً: الهادي، وهو الثور وسط البَيْدَر[4]، تدور عليه الثّيران في الدِّياسة.

(١) هو عبد الله بن يزيد المعافري أحد علماء الحديث.

(٢) المرتفق: المتكيء على مرفق يده.

(٣) الضاجعة: منحنىٰ الوادي.

(٤) موضع تُداس فيه الحبوب.

وقيل: الرحم تنفلق بالحيوان. وقيل: إنه كل ما انفلق عن جميع ما خَلَق من الحيوان والصبح والحبّ والنَّوَى، وكل شيء من نبات وغيره؛ قاله الحسن وغيره. قال الضحاك: الفَلَقُ الخلْق كُلُّه؛ قال[1]:

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصاً رَبَّ الْفَلَقْ   سِـرًّا وقـدْ أَوَّنَ تَـأْوِيـن العُقُـقْ[2]

قلت: هذا القول يشهد له الاشتقاق؛ فإن الفَلْق الشق. فَلَقْت الشيء فلقاً أي شققته. والتفليق مثله. يقال: فَلَقته فانفلق وتَفَلَّق. فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونَوَى وماء فهو فَلَق؛ قال الله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦] قال: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]. وقال ذو الرمّة يصف الثور الوَحْشِيّ:

حَتَّى إذَا ما انْجَلَى عن وجهِه فَلَقٌ   هادِيهِ في أُخْرَيَاتِ اللَّيلِ مُنْتَصِبُ

يعني بالفلق هنا: الصبح بعينه. والفلق أيضاً: المطمئن من الأرض بين الربْوتين، وجمعه؛ فُلْقان؛ مثل خَلَق وخُلْقان. وربما قالوا: كان ذلك بفالق كذا وكذا؛ يريدون المكان المنحدر بين الربوتين. والفلَق أيضاً مِقطرة[3] السَّجان. فأما الفِلْق (بالكسر): فالداهية والأمر العجب؛ تقول منه: أفلق الرجل وافتلق. وشاعر مُفْلِق، وقد جاء بالفِلْق أي بالداهية. والفِلْق أيضاً: القضيب يُشَقُّ باثنين، فيعمل منه قَوْسان؛ يقال لكل واحدة منهما فِلْق. وقولهم؛ جاء بعُلَق فُلَق؛ وهي الداهية؛ لا يُجرى مُجرَى عُمر. يقال منه: أعلقت وأفلقت؛ أي جئت بعُلَق فُلَق. ومرّ يفتلق في عدوه؛ أي يأتي بالعجب من شدّته.

قوله تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ قيل: هو إبليس وذرّيته. وقيل: جهنم. وقيل: هو عامّ؛ أي من شر كل ذي شر خلقه الله عز وجل.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ اختُلف فيه؛ فقيل: هو الليل. والغَسَق: أوّل ظلمة الليل؛ يقال منه: غَسَق الليلُ يَغْسِق أي أظلم. قال ابن قيس الرقيات:

إنَّ هَـذَا الليـلَ قـد غَسَقـا   واشْتَكَيْـتُ الهـمَّ والأَرَقَـا

وقال آخر:

يا طيفَ هِندٍ لَقَدْ أَبْقَيت لِي أَرَقاً   إِذْ جِئتنا طارِقاً والليلُ قَدْ غَسَقَا

هذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسُّدّيّ وغيرهم. و«وَقَبَ» على هذا التفسير:

---

(١) هو رؤبة بن العجاج.

(٢) العقوق: هي التي تكامل حملها.

(٣) المقطرة: خشبة فيها خروق يدخل فيها أرجل المحبوسين.

أظلم؛ قاله ابن عباس. والضحاك: دَخَلَ. قتادة: ذَهَبَ. يَمانُ بن رِئاب: سَكَن. وقيل: نزل؛ يقال: وَقَب العذاب على الكافرين؛ نَزَل. قال الشاعر:

وَقَبَ العذابُ عليهمُ فكأنَّهُمْ لَحِقتْهُمُ نارُ السَّمُومِ فأُحْصِدُوا

وقال الزجاج: قيل لِلَّيل[1] غاسق لأنه أبرد من النهار. والغاسق: البارد. والغَسَق: البرد؛ ولأن في الليل تخرج السِّباع من آجامها، والهوام من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العيث والفساد. وقيل: الغاسق: الثُّريّا؛ وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين، وإذا طلعت ارتفع ذلك؛ قاله عبد الرحمن بن زيد. وقيل: هو الشمس إذا غربت؛ قاله ابن شهاب. وقيل: هو القمر. قال القُتَبِيّ: ﴿إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ القمر: إذا دخل في ساهوره، وهو كالغلاف له، وذلك إذا خُسِفَ به. وكل شيء أسود فهو غَسَق. وقال قتادة: «إذا وَقَب» إذا غابَ. وهو أصح؛ لأن في الترمذيّ عن عائشة:

[٦٥٤٦] أن النبيّ ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وَقَبَ». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وقال أحمد بن يحيى ثعلب عن ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث: وذلك أن أهل الرِيَب يَتَحينون وَجبة القمر. وأنشد:

أراحنِي اللَّهُ مِن أشياءَ أَكرهُها منها العجوزُ ومنها الكلبُ والقمرُ
هذا يبوحُ وهذا يُستضاء بِه وهذه ضِمْرِزٌ قَوَّامَةُ السَّحَرِ[2]

وقيل: الغاسق: الحية إذا لدغت. وكأن الغاسق نابُها؛ لأن السم يغسق منه؛ أي يسيل. ووقب نابها: إذا دخل في اللدِيغ. وقيل: الغاسق: كل هاجم يضر، كائناً ما كان؛ من قولهم: غسقتِ القرحة: إذا جرى صديدُها.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ يعني الساحرات اللائي ينفُثْن في عُقَد الخيط حين يرقين عليها. شبه النفخ كما يعمل من يرقِين. قال الشاعر:

[٦٥٤٦] أخرجه الترمذي ٣٣٦٦ والحاكم ٢/ ٥٤٠ والطيالسي ١٤٨٦ وأبو الشيخ في العظمة ٦٨١ وأحمد ٦/ ٦١ و٢٠٦ و٢٣٧ من حديث عائشة صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح اهـ.

---

(١) في الأصل «الليل».
(٢) الضمرز: الناقة المسنة. ومن النساء الغليظة.

أَعُــوذُ بِــربِّــي مِــن النَّــافِثَــا ... تِ فـي عِضـهِ العاضِـهِ المُعْضِـه[1]

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرة:

نَفَثْـتَ فـي الخيـطِ شَبِيـهَ الـرُّقَـى ... مِـن خشيـة الجِنـةِ والحـاسِـدِ

وقال عنترة:

فـإنْ يَبْـرَأْ فلَـمْ أَنْفُـثْ عَلَيْـهِ ... وإنْ يُفْقَــدْ فَحُــق لَــهُ الفُقُــودُ

السابعة: روى النَّسائي عن أبي هريرة قال:

[٦٥٤٧] قال رسول الله ﷺ: «**من عَقَد عُقدة ثم نَفَثَ فيها، فقد سَحَر، ومن سحر فقد أَشْرَك، ومَنْ تَعَلَّق[2] شيئاً وُكِل إليه**». واختلِف في النفْث عند الرُّقَى، فمنعه قوم، وأجازه آخرون. قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفُث، ولا يمسح ولا يعقِد. قال إبراهيم: كانوا يكرهون النفث في الرُّقَى. وقال بعضهم: دخلت على الضحاك وهو وجِع، فقلت: ألا أُعَوِّذُك يا أبا محمد؟ قال: بلى، ولكن لا تنفث؛ فعوّذته بالمعوذتين. وقال ابن جريج قلت لعطاء: القرآن يُنفَخ به أو يُنْفَثُ؟ قال: لا شيء من ذلك ولكن تقرؤه هكذا. ثم قال بعد: انفُثِ إن شئت. وسئل محمد بن سِيرين عن الرُّقية يُنْفث فيها، فقال: لا أعلم بها بأساً، وإذا اختلفوا فالحاكم بينهم السنة. روت عائشة:

[٦٥٤٨] أن النبيّ ﷺ كان ينفِث في الرُّقية؛ رواه الأئمة، وقد ذكرناه أوّل السورة وفي (سُبْحان). وعن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتت به أمّه النبيّ ﷺ، فجعل ينفُث عليها ويتكلم بكلام؛ زعم أنه لم يحفظه. وقال محمد بن الأشعث: ذُهِب بي إلى عائشة رضي الله عنها وفي عينيّ سوء، فرقَتْنِي ونَفَثَت.

وأما ما رُوي عن عكرمة من قوله: لا ينبغي للراقي أن ينفُث؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفْث في العُقَد مما يستعاذ به، فلا يكون بنفسه عُوذة. وليس هذا هكذا؛ لأن النفث في العُقَد إذا كان مذموماً لم يجب أن يكون النفث بلا عُقد مذموماً. ولأن النفث في العُقَد إنما أريد به السحر المضِرّ بالأرواح، وهذا النفث لاستصلاح

[٦٥٤٧] أخرجه النسائي ٧/١١٢ وفي الكبرىٰ ٣٥٤٢ من حديث أبي هريرة. وفي إسناده عباد بن ميسرة المنقري، وهو لين الحديث، وفيه أيضاً عنعنة الحسن البصري. انظر جامع الأصول ٣٠٧١، والدر المنثور ٦/٧١٩.

[٦٥٤٨] تقدم في سورة الإسراء.

---

(١) العِضَة: الكذب والبهتان. والعاضه: الساحر.

(٢) أي علق شيئاً من التمائم وغيرها.

الأبدان، فلا يقاس ما ينفع بما يضر. وأما كراهة عكرمة المسحَ فخلاف السنة.

[٦٥٤٩] قال علي رضي الله عنه: اشتكيت، فدخل عليّ النبيّ ﷺ وأنا أقول: اللهمَّ إنْ كان أجلي قد حَضَرَ فأرِحني، وإن كان متأخراً فاشفني وعافني، وإن كان بلاء فصبرني. فقال النبيّ ﷺ: «كيف قلت»؟ فقلت له. فَمَسحني بيده، ثم قال: «اللهم اشْفِه» فما عاد ذلك الوجع بعد. وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر ورويس عن يعقوب «ومِن شر النافِثاتِ» في وزن (فاعلات). ورُوِيت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. وروي أن نساء سحرن النبيّ ﷺ في إحدى عشرة عقدة؛ فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية. قال ابن زيد: كنّ من اليهود؛ يعني السواحر المذكورات. وقيل: هنّ بنات لَبِيد بن الأعصم.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ قد تقدم في سورة «النساء» معنى الحسد، وأنه تمني زوالِ نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها. والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل. فالحسدُ شرٌّ مذموم. والمنافسة مباحة وهي الغِبطة. وقد روي:

[٦٥٥٠] أن النبيّ ﷺ قال: «المؤمن يَغْبِطُ، والمنافق يَحْسُد». وفي الصحيحين:

[٦٥٥١] «لا حسَد إلا في اثنتين» يريد لا غِبْطَة. وقد مضى في سورة «النساء» والحمد لله.

قلت: قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيَتْبَع مساوئه ويطلب عَثَراته.

[٦٥٥٢] قال ﷺ: «إذا حَسَدت فلا تَبْغِ...» الحديث. وقد تقدم. والحسد أوّل ذنب عُصِي الله به في السماء، وأول ذنب عُصِي به في الأرض، فحسَدَ إبليس آدَمَ، وحسد قابيلُ هابيلَ. والحاسد ممقوت مبْغوض مطرود ملعون. ولقد أحسن من قال:

قُـلْ للحسـود إذا تَنَفَّـس طَعْنَـةً   يـا ظـالمـاً وكـأنـهُ مَظْلُـومُ

التاسعة: هذه سورة دالة على أن الله سبحانه خالق كل شر، وأمر نبيه ﷺ أن يتعوّذ من جميع الشرور. فقال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾. وجعل خاتمة ذلك الحسد، تنبيهاً على عِظَمه، وكثرة ضرره، والحاسد عدوّ نعمة الله. قال بعض الحكماء: بارزَ الحاسد ربه من

[٦٥٤٩] أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ١٧٩ من حديث عليّ، وفيه عبد الله بن سَلِمَة، وفيه ضعف.

[٦٥٥٠] تقدم.

[٦٥٥١] تقدم.

[٦٥٥٢] تقدم.

خمسة أوجه: أحدها: أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره. وثانيها: أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة؟ وثالثها: أنه ضادَّ فعل الله، أي إن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخَل بفضل الله. ورابعها: أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم. وخامسها: أنه أعانَ عدوّه إبليس. وقيل: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لَعنة وبغضاء، ولا ينال في الخلوة إلا جَزَعاً وغماً، ولا ينال في الآخرة إلا حُزْناً واحتراقاً، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً. ورُوي:

[٦٥٥٣] أن النبيّ ﷺ قال: «ثلاثة لا يُستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومُكثِر الغِيبة، ومن كان في قلبه غِلٌّ أو حسد للمسلمين». والله سبحانه وتعالى أعلم.

سورة الناس

مِثل «الفلق» لأنها إحدى المعوذتين. وروى الترمذيّ عن عقبة بن عامر الجهنيّ:

[٦٥٥٤] عن النبيّ ﷺ قال: «لقد أنزل الله عليّ آيات لم يُرَ مِثْلُهُنّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ إلى آخر السُّورة و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ إلى آخر السورة». قال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ أي مالكهم ومُصْلِح أمورهم. وإنما ذكر أنه رب الناس، وإن كان رباً لجميع الخلق لأمرين: أحدهما: لأن الناس مُعَظَّمون؛ فأعْلَم بذكرهم أنه ربٌّ لهم وإن عظموا. الثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم؛ فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم. وإنما قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ لأن في الناس ملوكاً يذكر أنه مَلِكُهُم، وفي الناس من يعبد غيره، فذكر أنه إلٰههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به، ويُلْجأ إليه، دونَ الملوك والعظماء.

[٦٥٥٣] لم أجده بعدُ.

[٦٥٥٤] صحيح. أخرجه مسلم ٨١٤ والترمذي ٣٣٦٧ من حديث عقبة بن عامر.

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾.

يعني: مِن شر الشيطان. والمعنى: من شر ذي الوسواس؛ فحذف المضاف؛ قال الفرّاء: وهو (بفتح الواو) بمعنى الاسم؛ أي المُوسوِس. و(بكسر الواو) المصدر؛ يعني الوسوسة. وكذا الزَّلزال والزِّلزال. والوسوسة: حديث النفس. يقال: وسوست إليه نفسه وَسْوسة ووِسوسَة (بكسر الواو). ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحُلِيّ: وسْواس. قال ذو الرمة:

فبـاتَ يُشْئِـزه ثَـأدٌ ويُسْهِـرُهُ   تَذوُّبُ الريحِ والوَسْواسُ والْهِضَبُ[1]

وقال الأعشى:

تسمع للحلى وسَوْاساً إذا انصرفت   كما استعانَ بريحِ عِشْرِقٌ زَجِلُ[2]

وقيل: إن الوسواس الخناس ابن لإبليس، جاء به إلى حواء، ووضعه بين يديها وقال: اكْفُلِيه. فجاء آدم عليه السلام فقال: ما هذا يا حواء! قالت: جاء عدونا بهذا وقال لي: اكْفُليه. فقال: ألم أقل لكِ لا تطيعيه في شيء، هو الذي غرنا حتى وقعنا في المعصية؟ وعمد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع، وعلق كل ربع على شجرة، غيظاً له؛ فجاء إبليس فقال: يا حواء، أين ابني؟ فأخبرته بما صنع به آدم عليه السلام فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه. فجاء به إلى حواء وقال: اكفليه؛ فجاء آدم عليه السلام فحرَّقه بالنار، وذرّ رماده في البحر؛ فجاء إبليس عليه اللعنة فقال: يا حوّاء، أين ابني، فأخبرته بفعل آدم إياه؛ فذهب إلى البحر، فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه. فجاء به إلى حواء الثالثة، وقال: اكفليه. فنظر؛ إليه آدم، فذبحه وشواه، وأكلاه جميعاً. فجاء إبليس فسألها فأخبرته حـواء. فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه فجـاء بـه من جوف آدم وحوّاء. فقال إبليس: هذا الذي أردت، وهذا مسكنك في صدر ولد آدم؛ فهو ملتقم قلب ابن آدم ما دام غافلاً يوسوس، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخنس. ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول[3] بإسناد عن وهب بن منبه. وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم. ووُصِف بالخناس لأنه كثير الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ [التكوير: ١٥] يعني النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: لأنه يَخْنِس إذا ذكر العبدُ الله، أي يتأخر. وفي الخبر:

---

(١) شَئِزَ الرجلُ: قلق من مرض أو وهم. والثأد: الأمر القبيح. تذوُّب الريح: هبوبها.

(٢) العشرق: نبت له ورق فإذا يبس طار. والزجل: الصوت.

(٣) هذا الخبر من الإسرائيليات، وقد أكثر وهب بن منبه من الرواية عن كتب الأقدمين!

[٦٥٥٥] «إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا غفل وَسْوس، وإذا ذكر الله خَنس» أي تأخر وأقصر. وقال قتادة: «الخَنَّاس» الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غفل الإنسان وسوس له، وإذا ذكر العبد ربه خَنَس. يقال: خَنَسْتُهُ فخَنَسَ؛ أي أخرته فتأخر. وأخنسته أيضاً. ومنه قول أبي العلاء الحضرمِيّ ـ أنشد رسول الله ﷺ ـ:

وإنْ دَحَسُوا بالشَّرّ فاعْفُ تكرما وإنْ خَنَسُوا عندَ الحديثِ فلا تَسَلْ

الدَّحْس: الإفساد. وعن أنس:

[٦٥٥٦] أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان واضع خَطْمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خَنَس، وإذا نسِي الله التقم قلْبه فوسوس». وقال ابن عباس: إذا ذكر اللَّهَ العبدُ خَنَس من قلبه فذهب، وإذا غفل الْتَقَم قلبه فحدّثه ومَنَّاه. وقال إبراهيم التيمِيّ: أوّل ما يبدو الوسواس من قِبل الوضوء. وقيل: سمي خَنَّاساً لأنه يرجع إذا غَفَل العبدُ عن ذكر الله. والخَنَس: الرجوعُ. وقال الراجز:

وصاحبٍ يَمْتَعِسُ امتِعاساً يزدادُ إن حَيَّيْتُه خِناسا

وقد روى ابن جُبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ وجهين: أحدهما: أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى. الثاني: أنه الخارج بالوسوسة من اليقين.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾.

قال مقاتل[1]: إن الشيطان في صورة خنزير، يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، سَلَّطه الله على ذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾. وفي الصحيح:

[٦٥٥٥] موقوف. أخرجه الطبري ٣٨٣٩٠ عن ابن عباس موقوفاً عليه.

[٦٥٥٦] ضعيف. أخرجه أبو يعلىٰ ١٥٤٦ وأبو نعيم في الحلية ٦/٢٦٨ والبيهقي في الشعب ٥٤٠ من حديث أنس.

وذكره الهيثمي في المجمع ٧/١٤٩ وقال: وفيه عدي بن أبي عمارة، وهو ضعيف اهـ.

ـ وأشار ابن حجر في الفتح ٨/٧٤٢ إلى رواية أنس، وضعف إسنادها.

ـ وله شاهد عن ابن عباس موقوفاً وقد تقدم.

---

(١) مقاتل يحدث عن كتب الأقدمين، والوهن فقط بقوله «في صورة خنزير».

[٦٥٥٧] عن النبيّ ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم». وهذا يصحح ما قاله مقاتل. وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي ثعلبة الخُشنيّ قال: سألت الله أن يريني الشيطان ومكانه من ابن آدم فرأيته، يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده؛ غير أن له خَطْماً كخطم الكلب، فإذا ذَكَر الله خنس ونكس، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه. فعلى ما وصف أبو ثعلبة أنه متشعب في الجسد؛ أي في كل عضو منه شعبة. وروي عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال ـ وقد كبِر سِنه ـ: ما أمِنت الزنى وما يؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فيوتده! فهذا القول ينبئك أنه متشعب في الجسد، وهذا معنى قول مقاتل. ووسوسته: هو الدعاء لطاعته بكلام خفيٍّ، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

أخبر أن الموسوِس قد يكون من الناس. قال الحسن: هما شيطانان؛ أما شيطان الجنّ فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطين، وإن من الإنس شياطين؛ فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجنّ. وروي عن أبي ذرّ أنه قال[1] لرجل: هل تعوّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أوَ مِن الإنس شياطين؟ قال: نعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]... الآية. وذهب قوم إلى أن الناس هنا يراد بهم الجن. سموا ناساً كما سموا رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الجن: ٦] ـ وقوماً ونفراً. فعلى هذا يكون «والناسِ» عطفاً على «الجِنةِ»، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين. وذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدّث: جاء قوم من الجن فوقفوا. فقيل: مَن أنتم؟ فقالوا: ناس من الجن. وهو معنى قول الفرّاء. وقيل: الوسواس هو الشيطان. وقوله: «مِن الجِنةِ» بيان أنه من الجن «والناسِ» معطوف على الوسواس. والمعنى: قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس، الذي هو من الجِنة، ومن شر الناس. فعلى هذا أمِر بأن يستعيذ من شر الإنس والجن. والجِنَّة: جمع جِنِّي؛ كما يقال: إنس وإنسيّ. والهاء لتأنيث الجماعة. وقيل: إن إبليس يوسوس في صدور الجن، كما يوسوس في صدور الناس. فعلى هذا يكون «في صدور الناس» عاماً في الجميع. و«من الجِنة والناس» بيان لما

[٦٥٥٧] تقدم تخريجه.

(١) جاء هذا مرفوعاً بسند حسن، وتقدم في سورة الأنعام.

يوسوس في صدره. وقيل: معنى «مِن شر الوسواسِ» أي الوسوسة التي تكون من الجنة والناس، وهو حديث النفس. وقد ثبت:

[٦٥٥٨] عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به». رواه أبو هريرة، أخرجه مسلم. فالله تعالى أعلم بالمراد من ذلك.

تمّ بحمد اللّه

[٦٥٥٨] صحيح. أخرجه البخاري ٢٥٢٨ و ٥٢٦٩ ومسلم ١٢٧ وأبو اداود ٢٢٠٩ والترمذي ١١٨٣ والنسائي ٦/١٥٦ و ١٥٧ وابن ماجة ٢٠٤٤ والبيهقي ٧/٢٩٨ وأحمد ٢/٢٥٥ و ٤٢٥ و ٤٨١ من حديث أبي هريرة. وله شواهد.